

916.2
K12 hA

~~1961~~

~~3 AUG 1971~~

OCT 1 1961

~~1961~~

~~22 JUL 1974~~

مَصْنَعُ الْحَيَاةِ مِنْ حَضَارَةِ

لنخبة من زعماء الرأي والثقافة في مصر

عُني بنشره

قسم الخدمة العامة

بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

68702

والتمت طبعه وبيعه ادارة

المطبعة المصرية

سنة ١٩٣٣

فهرس

صفحة	
٥	مقدمة - المستر وندل كميلاند
٩	ينابيع الثروة الزراعية - فؤاد بك اباضه
	القطن - القمح - البصل - قصب السكر - الذرة - الأرز - الشعير - العدس - الفول - البرسيم - الكتان - فلاحه البساتين - النخيل - النحل - الحيوانات الزراعية
٢٥	الثروة المعدنية - الدكتور و. ف. هيوم
	لمحة تاريخية عن التعدين في مصر - الذهب - الفضة - النحاس - خامات الحديد - المنجنيز الرصاص - الفوسفات - زيت البترول - احجار الزخرفة والبناء
٤٣	تجارة وصناعة مصر الحديثة - الدكتور عبد الحكيم الرفاعي
	تجارة مصر الخارجية - الصادرات والواردات - تجارة الترانسيت - الميزان التجاري - ميزان الحسابات - الصناعة في مصر - صناعة السكر - صناعة الغزل والنسيج - صناعات اخرى - مستقبل الصناعة في مصر
٧٠	الفلاح والصانع - الاستاذ سلامه موسى
	حال الفلاح والصانع قديماً - أثر استعمال الآلات في حياتهما - البطالة - الفاقة واسبابها - الحركة النقابية في مصر - اقتراحات للأصلاح
٧٩	التعليم والاتصال الفكرى - الاستاذ اسماعيل محمود القباني

٩٧ الحالة الصحية في الوقت الحاضر — الدكتور محمد شاهين باشا

١١٥ أوقات الفراغ والحياة المنزلية — الدكتور بنيامين بهمن
علاقة الرجل بزوجته — علاقة الوالدين بابنائهم — المنزل المصري
الجديد — الرجل — أوقات الفراغ — العلاج

١٣٥ ✓ الفن والأدب — الأنسب —
اللغة في دور التطور — بواعث التطور — اللغة والصحافة — أثر الحركة
القومية في اللغة — من الجدل السياسي الى البحث الأدبي — الأدب الحديث —
اقسام الأدب — الشعر والنثر — أدب العامة — التمثيل — النحت والرسم
والتصوير — الموسيقى — الخلاصة

١٥١ ✓ الدين وأثره — الاستاذ علي عبد الرازق

١٦٥ الرأي العام كأداة للرقابة الاجتماعية — الدكتور محمد حسين
هيكلك بك

١٧٧ التنظيم الاجتماعي بواسطة الحكومة — احمد بك صفوت

١٨٩ علاقة مصر الدولية — الأستاذ سابا حبشي

أهمية العلاقات الدولية كعنصر من العناصر المؤثرة في نشوء المجتمع —
أثر علاقات مصر الدولية في تاريخها القديم — أثر علاقات مصر الدولية في
تاريخها الحديث — حفر قناة السويس — المنافسة الانجليزية الفرنسية وتغلب
النفوذ الانجليزي وأثره في حياة البلاد — نظام الامتيازات الأجنبية
والقضاء المختلط .

مقدمة

يقول فردريك ليبلاي المهندس الفرنسى والاجتماعى الكبير فى نظريته المشهورة ان كل شعب من الشعوب هو نتيجة التفاعل بين ثلاثة عوامل ← المكان ← العمل ← السكان . وهذا ما دعا قسم الخدمة العامة الى الاهتمام بوضع كتاب (حضارة مصر الحديثة) الذى يدور حول نقطة واحدة ويبحثها من وجوه مختلفة . فيشمل هذا الكتاب اثني عشر موضوعاً روعى فى ترتيبها قاعدة ليبلاي . ومع أنه لا يمكن تطبيق هذه القاعدة حرفياً الا أن جميع موضوعاته ترمى الى بيان تأثير هذه العوامل الثلاثة مجتمعة . فان حالة كل جماعة من الجماعات التى يتألف منها الشعب تتوقف الى حد كبير على المكان الذى يعيشون فيه أى طبيعة بلادهم وجوها ومواردها . أما طرق استغلال هذه الموارد أى العمل فانها تحدد نوع الأعمال التى تقوم بها الجماعة لكسب المعيشة . وهذه تؤثر فى علاقة الجماعة بغيرها من الجماعات لا سيما اذا كانت التجارة أحد هذه الأعمال . غير أن العامل الأخير هو أهمها لأنه الجماعة نفسها ، أى السكان . فان سييل ائتلاف الجماعة وطرق استغلال مواردهم ونوع الحضارة التى يعملون على ترقيتها انما تتوقف على مبلغ إدراكهم ونبوغهم

دخلت الحياة المصرية فى عصر جديد منذ نشوب الحرب العالمية مما أدى الى اهتمام المصريين المتعلمين بأثر هذه العوامل الثلاثة التى يتوقف عليها تقدم البلاد فى المستقبل . فكانت الشؤون الزراعية من زمن بعيد أهم ما يشغل بال المصريين . غير أن الشؤون الصناعية أخذت تنال قسطاً وافراً من العناية فى عصرنا الحاضر وكذلك الأحوال التجارية التى يتوقف عليها رواج الزراعة والصناعة . ولم يكن اهتمام المصريين مقصوراً على الأمور المادية فان الحالة الاجتماعية والفكرية عنى بأمرها سواء ما كان منها متصلاً بحاجات الأهالى الأساسية كالمعيشة والصحة والتعليم ، أو خاصاً بالترفيه والتثذيب كاستعمالهم لأوقات الفراغ ، أو آدابهم وفنونهم ودينهم . هذه الموارد المادية والعقلية تحتم علينا أن نبحث فى الطرق التى تضمن نموها وتقدمها ، وهذا البحث يثير امامنا عدة مسائل كالأميال العامة وتقدم أنظمة الحكومة وعلاقتها بالأمم الأخرى .

فمن الموضوعات الأثني عشر تتناول الثلاثة الأولى موارد البلاد المادية من زراعة ومعادن وتجارة وصناعة، ثم يلي ذلك ستة موضوعات تبحث في حالة مصر الاجتماعية وكيفية تقدمهما، كعمل الفلاح والصانع، وانتشار الآراء في أنحاء البلاد، وتقدم المواصلات، وحالة الأهالي الصحية، واستعمال أوقات الفراغ، والحياة المنزلية، وبعد ذلك تعالج الحياة الروحية التي تتمثل في أدب وفن مصر، والحياة الدينية في موضوعين. وأخيراً تبحث ثلاثة موضوعات في التنظيم الاجتماعي. فيتناول الأول أثر التنظيم الاعتيادي، العادة والرأي العام. ويتناول الثاني التنظيم الرسمي بواسطة الحكومة. ويعالج الثالث العلاقات الدولية وأثرها في توجيه الحياة الأهلية

هذه الموضوعات القيت في اثنتي عشرة محاضرة بقاعة يورت التذكارية في فبراير ومارس وأبريل سنة ١٩٣٢

وكتب كل موضوع منها متخصص له ومعروف بصحة البحث وسعة الاطلاع وطول الاختبار. وعليه سيكون كل موضوع مرجعاً وملخصاً لأحدث الحقائق والنظريات. ويمتاز هذا الكتاب بأنه من وضع المصريين الذين لا تشوب آراءهم صبغة أجنبية.

وقد عالج كل محاضر موضوعه على طريقته في التفكير والأسلوب الذي ارتضاه ومن الواضح بناء على هذا ان المحاضرين غير متضامين فيما تضمن هذا الكتاب من مختلف الآراء. وقسم الخدمة العامة يسره أن يعرض هذه الأبحاث في حيدة تامة لأن مهمته ان يسعى لتنشيط الفكر لا أن يسيطر عليه

والأمل وطيد بأن يؤدي هذا الكتاب الى زيادة تفاعل العوامل الثلاثة ← المكان ← العمل ← السكان، وتقدم المرافق الوطنية وازدياد أثرها حتى ينعكس ترتيب النظرية فتصبح ← السكان ← العمل ← المكان. أي أن السكان يصبحون العامل المسيطر في إنتاج العمل حسب ارادتهم وبكيفية تؤدي الى تحسين المكان وجعله جذاباً منعشاً وهو منتهى الفن الذي يتجلى في سلسلة الموضوعات حيث تظهر عبقرية مصر الحديثة وطموحها

ونزل كليمون

مدير قسم الخدمة العامة



صاحب العزة فؤاد بك أباطه
مدير الجمعية الزراعية الملكية

ينابيع الثروة الزراعية في مصر

لحضرة صاحب العزة فؤاد بك باطه

يخيل الى حين أتكلّم عن ينابيع الثروة الزراعية في مصر اني انما أتناول حديثاً معاداً وأروى قصصاً تناولتها الأفكار ، وأعتقد اعتقاداً جازماً انه ان كانت مصر في حاجة ماسة وضرورة لازمة فان هذه الحاجة وتلك الضرورة هما تعمق الافكار المصرية وبذل أقصى الجهود في بحث ينابيع الثروة الزراعية ينبوعاً ينبوعاً ، وأن تكون العناية بهذه المباحث هي شغلنا الشاغل تذكرها كلها أشرفت شمسنا المظيرة ونكرر ذكرها عند مغربها ايضاً . ومن تغدّى بنعم مصر الزراعية لن ينكر ما لتوالي البحث في ينابيع هذه الثروة من الفوائد الجليلة والنعم التي تتجاوز الحصر والعد . ولعلّ بما سأبينه من قصص حدثنا التاريخ عنه تبين ما نحن ملزمون به وما يجب أن نبذل في سبيله كل مرتخص وغال حتى ندفع عن أنفسنا ما تهددنا الايام به من الضوائق الزراعية .
وأقدم بحثي بكلمة مجملة عن مصر الزراعية

مصر بلد زراعي

مصر واد استوى بين صحراوي يشق وسطه نهر النيل الميمون الروحات المبارك الغدوات . الذي يفيض كل عام على هذا الوادي بما يملؤه قوة ويزيد في اخصابه واعداده للانبات والاثمار معاً . لولاه لعم الجذب وأقترت الأرض وعم سطحها تراب تذروه الرياح وأصبحت جزءاً متمماً للصحراوي اللتين تكتنفانها . فهي كما قيل بحق هبة من النيل . ونعمة من نعمه نرجو الله دوامها ونسأله أن يقدرنا على شكره بالمحافظة عليها ، والسعي في مواصلة الانتفاع بها ، والعمل الدائم على زيادة الاثمار والانتاج بما نتخذه من التدابير الصالحة للارتواء بمائه ولادخاره لأوقات الحاجة ، حتى يعم النفع ويزداد الانتاج .

تلك حالة مصر منذ عرفها التاريخ من أول عصوره الى اليوم . فان أسفاره تحدثنا عن الزراعة في مصر ومبلغ عناية القائمين بالأمر فيها بهذا النهر الكريم — لا — بل النعيم الدائم . والخير المتتابع يتوالى علينا فيضاً . وبتكرار زيادته يستعاد فينا النشاط وتنشرح له صدورنا ، ونقبل على هذه الأرض التي تنادينا للعمل وتستقبلنا بوعود لم تخلفها ، فكأنما كلما رويت من ماء هذا النهر الكريم تقول لسكانها « هلموا الى بينوركم أردوها عليكم زرعاً مستويّاً على سوقه يملأ جيوبكم نضاراً ويوتكم خيراً » .

ان مصر تعتمد في ثروتها على الزراعة فهي رأس مالها منذ القدم ولقد تعلق مبلغ الرخاء فيها بالزراعة على تعاقب الأجيال فعم الرخاء كلما صاحت الزراعة . وحلت بالناس الضوابط وهددتهم الفاقة كلما اعتلت نظم الزراعة وتدهورت نتائجها وقلت حاصلاتها . كما أن الزراعة أثر من آثار النيل ونعمة من نعمه .

بقى على أن أضرم الى النيل تلك اليد العاملة والساعد المقتول والنفس المطبوعة على العمل والصبر المنتج ، أى الفلاح المصرى . فهو العامل الذى تحقق على يديه نتائج العمران في هذا البلد . ولا يفوتنى أن أضرم الى العوامل التي جعلت مصر بلداً زراعياً منذ نشأته ، شمسها المشرقة تلقى بأشعتها على هذه الأرض فتنبى تربتها وتدفع غوائل البرد عن نباتها وتأخذ بيد ذلك النبات الى مستوى البناء الصالح ثم تعاونه على اخراج ثمره دائبة في مساعدته على النضج حتى يحين حصاده وجنيه . ولا تقف آثارها عند هذا الحد بل أن الفلاح يستعين بضوئها وحرارتها على تخفيف ثماره حتى تصلح للحفظ .

هذه العوامل مجتمعة هي التي جعلت مصر بلداً فريداً في جميع الأدوار الزراعية . ففي العهد الأول عرفنا من التاريخ أن مصر رتبت حياتها الزراعية تبعاً لفيض ذلك النيل . فان الفلاح المصرى في ذلك العهد كان ينتظر انكشاف الأرض ونزول الماء عنها بعد الفيضان حتى يهب مشمراً عن سواعده يلقي فيها بالبذور قبل أن تجف ، ثم يعمل على أن تتوارى هذه البذور في طيات الأرض حتى تأخذ لنفسها الغذاء الصالح والماء الضرورى ، ثم لا يلبث أن يراها وقد لبست حلة خضراء تلاعبها الرياح وتساعددها حرارة الشمس على البناء . ولا تكاد تمر على هذه الحالة بضعة أشهر حتى يسعى هذا الفلاح لحصد ما زرعت يده وجمع الثمرة التي كان يرجوها . وهذا النوع من الزراعة بقيت عهوده متتابعة في مصر حتى عصرنا الحاضر في بعض الجهات وهو المسمى « برى الحياض » في

مصر العليا . ولقد عرفنا أيضاً أن المصريين في العهد القديم طمعوا في زيادة الثروة والانتاج فعمدوا الى النيل وبسطوا بعض نفوذهم عليه . وكان من آثار هندسة الري لهم أن حولوا مجرى النيل ، وأقاموا عليه المقاييس ، ومدوا منه الفروع تشق جنبات الأرض البعيدة عنه لتصل ماء النيل بها . ولما لم تتحقق كل رغباتهم في هذه الاعمال وحدها اعتزموا عملاً يعد من اكبر الاعمال الهندسية في أيامهم فأنشأوا بحيرة الفيوم ليخزنوا فيها كميات عظيمة من ماء النيل يروون بها أرضهم رياً دائماً حتى يتمكنوا من التنوع في المحاصيل . ولقد اجمعت المصادر التاريخية ، أو كادت ، فيما تحدثنا عن المقدار المزروع في هذا العهد السحيق . فان الأرض المزروعة في هذا العهد كانت أوسع من الأرض المزروعة الآن . فقد أربت المساحة المزروعة في عهد الأسرات على السبعة ملايين من الأفدنة ، وبلغ ما أنتجته الأرض من القمح والشعير في السنة الواحدة نحو اربعين مليوناً من الأردب ، وذلك يقارب خمسة أمثال ما تنتجه البلاد المصرية في السنة في الوقت الحاضر . حتى لقد كانت مصر في هذا الوقت ينبوعاً غذائياً لجاراتها ، تصدر إليها القمح وتقف في وجه القحط الذي كان يهاجم هذه الأقطار المجاورة في سنوات متعاقبة . وتلك قصة يوسف عليه السلام حينما جعله عزيز مصر على خزائن الأرض تنبئنا بأفصح بيان وأصدق خبر عن سيارات الأمم المجاورة حينما هبطت مصر تشتري منها القمح وتعود به الى بلادها . وأحب أن تذكروا أن سكان مصر في هذا العهد لم يكونوا حفنة من الناس بل كانوا اكثر عدداً من سكانها الآن ، فقد بلغ عددهم حينئذ ثمانية عشر مليوناً ، عمتهم غلات مصر وفضلت حتى وسعت الأقطار الاوربية وأخص بالذكر منها روما

ذلكم مبلغ ارتقاء مصر في العصور القديمة ، ولكن شأنها شأن غيرها في الخضوع لنواميس العمران وسنن الحياة . فقد اعتورتها حوادث الأيام ودال ملكها ونزلت الى عصور الجهالة المظلمة حتى كان عدد سكانها في أول القرن الماضي — أى القرن التاسع عشر — ٣,٤٣٠,٠٠٠ نسمة وانحطت مكانة الزراعة وأقفرت مساحاتها الواسعة حتى هبط المزروع من أرضها في ذلك الوقت الى ٣,٦١٣,٦٨٥ فداناً . ثم بدأت من ذلك الحين تسترد عظمتها وما كان لها من الرخاء ونماء الثروة الزراعية على يد ذلك المصلح العظيم منشىء مصر الحديثة صاحب الآثار الخالدة والنعم المشمورة رأس الأسرة المالكة محمد على باشا

فما تبوأ أريكة الولاية المصرية في أوائل القرن الماضي حتى نهض بمصر وسعى سعياً متواصلاً في تحسين زراعتها فتكاثر سكانها واتسعت مساحة الزراعة فيها. وإنى أرى قياماً بالواجب واعترافاً بالجميل لهذه الصفحة الخالدة أن أستعرض بعض ما قام به من الإصلاح الزراعى وتنظيم الري فأقول :

عمد محمد على باشا الى إصلاح نظام الري وجعله دائماً فى الدلتا، وإلى تغيير زراعة الحياض بالزراعة الدائمة والمتنوعة. فكان أول ما قام به تطهير الترعى حتى يتسع مجراها لحمل كميات كبيرة من الماء. ولما لم يحقق هذا بعض رجائه عمد إلى النيل نفسه فأخذ يرفع مناسيب مياهه، فأقام عند القناطر الخيرية هذه القناطر العظيمة التى ضمنت للوجه البحرى كله رخاء دائماً بما شقه من الترعى والرياحات التى تحمل مياه ذلك النهر إلى أراضيها المترامية الأطراف. وضع الحجر الأساسى لذلك البناء العظيم (القناطر الخيرية) فى سنة ١٨٤٧. ولما رأى من تولوا بعده أثر هذه القناطر بذلوا المال فى تقويتها سنتى ١٨٨٦ و ١٨٨٧ وهكذا استمرت أعمال تنظيم الري فى الحكومات المصرية المتعاقبة، فحُفرت المصارف العمومية والفرعية وزيد فى عدد الترعى. ومن أكبر أعمال الري عوداً بالفائدة على الزراعة المصرية ذلك البناء العظيم الذى أقيم عند مدينة اسوان (خزائن اسوان) عام ١٨٩٩ وما زالت الحكومات ساهرة على ذلك البناء توالى تعليته وتقويته وتعهده بالصيانة الدائمة حتى كان من آثاره أن قلت زراعة الحياض واتسعت مساحات الري الدائم فى مصر العليا أيضاً. ثم توالى بعد ذلك إقامة القناطر فانشئت قناطر اسنا عام ١٩٠٩ ونجع حمادى الجارى العمل فيها الآن. وأسيوط عام ١٩٠١ وقناطر زفتى عام ١٩٠٢ لرفع منسوب المياه خلفها وتغذية الترعى المتفرعة من النهر عندها. وكان من آثار كل ذلك أن بلغت مساحة الأرض المزروعة فى مصر هذه السنة — ٣١٧ و ٦١٦ و ٥ من الأفدنة. وما زالت البلاد تنظر بعين الأمل إلى المستقبل القريب الذى تتم فيه مشروعات الري الكبرى فنهض الزراعة نهضتها الأولى وتنجو البلاد من الضوائق الزراعية التى تهددها. فإن عدد سكانها قد نما نماء سريعاً جداً حتى بلغ فى الإحصاء الأخير ١٤ و ٢١٣ و ٠٠٠ نسمة، لكن مساحة الأرض المزروعة ٣١٧ و ٦١٦ و ٥ فدانا وهو مقدار كما تعرفون قليل جداً بالنسبة إلى عدد السكان، ويدل دلالة صريحة على أن البلاد ما زالت مهددة بخاطر القحط والمجاعة

وضروب البطالة والعمال العاطلين الذين لا بد لنا من أن نتدبر شأنهم ونسعى في إيجاد أعمال لهم . ويكفي دليلاً على هذا أن اذكر النسبة بين عدد السكان وعدد الأفدنة في أزمنة سابقة وفي الوقت الحاضر ، فإن ما يخص كل خمسة أشخاص من السكان في هذا الوقت هو فدان من الأرض — نسبة ضئيلة جداً — فقد كانت في أول عهد محمد علي باشا لكل شخص واحد فداناً وفي سنة ١٨٨١ كان لكل ثلاثة أشخاص فدانان . لذلك كان واجباً محتوماً علينا أن لا تتوانى في مواصلة السعى في توسيع المساحات المزروعة واصلاح الأراضي البور واقامة المشروعات الهندسية المساعدة على ذلك . وإنى لكبير الأمل أن تكلل مشروعاتنا المستقبلية بالنجاح حتى تنجو البلاد من الأخطار وتتكافأ نسبة الأراضي الزراعية وحاجة السكان الذين ينمو عددهم نمواً مطرداً كل سنة .

ولقد كان من اثار منشآت الري ان نعمت مصر بكثير من صنوف الحاصلات الزراعية التي تحتاج الى الري الدائم طول السنة . وكان أهم ما تمتعت به من الحاصلات الزراعية القطن .

القطن

قد يظن البعض ان زراعة القطن لم تعرفها مصر الا في القرن الماضي ، ولكني أقول أن زراعته كانت معروفة قبل ذلك من زمن بعيد . ومع اني لا أستطيع الجزم بوجوده في عهد الفراعنة أؤكد أنه عرف في مصر منذ الفتح الاسلامي ، وإن لم يكن في مقدمة الحاصلات الأخرى ولا في مستواها ، فإن عماد الثروة الزراعية في هذه العهود كان على القمح والقصب وغيرهما من الحاصلات الأخرى . ولم يكن القطن حولياً كما هو الآن ، فقد كانت أشجاره تعمر في الأرض وتستثمر في كل عام شأن أشجار الفاكهة اليوم .

ولقد ذكر ابن معاذ خراج مصر في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٧٢ هـ — ١١٧٦ م) ثم قام حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون بتقدير قيمة ذلك الخراج الذي كان يتقاضى عن الفدان الواحد فكانت حسبته ٤٢ قرشاً لفدان القطن و ٢١٢ قرشاً لفدان القصب و ٦١ قرشاً لفدان القمح و ١٢٧ قرشاً للكتان و ١٢٧ قرشاً للنيلة (من كتاب مالية مصر صحيفة ٢٣٣ و ٢٣٤) ومن ذلك يرى أن القطن لم يكن من الحاصلات الرئيسة في ثروة البلاد في ذلك العهد .

فلما استولى محمد على باشا على البلاد المصرية ونهض بها، كما أشرت الى ذلك، كان من آثار نهضته هذه ان استقدم من فرنسا المسيو جومل سنة ١٨٢١ ليستعين به على تنظيم مصانع الغزل والنسيج في مصر. وكان النوع الغالب من القطن اذ ذاك رديثا لا يكاد يصلح الا للتجيد ولكن مسيو جومل عثر مصادفة في بعض جولاته على نوع جيد من القطن في حدائق محوبك، أحد ولاياتها، فاعجب برتبته وعرضه على محمد على باشا وأشار عليه أن يزيد مقدار المزروع من نوعه. وأدرك محمد على باشا بثاقب رأيه ما يعود على البلاد من الفوائد الجمة اذا انتشرت زراعته فعمل على تنشيط المزارعين بشراء محصولاتهم القطنية بأثمان مرتفعة. ولم يمض على ذلك الا سنوات قليلة حتى انتشر هذا النوع من القطن وأطلق عليه قطن محوبك أو قطن جومل. ولما أدرك محمد على باشا الثمرة العظيمة من هذا المحصول استورد نوعاً آخر من أمريكا كان يزرع بجزيرة «سى ايلند» فأخذ القطن المصرى بأنواعه يحتل مكانة رفيعة في الأسواق العالمية وتهافت على طلبه مصانع النسيج في فرنسا وإنجلترا، ومن جراء ذلك أخذت زراعته تزداد سنة فسنة. فبعد ان كان محصوله في سنة ١٨٢١ - ١٨٢٢ قطاراً وصل بعد ست سنين أى سنة ١٨٢٧ الى ٣٤,٤٠٠ قطاراً. ثم استمر في زيادة مطردة حتى وثب وثبة سريعة في الزيادة بعد حرب أمريكا الأهلية عام ١٨٦٦ حين كثرت عليه الطلبات من المصريون في زراعته فاستكثروا منه، ومن ذلك الوقت أصبح القطن الدعامة الأولى في ثروة مصر الزراعية، ودأبت البلاد في المحافظة عليه فثارت على تحسين أنواعه وإيجاد أصناف جديدة اختص كل صنف منها بمنطقة من المناطق المصرية. فاختص الوجه البحرى بالأصناف الطويلة التيلة مثل السكلاريدس وغيره والوجه القبلى عنى بزراعة الأشمونى والزاجورا. وكان من سهر البلاد وعنايتها بهذا المحصول ان عملت على تجديد أنواعه كلها شاخ نوع وفسدت نتيجته، وكان من هذه الأنواع الجديدة «قطن المعرض» الطويل التيلة والناعم الشعرة الذى أخرجه الجمعية الزراعية الملكية ليأخذ محل السكلاريدس الذى أصابه الانحطاط في مناطق كثيرة من مناطق الوجه البحرى. كما عملت وزارة الزراعة من ناحيتها على إيجاد «جيزه ٧»، وغيره من الأصناف. واشتغل أفراد في إخراج أقطان أخرى ولا تزال مصر متفوقة بأقطانها من حيث جودة النوع على أقطان الدنيا، مع أن نسبة المحصول المصرى تعادل ٥ ٪ مما ينتجه العالم وهى نسبة ضئيلة جداً، وعلى رغم ضآلة هذه النسبة فإن القطن هو المورد الوحيد العظيم الشأن للثروة المصرية، يرتبط رخاؤها به، فهو

محور سعادتها وشقاؤها . فقد بلغت قيمة القطن وبذرتة ما يناهز ٩٠ ٪ مما تصدره مصر جملة . وامتازت سنة ١٩١٩ بظاهرة بارزة فانه بعد أن خرج العالم من الحرب كان في شبه مجاعة قطنية فزاد الطلب على القطن وارتفع ثمنه حتى باعت مصر محصولها منه بما زاد على ١١٧ مليون من الجنيهات . غير أن الطفرة التي طفرها العالم في سبيل الانتاج انتكست من جميع النواحي فزاد الانتاج وقل الاستهلاك وأصبح العالم يعاني أزمة طاحنة ، فهبطت اسعار القطن وتقلص ظل الرخاء عن البلاد . وبعد ان كانت مصر تجني ثمناً لقطنها الذي بلغ نحو ثمانية ملايين قنطار في كل من سنتي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ما يزيد على خمسين مليوناً من الجنيهات أصبحت وما جنته في كل سنة من السنتين الأخيرتين لا يكاد يزيد على ثلث هذا المبلغ

ان شبح الازمات المخيف والخراب الذي يحتل نواحي البلاد فيقض علينا المضاجع ، ويهزم جند الرخاء ، يفيدنا بما يثيره من الهمم ويبعثه من قوى النشاط الفكري ، ويحمل المصلحين من اهل هذا البلد على الاحتياي في تخفيف ويلات هذه الضائقة ، وانقاذ البلاد مما وقعت فيه وابتكار ما تتسلح به ضد هذه النكبات في المستقبل . واطهر اثر لهذا الدرس ان اتجهت نفوسنا جميعاً الى البحث عن عمد كثيرة يرتكز عليها بناء الثروة الزراعية المصرية . وكان أول ما اتجهت افكار المصلحين اليه ان لا يعتمد المصريون في ابتناء ثروتهم على القطن وحده ، ورأوا البلاد وهي تستورد من مواد الغذاء ما يستنزف اموالاً كثيرة من أيدي اهلها في غير ضرورة لو انهم عولوا على الاكثار من زراعة الحبوب ، والتنوع في الحاصلات الزراعية الاخرى حتى تغنى البلاد بمنتجاتها اولاً وترسل ما يفضل عن حاجاتها الى البلاد الاجنبية ثانياً فتكسب بذلك توازنها الاقتصادي الذي تعرفون أن اساسه زيادة الصادر على الوارد . وكان ايضاً من اثر عناية المصلحين في البلد ان أنشأوا مصانع للغزل والنسيج ، وصناعات زراعية متنوعة ، لتغنى بها البلاد ولوقليلاً عن استيراد منسوجات البلاد الاجنبية . وهي نهضة مباركة ترجو البلاد الخير كل الخير منها . فانها وان كانت تبدو ضئيلة في مبدئها فذلك شأن الأعمال الكبيرة تبدو ضئيلة ثم تنمو حتى تبلغ مستوى رقيها انشاء الله .

ولم تقصر جماعة المتخرجين من مدرسة الزراعة العليا التي اشرف برأسها في اداء ذلك الواجب المقدس عليها نحو البلاد ، فقد نشطت عقول رجالها الى البحث فيما حل بنا

من ازمان خطيرة وانجحت الى الحكومة بنداها المتوالى لانقاص زمام القطن حتى تنزع البلاد عن عنقها نير الاستعباد القطنى اثروتها . كما طلبت اليها رفع الرسوم الجركية على الواردات الزراعية وخصوصا القمح والدقيق لتحضى حاصلات البلاد من تدهور اثمانها . ولقد اجتمعنا مرات كثيرة ، اذكر من بينها اجتماعنا بالنادى الزراعى القيت فيه كلمة جاء بها ، انه من العيب الفاضح بل من الاجرام الوطنى فى حق بلادنا الزراعية أن تخرج من جيوبنا كل عام ملايين الجنيهات لشراء القمح والدقيق .

القمح

تزرع مصر قمحاً نحو مليون ونصف مليون من الأفدنة ، ومحصول ذلك المقدار يزيد على سبعة ملايين أردب من القمح . قيمته ٥ و ١٢ ٪ من قيمة الحاصلات الزراعية المصرية جميعها كما دل على ذلك متوسط الاحصاء فى العشر سنوات الماضية ، ونسبته الى محصول القمح فى العالم تساوى ١ ٪ . وثمانى ذلك المحصول فى مصر يبلغ اثنى عشر مليون جنيه . ومع أن هذا المحصول يستهلك جميعه فى البلاد فإنه لا يكفى حاجتها ولذلك تستورد قمحاً ودقيقاً تبلغ قيمتهما نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات فى كل سنة . وقد قدمت أن مصر ايام الفراغنة كانت تذاجن من القمح اربعين مليوناً من الأرداب تسد به حاجاتها ويفيض عنها الى جيرانها ، حتى لقد باع روما فى ايطاليا . ولعل ذلك يبدو غريباً لأول نظرة ، ولكنى ازيل هذه الغرابة بان مصر انصرفت عن القمح وشغلت نفسها بزراعة القطن حينما عرفت انه ثروة لا يستطيع القمح أن يدنو منها فقد كان يعوض على البلاد اضعاف ما تنفقه على ثمن القمح الذى ذكرته . ولكن الحالة فى هذه الأيام قد ساءت ونزل القطن الى مستوى لا يستطيع البلد معه أن تبذل المال فى ثمن القمح الاجنبى ، فالواجب عليها أن تسارع الى الاستغناء عن الواردات الاجنبية من القمح بما تنتجه ارضها المستعدة لهذا الانتاج

وبعد أن بينت أهمية القطن فى الأيام الماضية ، وأهمية الأكار من زراعة القمح فى الأيام الحاضرة ، أرى حتماً على أن استعرض المحصولات الأخرى التى لها اثر ظاهر فى تكوين الثروة الزراعية

البصل

البصل حاصل مهم عرفه المصريون منذ أقدم عصورهم الى اليوم بتفوقه على جميع اصناف البصل فى البلاد الأخرى، ولذلك ترجو البلاد رواج سوقه فى الإفطار الأجنبية وتعمل على تنظيم إصداره وحفظه من التلف حتى يصل الى هذه الأسواق فى حالة حسنة تضمن رواجه . ومنه تصدر مصر الى الخارج نحو ثلاثة أرباع ما تنتجه ولذلك تعده فى المرتبة الثانية من المحصولات التى تصدرها

وتشغل زراعته فى البلاد نحو ٤١ ألف فدان تنتج أكثر من ستة ملايين قنطار تبلغ قيمتها مليون جنيه

قصب السكر

ومن المحصولات المهمة فى مصر قصب السكر ، وتبلغ الأرض المزروعة قصباً أربعة وخمسين ألف فدان تنتج محصولاً قيمته نحو مليون وأربع مئة ألف جنيه . وقد عنى اولو الأمر بتحسين هذه الزراعة من عهد محمد على باشا الى الآن . ومع انصراف البلاد عن زرعه قليلاً لطغيان القطن عليه بقيت الحاجة الى السكر والعسل تستحث الأهلىين على زرع حتى عاود النشاط هذه الزراعة بعد أن اتخذت الحكومة التدابير الضرورية لحمايتها وحماية الصناعة الناشئة عنها اعنى تكرير السكر . واكثر ما يزرع القصب فى اراضى الوجه القبلى لانها أصلاً لاتتاجه

الذرة

الذرة غذاء جمهور المصريين وتزرع فى أرض تكاد مساحتها تبلغ مليونى فدان يقدر محصولها بنحو ثلاثة عشر مليون اردب تختلف قيمتها باختلاف السنين، ولكن متوسط القيمة السنوية لهذا المحصول يزيد قليلاً عن اثنى عشر مليون جنيه

الذرة العويجه

الذرة العويجه تزرع في الوجه القبلى . والمساحة المزروعة منها تبلغ ربع مليون فدان قيمتها مليون وسبعائة وخمسين ألف جنيه

الأرز

تختلف زراعة الأرز في مصر بحسب كمية المياه التى يجود بها النيل . وأكثر ما يزرع فى الأراضى الواقعة شمال الدلتا وفى جهات معينة من مديرية الفيوم . وقد اهتم المزارعون أخيراً لهذا النوع من المحصول رغبة منهم فى أن يجعلوا له مكاناً بين محصولات البلاد . ولجودة نوعه يصدر من كميات كثيرة منه إلى البلاد الأخرى لارتفاع ثمنه هناك ويستوردون بدلها أنواعاً رخيصة يتحمل صغار المستهلكين أثمانها . ومساحة الأراضى المزروعة منه تبلغ ٣٤٥٠٠٠ فدان ثمن ما ينتج منها يبلغ نحو ٢,٨٦٥,٠٠٠ جنيه

الشعير

يزرع الشعير فى الأراضى الضعيفة التى لا تنهض بزراعة القمح . وتبلغ الأرض المزروعة منه ما يزيد على ثلثماية ألف فدان يقدر محصولها بنحو مليونى أردب ثمنها نحو مليون ونصف مليون جنيه

العدس

يزرع العدس فى أرض مساحتها ٧٤,٢٤٥ فداناً ، تنتج نحو ثلثمائة ألف أردب تبلغ قيمتها نحو ٤٨٤,٠٠٠ جنيه ويزرع عادة فى الوجه القبلى

الفول

تغلب زراعته فى الوجه القبلى ، والأرض المزروعة منه نحو ٣٢٣,٧٥٨ فداناً تنتج نحو مليونى أردب قيمتها نحو ٣,٣٤٢,٠٠٠ جنيه .

البرسيم

وهو غذاء الحيوان غصاً وجافاً وتكثر زراعته في البلاد المصرية . وله تأثير عظيم في إخصاب الأرض وتجديد قواها

الكتان

لا تزال زراعة الكتان ضئيلة في مصر ، وللبلاذ أمل كبير بتنشيط هذه الزراعة ونجاحها بعد أن اتجهت عناية رجال بنك مصر الى انشاء شركة له تعمل على رواج سوق محصوله ، كما تعمل على تجهيز اليافه
وفي مصر محاصيلات شتى لها أهمية ثانوية . من بينها الحلبة ، والفول السوداني ، والخص ، والترمس ، والسسم ، والحناء ، وقيمتها في الثروة الزراعية قيمة ثانوية

فلاحة البساتين والخضر

ولا يفوتنا أن نذكر شيئاً كبير الأهمية عظيم الفائدة وهو فلاحة البساتين والخضر فقد تنبه المصريون في السنوات الأخيرة الى حاجة البلاد الى منتجات البساتين التي تحتل الأسواق المصرية من الخارج . فعمل كثير من الزراع على الاكثار من أنواع الفاكهة . وتوافرت الجهود في تحسين أنواعها . وظهرت ثمرة تلك الجهود في ما شهدته البلاد من الأنواع التي لا تقل جودة ان لم تزد على نظائرها مما تستورده البلاد .
وقد عني اولو الامر بحماية هذه المنتجات فرفعت قيمة الضريبة الجمركية على الفواكه المستوردة من الخارج حماية لحاصلات البلاد . ولنا أمل كبير بأن يستكثر الزراع من هذا النوع من المحصول وأن يعملوا على اتخاذ أحسن التدابير وأمثل الطرق في استثمارها والارتفاع بمصنوعات تتخذ منها حتى تستطيع أن تصدر ما فضل من حاجتها فتحقق بذلك مورداً جديداً للثروة تزيد في نمائها وتكثر من مواردها ، ولعل هذا البحث ييسر تافهاً للنظر السطحي ، ولكنني أود أن اذكر ما دفعته البلاد في سنة ١٩٣٠ ثمناً لما استوردته من الفواكه والخضر بأنواعها حتى يتبين عظم هذه المبالغ وكبرها ، ووجوب الاهتمام بهذا المورد العظيم الشأن .

(١) فواكه طازجة وجافة	١,٠٥٣,٥٩٢	جنيهاً
(٢) بطيخ	٨٨,٥٧٧	»
(٣) شمام	٢,٥٠٣	»
(٤) برتقال ويوسفى	٧٩,٧٣٢	»
(٥) خضروات طازجة	٨,٣٧٤	»
(٦) فاصوليا ولوليا	٦٢,٧٦٠	»
(٧) بطاطس	١٣٥,٥٥٢	»

ولقد رأينا استغناء البلاد المصرية في هذا العام عن بعض ما تستورده من الفاكهة كالبرتقال والبطيخ، ولنا أمل وطيد بتقدم زراعة الفاكهة والخضر في بلدنا لما شاهدناه من اقبال الزراع عليها في السنوات الأخيرة

النخيل ومحصوله من البلح

يقدر عدد النخيل بالقطر المصرى بنحو ١١ مليون نخلة تنتج نحو ١١ مليون قنطار من البلح تبلغ قيمتها نحو ١,١٠٠,٠٠٠ جنيه. وجميع هذا المحصول يستهلك في داخلية البلاد. ولقد سبق لى أن القيت محاضرة عن المباحث الزراعية بهذه القاعة في السنة الماضية جاء فيها « فمن المباحث التي عملت تخفيف البلح حيث يظهر بكميات وافرة في الأسواق وفي وقت واحد وفي فترة قصيرة، فسعت الجمعية الزراعية الملكية حوالى عام ١٩٢٠ في تخفيفه، ولا يزال قسم البساتين التابع لوزارة الزراعة يوالى سعيه في هذا الصدد وأعماله في هذا الموضوع تبشر بالنجاح إذ تمكن من حفظ أنواع كثيرة في حالة جيدة صالحة لاستعمالها في مصر ولتصديرها الى الخارج »

وأظن أن بعضاً منكم، إن لم يكن كلكم، قد رأى نتيجة هذا المجهود، فقد ظهر هذا البلح المخفف في الأسواق وكان الأقبال عليه عظيماً جداً، حتى أن الكميات التي أخرجها قسم البساتين نفدت في وقت قصير، وذلك راجع الى جودة الصنف ورخص ثمنه بالنسبة الى الأنواع التي نستوردها من الخارج. والأمل كبير بأن لا يمضى وقت طويل حتى تستغنى البلاد عن المقادير الكبيرة التي نستوردها سنوياً من الخارج وندفع

فيها مبالغ طائلة . فان مصر تستورد كل سنة من البلاد الأجنبية نحو ٣٠.٣٢ طناً من البلح قيمتها ٢٧٠.٦٨٢ جنيهاً كما تستورد من السودان ٣٩٢٤ طناً قيمتها ٤١٠.٧٠٣ جنيهات الآن وقد انتهى بنا البحث فيما تخرجه الأرض من الثروة الزراعية بما دعت الحال اليه من الاجمال والاختصار في كثير من موارد فان استقصاء البحث في كل مورد من الموارد التي أتيت عليها لا يتسع له هذا المجال ، ولا بد له من كتب طوال يقضى قارئوها الأيام الطويلة في الوقوف على الحقائق التي تدون فيها . غير انه بقيت لنا كلمة قصيرة نتناول فيها ملحقاً من ملحقات الثروة الزراعية وأثراً من آثارها وهي منتجات الحيوان الذي يعيش على الزراعة ويستخدم فيها ، ومن ذلك :

النحل

ازدهرت هذه الصناعة في السنتين الأخيرتين ازدهاراً يبشر البلاد بخير قريب تغني به عن استيراد هذا الغذاء الطيب النافع . ولعل الحركة الجديدة تخرج البلاد منها ظافرة بمقدرتها على الاصدار بدل الاستيراد فتخفف بذلك عبئاً ثقيلاً من اعباء النفقات على نفسها ، وتزيد في موارد ثروتها زيادة جديدة ، وتضم الى الصناعات التي اخذت تحيا في النواحي الزراعية مثل حفظ الخضر والفاكهة وعمل الصلصة والنشاء صناعة جديدة هي هذه الصناعة التي اتحدث عنها

الحيوانات الزراعية ومنتجاتها

ولا يسعني وانا اتكلم عن تربية النحل أن اترك المنتجات الحيوانية الاخرى كصناعة الزبد والجبن التي لا اشك في انكم قد رأيتم انواعاً كثيرة منها في ما قدمته المصانع المصرية والمدارس الزراعية في معرض الجمعية الزراعية الملكية الذي اقامته في السنة الماضية . وهي صناعة يشعر كل مصري بأمله ورجائه الحار في تقدمها وترقيتها حتى تخلص البلاد من هذا الاحتلال الاقتصادي الغذائي الذي بقيت مصر من جرائه في اسر كثير من البلاد القريبة لحاجتها اليها في أمس ضرورتها ، وذلك هو الغذاء . فانه اذا تحقق لنا هذا الرجاء وهو لا بد (ان شاء الله) من تحقيقه ، زال عن هذه البلاد كابوس الحاجة وتوفرت في جيوب اهليها المبالغ الطائلة التي تستنزف كل سنة في استيراد هذه الضروريات الغذائية .

ويحتاج التقدم في الصناعة التي ذكرتها الآن الى العناية الكبيرة بالماشية، فإن الذي يتبع الاحصاءات يرى أن عدد الأبقار لا تزال نسبتته ضئيلة بالنسبة الى عدد السكان ولا تزال بنا حاجة الى الاستكثار من عدده لسبيين. أما أحدهما فهو أنه يكثُر في مصر الزراع الصغار الذين يعتمدون على الماشية في حرث الأرض وسقيها لأن ضيق زراعاتهم لا تساعدهم على استخدام الآلات الحديثة. وأما الثاني فهو حاجة الصناعة المتقدمة الى الاكثار من صنوف هذا الحيوان ومن الجاموس أيضا، مع العلم أن الصنف الأخير أعود بالفائدة على صناعة الزبد والجبن والألبان لغنى لبنه بالمادة الدهنية التي فيه ولوفرة الكمية التي تعطيها الجاموسة في السنة

بقي أثر هذه الحيوانات من الناحية الغذائية، فلحومها من المواد التي لا غنى للإنسان عنها مهما نزلت به الدنيا، ولولا وجود هذه اللحوم ورخص أثمانها لاحتلت جسومنا الامراض التي تعترى الفقراء الذين لا تساعدهم الايام على نيل مقدار كاف من اللحم كل أسبوع

وما تقدم ذكره يكفي لاستنهاض الهمم وتضافر الجهود وعقد العزائم على مساعدة البلاد وانعاشها مما وقعت فيه من ازمة مخربة. فإن الأعمال الجسام لا يرجى تمامها الا بتضافر الايدي العاملة عليها مهما كانت هذه الايدي قليلة فقد علمتنا التجارب وتواريخ الشعوب أن الاتحادات والنقابات العظيمة ذات الآثار الخالدة في الامم والنعم المشكورة فيها انما قامت على ايدي جماعات كانت في البداءة قليلة ضئيلة ثم تداركها النماء وتلاحقت قواها حتى ظهرت في جلال مظهرها وجماله؟





جناب الدكتور و. ف. هيوم
مستشار فني قسم المساحة الجيولوجية

رؤية مصر الحديثة

لجناب الدكتور و. ف. هيوم

مستشار في قسم المساحة الجيولوجية

(ترجمها الاستاذ محمود ابراهيم عطيه ، مفتش المساحة الجيولوجية)

يضطرنى قصر الوقت وتشعب أطراف الموضوع الى الاكتفاء بالتحدث اليكم عن بعض النقط الهامة ، وسأبدأ محاضرتى بمناقضة القول الشائع « بأن مصر ما هى إلا هبة النيل » . حقاً أن مصر تعتمد فى حياتها وبقائها واستقرارها على نهر النيل ، ولولاه لما وجد أحد منا هنا . ولكن مصر تدين بعظمتها وجاهها ومكانتها كقوة فى العالم ، للصحراء لا للنيل . فمن صخور الصحراء شيدت الأهرامات وأعظم الهياكل المصرية . ولولا وفرة أحجار البناء فى الصحراء التى تكتنف مدينة القاهرة لما أمكن قيام هذه المدينة العظيمة

وقد استخرج من الصحراء الصوان والنحاس والذهب ومعادن أخرى استعملت لأغراض حربية أو تجارية أو كأدوات للزينة . وللصحراء تاريخ طويل وعجيب ، وبخاصة تاريخ صحراء مصر الشرقية الواقعة بين نهر النيل والبحر الأحمر . فلقد تعاقبت على هذه المنطقة فترات اتعشت فيها حياة التعدين وأخرى أصيبت خلالها بالاضمحلال . ولا بد أن كان قدماء المصريين على علم تام بالثروة المعدنية . فهم أول من كشف عن كثير من المعادن القيمة ، ولقد أخذوا منها لسوء حفظنا كميات عظيمة استعملت فى شئونهم الخاصة وتركوا لأحفادهم نصيباً ضئيلاً من هذه الثروة . ومن عهد ملوك المصريين القدماء الى عهد سيادة العرب استمر التعدين فى الصحراء لمنتجات عديدة مثل الذهب والنحاس والبريل (الزمرد المصرى) . غير أنه لما ضعفت الحكومة المركزية واستعادت قبائل الصحراء حريتها أصبحت الصحراء أرضاً مجهولة ولم يزورها المستكشفون للبحث عن الثروة المعدنية ، وضاعت معالم الأمكنة التى وجدت بها المعادن . واتعش التعدين بعد ذلك عند

بدء القرن التاسع عشر وذلك بظهور السياسى العظيم المعروف ببعد النظر وعلو المهمة المغفور له محمد على باشا الذى شجع المتقبيين من مختلف الجنسيات على إعادة اكتشاف الأماكن الصحراوية، وبذا عاد عهد الاستكشاف واطهار ما كان مجهولاً. فقد عثر « برتون » و « ولكنسون » على محاجر الحجر السماق الامبراطورى ثانية، ووجد « كايو » أماكن الزمرد، وزار « بروتشى » مناجم الرصاص القديمة وقام ببعض الاكتشافات الهامة. ولقد أسدل الستار ثانية على هذه المناطق الصحراوية بموت المغفور له محمد على باشا لى ما يربو على نصف قرن فضاعت كل المعلومات التى اكتسبت فى الماضى ولم يعد أحد يعرف مواقع المناجم القديمة الا فى الحالات التى نشر فيها المستكشفون نتائج تجاربهم وعندما حضرت الى مصر فى سنة ١٨٩٧ كان عهد انتعاش آخر على أبواب الابتداء فقام « جونسون باشا » و « الفورد » بأول مجهود لتحديد مواقع مناجم الذهب القديمة. على ان الصحراء كانت فى حالة جمود يشبه الموت عندما بدأ أعضاء المساحة الجيولوجية الناشئة القيام بأعمالهم. ففى سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨ اثناء الطواف فى الصحراء الشرقية المصرية لمدة سبعة أشهر قابلت البعثة الجيولوجية عدداً قليلاً جداً من الأعراب يحملون ملحاً مهرباً. وكانت مدينة القصير فى حالة اضمحلال شديد يحكمها عدد من الموظفين الذين ابعدوا عن وادى النيل لأدماهم الخمر أو لعدم كفاءتهم. ولم يكن على خليج السويس والبحر الاحمر سوى ميناءين: - القصير - على الساحل المصرى - والطور - على ساحل شبه جزيرة سيناء. وكان يندر أن تمر البواخر بميناء القصير، وكانت ميناء الطور مسرحاً لعمل مضطرب فى فترتين قصيرتين من السنة بسبب الحاجر الصحى على الحجاج القادمين من مصر والعائدين إليها.

أما اليوم فالفارق عظيم، إذ يمكن للمسافر بالبحر الاحمر، بعد مغادرته مدينة السويس بساعات قليلة، أن يرسو عنده أبى زنيمه، وهناك يرى مستعمرة جديدة انشئت لاستخراج المنجنيز، فاذا واصل السفر حتى بضعة كيلومترات شمالى الطور يرى « أبى دربه » وفها بحرى العمل لاستخراج زيت البترول، أما الطور نفسها فلا تزال كما كانت مركزاً للحاجر الصحى. واذا عرج المسافر على الشاطئ المصرى فسيلاحظ التقدم الصناعى الحديث عند ميناء الزيتية وكذا عند جمسه. وباستمرار السفر نحو الجنوب يمر المسافر بميناء بعد أخرى من مراكز العمل النشط. فالغردقة تنتج مئات آلاف الأطنان من زيت البترول سنوياً

وهـ سفاجه ، بها مناجم الفوسفات ولها سكة حديدية تتوغل لمسافة تزيد على العشرين كيلو متر في قلب الصحراء . أما القصير فهي اليوم مدينة عامرة ترسو بها — كما هي الحال في سفاجه — البواخر الكبيرة لشحن الفوسفات، وترتبط المناجم بالشاطئ . سكة حديدية يبلغ طولها سبعة كيلو مترات . وقد اكسبت صناعة تعدين الرصاص الحياة والانتعاش للمواقع التي على امتداد الشاطئ . في أقصى الجنوب وهي التي كانت لمدة طويلة قفراً موحشاً .

كيف حدث إذاً هذا التطور في مدة لا تتجاوز خمسة وثلاثين عاماً ؟؟ اننا نغزى هذا الى السياسة الرشيدة التي اتبعتها الحكومة المصرية من ناحية . ولما أبداه الموظفون والأفراد من الهمة والاخلاص من الناحية الأخرى . وسنذكر باختصار المؤثرات التي سببت هذا الانتعاش .

ففي سنة ١٨٩٦ عين الكابتن ليونز (الآن الاميرالاي سير هنري ليونز) مديراً للمساحة الجيولوجية، وفي وقت قصير استطاع أن يضع المساحة المصرية على أسسها الحاليـ وكان الغرض من المساحة عمل خريطة عامة للملكة تكون على أعظم ما يمكن من الدقة ومبنية على نقط مثلثات غاية في الضبط . ولقد قام الدكتور جون بول بهذا العمل بهمة فائقة في الصحاري المصرية يساعده موظفو قسم مساحة الصحاري ، وأصبح الآن من الممكن تحديد مواقع أى استكشافات معدنية جديدة بدقة متناهية .

ولقد أصابت الحكومة المصرية في سياسة البحث العلمي بانشائها قسم المساحة الجيولوجية . والغرض من هذا القسم من الوجهة الاقتصادية هو البحث عن رواسب جديدة ذات قيمة اقتصادية ودرس العلاقات بين المعادن الموجودة وتعيين المعادن التي يجب البحث عنها من درس الأحجار المختلفة . وزيادة على ذلك يقوم هذا القسم تحت شراف زميلي أ . هـ . لتل بدرس جميع المسائل الجيولوجية المصرية بصرف النظر عن أى منفعة اقتصادية عاجلة .

وفي سنة ١٩٠٢ أنشئت مصلحة المناجم لمعالجة وتحسين صناعة التعدين وكانت قد بدأت فعلاً بتقديم سريع . وكان أول مدير لها ذلك الرجل القدير جون ويلز الذي أثار اهتماماً عظيماً باكتشاف منجم أم جاريات في صحراء مصر الجنوبية الشرقية به كمية عظيمة من الذهب ، وبدأ بإعادة بحث المعادن القيمة التي سبق استغلالها في الماضي ، وشجع الشركات للبحث عن زيت البترول بفحص الطبقات الحاملة له على سواحل البحر الأحمر .

والغرض الذى من أجله انشئت مصلحة المناجم هو دراسة جميع منتجات القطر المصرى ذات الفائدة الاقتصادية والعمل على ارتقاها، وكذا تحديد العلاقات بين الحكومة المصرية والشركات التى تعمل على استغلال المعادن. وبعد ان ترك المستر ويلز خدمة الحكومة المصرية تولى ادارتها لمدة تربو على العشرين عاماً مستر ر. ه. جريفز والمراقب الحالى لمصلحة المناجم هو زميلى القديم الدكتور حسن صادق بك الذى لا يزال يعمل على تقدم ادارتها بهمة ونجاح عظيمين

وكان تقرير التعليم الجيولوجى فى مصر خطوة أخرى من خطوات التقدم فى سياسة الحكومة المصرية. ويرجع الفضل فى ذلك الى السير وليم جارستن الذى قام بقسط كبير فى انهاض الرى وأعمال الصحراء مما تستحق تقدير المصريين. ومن دواعى غبطتى أننى كنت أول مدرس انتخب لتدريس الجيولوجيا بمدرسة الهندسة بالجيزة. وقد هيات لى هذه الفرصة التعرف على عدد كبير من الشبان المصريين يقومون الآن بخدمات جليلة لوطنهم فى مختلف الأعمال

وعندما يتم اكتشاف معدن يبدأ التساؤل عن امكان استغلاله من الوجهة التجارية. وهذا عمل يحتاج الى رأس مال ومخاطر من جانب الحكومة أو الشركات أو الأفراد. ولقد لعب الرأسماليون دوراً هاماً فى انهاض مصادر المعادن فى الصحراء، ويقوم بعضهم بمختلف الأبحاث (كالمساحة والدراسة العلمية الاقتصادية) كما هى الحال فى الحكومات المستنيرة المتقدمة. ولقد يكفى الدور الذى لعبه الأفراد لانهاش صناعة التعدين بمصر لتحرير فصل شائق فى تاريخ الصحراء لولا ان معظم المادة اللازمة لكتابة هذا الفصل منظوية فى السجلات السرية للأفراد أو الشركات التى قدمت المال اللازم للبحث والاستكشاف. ولنعد الآن الى بحث المعادن فنقول : —

الذهب : للذهب الاعتبار الأول لجماله الحقيقى وقيمه — وتاريخ وجوده واستغلاله فى مصر شيق للغاية. فأن أقدم خريطة عرفت للآن هى التى وجدها « دروفتى » فى طيبة وبها اشارات عديدة مكتوبة بالهيروجليفى تدل على وجود الذهب فى الصحراء الشرقية المصرية. وتحتوى هذه الخريطة على رسم لوحة منقوشة للملك سبتى الأول العظيم مما يدل على أنها ترجع الى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد. ومن النقوش الموجودة على حيطان معبد الرديسية، الواقع فى الوادى الصحراوى الذى ينساب فى وادى النيل عند أدفو، نعرف أن

الملك سبتي الأول قد زار بعض المناجم الذهب التي استغلت في الصحراء الشرقية . وتدل النقوش المرسومة عل حائط معبد مدينة هابو على وجود الذهب بمصر في عهد رمسيس الثالث . وهذه النقوش عبارة عن مجموعة من الأواني والأوعية كتب على معظمها أنها من الذهب وكذا اسم الموقع الذي أخذ منه هذا المعدن . وهذه الاسماء المصرية القديمة تشمل بعض البلاد المصرية المعروفة مثل « فقط » .

واعتماداً على الخرائط المصرية القديمة والمخطوطات قد أعيد زيارة المناجم القديمة المختلفة ، وفي أغلب الأحوال أعيد افتتاحها في السنين الأخيرة . وتقع هذه المناجم في المنطقة الجبلية بين وادى النيل والبحر الأحمر . ولقد تتبع المصريون القدماء عروق المرو (الكوارتز) الحاملة للذهب لأبعد حد ممكن . وكانوا يسحقون المرو في مصاحن من حجر الديوريت الصلب ويفصلون مسحوق المرو عن الذهب بغسله على الواح مائلة . وكان يقوم بهذا العمل الشاق المسجونون وقد شرح حالتهم التعسة بوضوح تام كاتب قدير قديم

وتبين المعروضات الجميلة الموجودة في غرفة المجوهرات بالمتحف المصرى بالقاهرة الأغراض التي استعمل فيها الذهب بعد استخراجها من المناجم . وأحد هذه المعروضات سكين من الصوان له يد من الذهب ويرجع عهده الى ما قبل الأسر الملكية القديمة . وهذه أقدم أداة للزينة من الذهب فى مصر ومن أقدم ، ان لم تكن أقدم ، شئ من الذهب عرف للآن . وهناك أساور من الذهب المرصعة بالفيروز والجشست يرجع عهدها الى الأسرة الملكية الأولى . وفي مقابر الملكة « هتيفريس » والدة باني الهرم الأكبر ، وجدت أدوات منتقاة من الذهب الخالص ، فهناك رأس صقر من الذهب المطروق له عينان من الزجاج الطبيعي الذي لم يوجد حتى الآن فى مصر ويغلب أنه استحضر من ارمينيا على أنه يوجد أيضاً فى بلاد الحبشة .

وبالقرب من اهرام دهشور وجدت كنوز الأميرة «خونوموت» وهى من الأسرة الثانية عشرة ودفنت هناك . وهذه الكنوز تحتوى على نماذج جميلة على شكل الفراش والأسماك النجمية والقواقع وكلها مصنوعة من الذهب المحبب مما يدل على المهارة الفائقة التى وصل اليها الصانع المصرى القديم . ومن العصر نفسه توجد صورة لتاج من الذهب تعلوه أفعى ومرصع بالعقيق واللازورد والفيروز . وهناك معروضات أخرى

لبعض الأدوات الذهبية النادرة التي وجدت بمقبرة توت عنخ أمون بطيبة (الأسرة الثامنة عشرة) وأخرى للملكة من الأسرة التاسعة عشرة .

وفي خلال الثلاثين سنة الماضية كانت الأدوار التي مر بها تعدين الذهب في مصر متقلبة جداً . فقد أثار الاهتمام ذلك الاكتشاف العظيم للذهب بأم جاريات واتجهت المجهودات لاعادة فتح المناجم القديمة واكتشاف أخرى جديدة . ومن مناجم الذهب المعروفة منجم البرامية وعطالله وأم جاريات وقد زادت قيمة الذهب الذي استخرج من منجم البرامية على ما صرف لتحسين المنجم .

ولا يستخرج الذهب الآن ، ولكن بلغ ما استخرج منه في سنة ١٩٠٧ — خمسة آلاف أوقية وفي سنة ١٩١٥ عشرة آلاف أوقية . وبلغت قيمة كل ما استخرج من الذهب منذ سنة ١٩٠٠ — ٣٠٠٠٠٠٠ جنيهًا مصرياً

ويوجد الذهب في حالة خاصة . ففي عروق المرو (الكوارتز) يكثر الذهب قرب سطح الأرض ويقل بزيادة العمق وهذه حالة من حالات التركيز قرب سطح الأرض بتأثير عوامل كيميائية وطبيعية خاصة . وهذه حقيقة لا تسر من وجهة نظرنا الآن — لأن قدماء المصريين وجدوا ذهباً مرزاً قرب سطح الأرض وفي متناول أيديهم ولقد تبعوه في حالات عديدة لأعماق تزيد عن ٣٠٠ قدماً (١٠٠ متراً) تحت سطح الأرض . وهذا مما دعى أن تجري الأعمال الحديثة أسفل هذا العمق الذي وصل اليه القدماء وكانت نتائجها غير مرضية . وربما وجدت أحجار تحتوى على الذهب تحت غطاء من الحجر الرملي كما وجد المصريون القدماء . ولكن ليس من السهل الجزم بصحة هذه النظرية . وبما أنه يغلب وجود الذهب في مصر مع أحجار الجرانيت القاعدية وأحجار الديوريت فيجب أن نلاحظ بعناية الأماكن التي توجد بها هذه الأحجار والحجر الرملي جنباً الى جنب . ولقد تمتعت أن يتحقق هذا الاكتشاف في أيام حياتي غير إنى أخشى أن لا يتحقق أمنيى

الفضة : لم يكن تعدين الفضة بمصر ذات أهمية في يوم من الأيام ومع ذلك فإن أكثر الذهب المستخرج من هذه البلاد يحتوى على جزء كبير من الفضة مرتبطة به ارتباطاً متيناً . وقد أطلق « بلينى » اسم الكترولوم على الذهب الذى يحتوى على ٢٠ ٪ من الفضة . وتحتوى خمسة مناجم هامة في مصر على هذا النوع من الذهب . ولم يعرف الى الآن اذا كان قدماء المصريين قد توصلوا الى معرفة استخلاص الفضة من مركباتها

ولو أن الفضة استعملت فعلا - ولو قليلا - في عهد الأسر المصرية القديمة ويحتمل أن معظم هذه الفضة استورد في هذا الوقت من الممالك الخارجية وبخاصة آسيا الصغرى . ولم يكثر استعمال أدوات الزينة الفضية في مصر الا في عهد البطالسة فقط وزاد استعمال الفضة عن الذهب عندما تأثرت مصر بالحضارة الاغريقية

النحاس : قد لعب هذا المعدن دوراً هاماً في تاريخ مصر وبه استطاعت أن تكون أولى الأمم القوية . وقد بلغ « عصر النحاس » حد ارتقائه في هذا القطر في عهد الأسرة السادسة . ولقد بحث وعثر قدماء المصريين على خامات النحاس في الأماكن النائية جداً . فقد وجدت آثار أعمالهم في شرق وغرب شبه جزيرة سينا وكذلك في قلب المنطقة الجبلية بالصحراء الشرقية المصرية وكان يحثهم عن كربونات النحاس (ملاكيت) الخضراء وسليكات النحاس (كريسوكولا) الزرقاء . وتوجد منطقة تعدين عند سفح جبل أبو حمamid أعيد فيها فحص خامات النحاس حديثاً .

والموقف الحالي لا يشجع على تقدم تعدين النحاس في هذا القطر لوجود كميات عظيمة جداً من خامات النحاس في أسبانيا والولايات المتحدة وغيرها قريبة من طرق الملاحة العالمية الهامة . وتدرس المصالح الحكومية المختصة باستمرار احتمال الانتفاع بهذا المعدن والمعادن الأخرى . ويوجد في منطقة جبل أبو حمamid ارتباط بين الكالكوبيريت (كبريتور النحاس والحديد) وبين كبريتور الزنك . وتتحول هذه الى خامات النحاس الخضراء التي كان يبحث عنها المصريون القدماء

خامات الحديد : قد دلت دراسة الصحارى المصرية في السنين الأخيرة على أن خامات الحديد ليست نادرة في المناطق الصحراوية وانها توجد في بعض المواقع التي ينتشر فيها الحجر الرملي النوبي . وفي الجزء الشمالى من الواحة البحرية وجدت مساحات عظيمة من خام حديد جيد

ودلت أعمال الاستكشاف التي قام بها لبيب افندى نسيم في الصحراء شرق اسوان على انتشار خام الحديد المحبب في تلك المنطقة وقد سررت لمعايتها مع زميل الدكتور صادق منذ أسابيع قليلة . ويستعمل نسيم افندى هذه الخامات الآن في صناعة الالوان . وتدرس الآن طرق الانتفاع بهذه الخامات ، وقد استخرج منها ما زنته ٨٣٠ طناً في العام الماضى و ١٠٠٠ طناً في العام السابق له

المنجنيز : يعتبر تعدين خامات المنجنيز حديثاً بالنسبة لمصر . وكان أول من لفت النظر الى وجودها في غرب شبه جزيرة سيناء هو المرحوم المستر بارون أحد أعضاء المساحة الجيولوجية المصرية عند بحثه الجيولوجي لتلك المنطقة في عام ١٨٩٨ - ١٨٩٩ وكان مستر بلانز وآخرون أول من درس هذه الخامات من الوجهة الاقتصادية وانتهى الأمر بتكوين شركة برأس مال انجليزي والماني . وافتتح منجم أم بوجما وأقيم سلك معلق يبلغ طوله عشرة كيلو مترات ويمتد فوق وديان عميقة متسعة . وينقل الخام المستخرج وهو مخلوط من خامات الحديد والمنجنيز بواسطة هذا السلك الى حافة الجبل ومن هناك ينقل بواسطة سكة حديد يبلغ طولها نحو سبعة كيلو مترات مختزقة سهل « مرخا » وتنتهى عند ميناء ابوزنيمه

وفي سنة ١٩١٨ بلغ ما استخرج من خام المنجنيز ٢٧٠٠٠ طنأ وزاد في سنة ١٩٢٩ الى ما لا يقل عن ١٩١٠٠٠ طن . وكان في العام الماضي ١٠١٠٠٠ طن ولكن طرأت بعد ذلك ظروف عديدة أوقفت حركة تعدين المنجنيز وبيعه . ويبلغ المخزون منه الآن نحواً من ٣٠٠٠٠٠ طن وهذه لا يمكن شحنها وتصديرها لأسباب سيئة أولها أن خامات المنجنيز الغنية لا يمكن استغلالها بفائدة نظراً لمنافسة روسيا الشيوعية بتوريدها خامات من أعلى درجة تستخرجها من القوقاز . وثانها أن الضريبة الجمركية التي فرضتها الولايات المتحدة قد أثرت كثيراً على الخامات التي من الدرجة الثانية فقد كانت خامات الحديد التي تحتوى على نسبة تساوى ٣٠ ٪ من اكسيد المنجنيز يصرح بدخولها الولايات المتحدة خالية من الرسوم الجمركية أما الآن فهذه النسبة يجب ألا تزيد عن ١٠ ٪ ونظراً لهذه الظروف ولقداحة الضريبة على الشحنات التي تمر بقنال السويس فلا يمكن لخامات الدرجة الثانية أن تنافس غيرها بنجاح في الأسواق الحرة . ومع هذا فان خام المنجنيز هو أحد المعادن التي تكون الثروة المعدنية في مصر وهو في هذه الحال ينتظر الوقت الملائم ليصبح مصدر كسب للبلاد ولمن يشتغل بتعدينه

الرصاص : لقد نشطت حركة البحث عن خامات الرصاص مدة الثلاثين سنة الماضية في المنطقة الشاطئية للبحر الأحمر جنوب القصير وقد افتتحت هناك مناجم عديدة، ولو أن سوق الرصاص في الوقت الحاضر ليس في حالة انتعاش من الوجهة التجارية الا

أنه ينتظر أن يصبح أحد موارد الثروة المعدنية في مصر عندما تتحسن الأحوال الاقتصادية . وتوجد خامات الزنك مع خامات الرصاص في المنطقة الواحدة وقد استغل الرومان مناجم جبل الرصاص وأعيد العمل فيها بنجاح في السنين الأخيرة وهناك بعض المعادن التي لو وجدت بكميات وافرة لأمكن أن تكون ذات قيمة عظيمة . يطلق على بعض مجموعة أحجار اسم « الأحجار فوق القاعدية » وهذه في الممالك الأخرى يغلب أن تحتوى على معادن ذات قيمة اقتصادية أو تلازمها معادن مثل خام الحديد المحتوى على الكروميوم وبعض مركبات النيكل وقد وجد هذان المعدنان في الأحجار فوق القاعدية المصرية التي تنتشر انتشاراً عظيماً في الصحارى الجنوبية الشرقية . وفي جزيرة القديس يوحنا (جزيرة الزبرجد) قرب رأس بناس يوجد « الجارنيريت » وهو خام أخضر للنيكل في أحد العروق . واستخرج من هذا المعدن نحو من ٨٠ طناً . وفي ثنايا الأحجار فوق القاعدية بالجزيرة نفسها توجد بلورات الزبرجد التي تجمع بين جمال الشكل واللون الأخضر الرقيق وهذا الحجر الكريم غير مطلوب في الوقت الحاضر وتوجد كميات كبيرة من هذه البلورات لم يمكن بيعها بعد .

وه البريل ، هو أحد المعادن الذى بحث عنه كثير فى الزمن الماضى . والنوع الشفاف الأخضر الصافى منه هو الزمرد . ويوجد هذا الحجر الكريم فى منطقة سيكيت بالصحراء الشرقية على مقربة من شبه جزيرة راس بناس ويغلب أن يكون الزمرد فى المرو (الكوارتز) داخل السيشت الميكائى وقديماً استخرجت كميات عظيمة من هذا السيشت ويشاع عن بعض المؤلفات العربية أن أحجاراً جميلة جداً من الزمرد كبيرة الحجم قد وجدت ولكن معظم المجهودات الحديثة التى بذلت للحصول على نوع جيد من الزمرد لم تصادف نجاحاً حتى الآن

ولقد تناول بحثنا حتى الآن المعادن التى تلازم الأحجار النارية القديمة أو الأحجار الراسبية المتحولة . إلا أنه يوجد نوعان من الرواسب تكون جزءاً من تكوين راسبية منتشرة جداً وهما الآن من موارد الثروة فى البلاد ويحتوى الأول على فوسفات الجير أما الثانى فهو مصدر زيت البترول الخام — وتعتبر الفوسفات وزيت البترول من أهم منتجات الصحراء المصرية .

الفوسفات : لم يكن وجود الفوسفات معروفاً في مصر عند انشاء قسم المساحة الجيولوجية في سنة ١٨٩٦ وفي نفس السنة أثبت المستر بارون وجود صخر الفوسفات بجبل قرن قرب جبل قفط . وفي السنة التالية عندما كنت والمستر بارون ندرس المنطقة بين قنا والقصير من الوجهة الجيولوجية تبين لنا أن صخر الفوسفات يوجد في طبقات سميكه كثيرة الامتداد كما وجدنا به كذلك حفرة خاصة بالعصر الكريتاى وبذلك تحدد موقع الفوسفات في السلسلة الجيولوجية وبهذا الدليل تمكنت البعثات الجيولوجية في عام واحد من تعقب الفوسفات في طبقات قرب القصير وفي الواحة الداخلة أيضاً وأمكننا الارشاد بأن البحث عن الفوسفات يجب أن يبدأ من الوجه القبلي قرب المحاميد . وقد نتج عن ذلك اكتشاف فوسفات عظيمة الأهمية عند السباعية جنوبي اسنا . وتحتوى الفوسفات الموجودة عند سطح الأرض على ما يقل عن ٥٠ ٪ من فوسفات الكلسيوم وقد أرسل مستر أندرو كروكستون الذى يهتم بالفوسفات الموجودة في شمال افريقيا من الوجهة المالية مستر ت . جريفز ليدرس هذه الرواسب دراسة تفصيلية . وقد وجد الأخير أن الفوسفات السطحية الرديئة تخفى تحتها فوسفات منوعة وجيدة فكان ذلك سبباً في استغلال عظم للفوسفات في منطقة ميناؤها سفاجه وعقب ذلك افتتاح مناجم الفوسفات عند جبال ديوى وجبل نخيل بالقرب من القصير ومناجم أخرى في وادى النيل مركزها السباعية جنوبي اسنا .

وقد ابتدئ باستخراج الفوسفات في سنة ١٩٠٨ وبلغ مجموع ما استخرج في ذلك العام ٧٠٠ طناً وزاد هذا المقدار في سنة ١٩٣٠ الى ما زنته ٣١٣٠٤٧٨ طناً وبالرغم من الصعوبات المالية الحالية فان مجموع ما استخرج في سنة ١٩٣١ هو ٢٥٧٠٠١١ طناً

زيت البترول : كان زيت البترول معروفاً منذ عهد الرومان بجبل الزيت على خليج السويس وأطلق على هذه المنطقة اسم « مونز بترولوس » . وفي سنة ١٨٦٨ اهتم مجلس شركة تعدين فرنسية بأمر الارتفاع بالكبريت الموجود بحمصا وعلى بعد كيلو مترات قليلة جنوبي جبل الزيت . ولم يصادف تعدين الكبريت نجاحاً غير أنه عند فتح أحد السرايب تجمع زيت البترول الخام مكوناً بركة فيه . وفي سنة ١٨٨٠ بذلت الحكومة المصرية مجهوداً عظيماً بحفر الآبار التجريبية وذلك لانعاش استخراج زيت

البترول ولكن هذه المجهودات لم تصادف نجاحاً تاماً . وقد تقدم المستر جون ويلز في سنة ١٩٠٦ الى الشركات المختلفة التي تبحث عن زيت البترول لكي تعيد حفر الآبار في هذه المنطقة نفسها وفي أول بئر حفرت وجد زيت بترول خام خفيف وجيد وكان ذلك في سنة ١٩٠٨ . وحفرت بعد ذلك آبار عديدة كان النجاح نصيب أكثرها . وقد بلغ ما استخرج من زيت البترول في منطقة جمسا في العشرين سنة الأخيرة نحو ١٨٠٠٠٠ طناً . ولكن طغيان الماء على آبار الزيت أوقف استخراجه في هذه المنطقة .

وفي نفس الوقت كانت الحكومة المصرية تستخدم رجالها الفنيين في دراسة منطقة حقول البترول دراسة عميقة ووجه كل الاهتمام لمنطقة الغردقة . وكانت الشركات من جانبها تقوم بنفس المجهود ، حفرت شركة حقول البترول الانجليزية المصرية بناء على تقرير خبيرين جيولوجيين من الألمان أول بئر في بقعة وجد فيها صخر يشتم منه رائحة زيت البترول . ووجد زيت البترول في البئر على بعد ١٢٠٠ قدماً من سطح الأرض . وبذلك انتعشت صناعة استخراج زيت البترول في مصر وتعد الآن من أهم الصناعات فيها . وانه لمن المدهش حقاً أن يستخرج ما يزيد عن ١٠٠٠٠٠٠ طن من زيت البترول سنوياً منذ سنة ١٩١٧ من منطقة صغيرة جداً تظهر لأول وهلة بأنها صحراء قاحلة . وكان أعظم انتاج في سنة ١٩٣١ اذ استخرج نحو ٢٨٩،٤١٩ طناً من زيت البترول وبذلك أصبحت الفوسفات وزيت البترول في السنين القلائل الأخيرة أعظم موارد الثروة في هذه البلاد وقد كانا غير معروفين للبصريين القدماء .

أهماء الرصف والبناء : يوجد بالقطر المصري مختلف أحجار الرصف استعمالها قدماء المصريين والرومان بكثرة نذكر من بينها : —

١ — **سيفيت الحمايات الأخضر :** يختلف لون هذا الشيست الدقيق التبلور من الأخضر الى الاسود وهو يوجد على الطريق بين قنا والقصير . وقد استغله قدماء المصريين بكثرة ابتداء من الاسرة الرابعة الى الاسرة الثالثة عشرة . ويوجد بالمتحف المصري عدد كبير جداً من التماثيل وخلافها مصنوعة من هذا الحجر الذي عرف قديماً باسم « بنجن » . ويوجد في نفس الموقع بريس مكون من أنواع مختلفة من الصخور الملونة

(مثل الجرانيت والشيست الأخضر وخلافها) وكانت معروفاً للبصريين القدماء في العصور المتوسطة باسم البريش الأخضر . ومن المحتمل أن يستعمل هذا الحجر ثانية يوم من الأيام قريباً كان أو بعيداً نظراً لمتانته وجمال منظره

٢ - الحجر السماقي الإمبراطوري : قدير الأباطرة الرومان مثل « كلوديوس » ،

و « هارديان » ، وغيرهما هذا الصخر حق قدره وهو أحرر أو أرجوانى اللون منتشرة به بلورات بيضاء . والموقع الوحيد الذى يوجد به هو جبل الدخان فى الصحارى المصرية الشمالية . وفى كل المتاحف العظيمة توجد تماثيل مصنوعة من هذا الصخر وصنع منه أيضاً عمود القسطنطينية ذو الشهرة العالمية . وهذا الحجر يلفت النظر لأول وهلة وحدثاً طلبت سيدة انجليزية الى مصلحة المناجم أن تستحضر لها قطعة منه لعمل نصب تذكارى لزوجها الذى فقدته وربما كانت هذه أول مرة يفتح فيها هذا الحجر ثانية منذ عهد الرومان

٣ - جرانيت اسوانه الأصفر المستعمل للتماثيل : أصبح لهذا الصخر شهرة

عالمية لكثرة استعمال قدماء المصريين له فى تماثيلهم واهراماتهم ومعابدهم . وتكون نماذج جيدة منه الغطاء الخارجى لقاعدة الهرم الثالث . ويقتلع منه الآن كميات عظيمة لاستعمالها فى تغطية خزان اسوان .

٤ - الرخام : يوجد نوع جيد من الرخام فى وادى ميا بالصحراء الشرقية وعلى

بعد ١٢٠ كيلو متراً شمال شرقى ادفو . وقد اقتلع بعضه فى الماضى ولوان موقعه كان أقرب الى وادى النيل من موقعه الآن لكان من المحقق استعماله بكثرة فى القطر المصرى كحجر للزخرفة .

٥ - الألباستر المصرى : أو المرمر المصرى وهو حجر زخرفة له شهرة عالمية

اكتسبها من كثرة استعمال المصريين القدماء له فى صنع الأوانى وخلافها . ويتكوّن هذا الصخر تدريجياً فى فجوات فى جوف الأرض بالرسوب من مياه مذاب بها كربونات الكلسيوم كما هو الحال فى « الاستلاكتيت » . وأحسن المواقع التى يوجد بها هى الصحراء

جنوب شرقى بنى سويف وشرق اسيوط . وقد اقتلع بعضه شرقى تل العمارنة . والآخر لم يحدد موقعه بالضبط ولم تدرس خواصه بعد .

ويمر المسافرين بالنيل من وادى حلغا الى القاهرة بمرا كز نشاط صناعى نشأت من استغلال سكان وادى النيل لل مواد الموجودة بالصحراء وأهمها ما يأتى : -

٦ - الطين : وهو يستعمل فى صناعة مختلف أنواع الخزف . ففى دمهيت جنوبى اسوان يصنع الخزف الاحمر والاسود المنقوش والذي يعيد الى ذاكرتنا صناعة المصريين قبل عهد الأسر . وقد سبق أن أشرنا الى جرائيت اسوان وصناعته . ويستخرج بكثرة من التلال قرب شمالى اسوان الطين الملون وهو نوع جيد جداً ويستعمل فى صناعة الأدوات المختلفة التى تحتاج الى الصلابة وطول البقاء

وفما بين المحاميد وقنا يتحول الطين الى طفل وهذا يحتوى على نسبة طيبة من كربونات الجير ويستعمل فى صنع الأواني المسامية « كالبلالاص » المشهور استعماله فى مصر لحزن وترطيب المياه . وتعتمد صناعة الآجر (الطوب) على رواسب الطين النهرية فى وادى النيل . وهذه المواد يحملها النيل الى مصر من اعلى الحبشة وهى ليست من منتجات الصحارى المجاورة

٧ - التترات . يشاهد المسافر القوى الملاحظه الذى يتطلع من القطار ويتابع حافة الصحراء بين ادفو واسنا جمالا وحميراً تهبط من التلال الواقعة شرقى السكة الحديدية تحمل « الطفلة » وهى عبارة عن طفل أو طين يحتوى على التترات وتغطى به الحقول كسماد ولكن نسبة التترات لسوء الحظ حوالى ٥ ٪ ويخالطها كثير من ملح الطعام والآخر عنصر ضار للسماد . ولو وجد الطن محتوياً على تترات بنسبة اعلى لكان من اهم منتجات الصحارى التى تحف بالنيل نظراً لتأثيره فى خصوبة الاراضى الزراعية .

٨ - محجار البناء : استعملت احجار الصحراء منذ عصر الاسرة الثالثة فى المباني التى تتطلب الصلابة وطول البقاء فقد استعمل الحجر الرملى الموجود بين وادى حلغا وأسنا فى بعض المعابد المصرية الهامة ولا تزال محاجر قدماء المصريين موجودة بقرب

السلسلة . اما الأحجار الجيرية التي تمتد على حافة الصحراء من الأقصر الى القاهرة فقد اقلعت باستمرار تقريباً منذ العصور التاريخية القديمة . وتدين مقابر الملوك بوجودها لحجر جبرى ابيض دقيق سهل اختراقه وتلوينه . وقد بنيت قناطر أسيوط ومنشآت اخرى حديثة وهامة من حجر جبرى مسامى المنظر ولكنه فى الحقيقة متماسك ويوجد بالقرب من العيساوية بالوجه القبلى . وتخرج المحاجر التى بين حلوان وشرق القاهرة انواعاً عديدة من الحجر الجبرى تختلف اختلافاً عظيماً فى كيفية تركيب اجزائها . فمنها ما يستعمل لحرق الجير ومنها ما يستعمل « بلاط » . وتقتلع كل احجار البناء اللازمة لمباني القاهرة من الأماكن المجاورة

وتستعمل الاسكندرية حجر المكس الجبرى وهو نوع غير جيد . بينما توجد محاجر هامة للحجر الجبرى عند جبل عتاقة قرب السويس وعند جبل فريد بين السويس والاسماعيلية

٩ - الرمال : اصبح للرمال اهمية خاصة فى السنين الأخيرة نظراً لكثرة استعمالها فى الانشاءات المختلفة وفى صناعة القراميد وخلافها وظلت القاهرة مدة طويلة وموارد الرمال الجيدة موجودة على ابوابها فى العباسية والجبل الأحمر الا أن هذه نفدت أخيراً . وتوجد موارد أخرى للرمال على حافة الصحراء الغربية قرب الاهرامات . والمسألة التى تشغل مصلحة المناجم وقسم المساحة الجيولوجية فى الوقت الحاضر هى الحصول على نوع جيد من الرمال يكون على مسافات قريبة من المدن التى تستعمله . ويدور البحث الآن على الرمال البيضاء لاستعمالها فى صناعة الزجاج وتدل الدلائل على ان هذه المجهودات ستكمل بالنجاح .

١٠ - هجر الجبل الأحمر الرملى : يستعمل هذا الصخر السيليسى بنوع خاص فى بناء الأساسات ويقتلع من الجبل الأحمر فى شمال شرقى القاهرة . ومن المناطق المجاورة يستخرج الرمل الأحمر لفرش به الطرقات ويستعمل فى أغراض أخرى

١١ - بازلت الى زعبل : يختلف لون هذا الصخر الصلب المتناسك من الأزرق

القائم الى الاسود ويستعمل فى رصف شوارع القاهرة والاسكندرية . وسنحتاج قريباً لموارد أخرى للبازلت خصوصاً وأن ما يقتلع منه فى المناطق المجاورة غير جيد وعليه يلزم إعادة البحث فى الصحراء عن موارد تكفى لسد النقص الذى سنشعر به فى القريب العاجل

١٢ - **الجبس** هو : أحد المنتجات الهامة جداً لاستعماله أما فى إصلاح الأراضى الزراعية عديمة النفع لاحتوائها على كربونات الصودا أو فى صناعة المصيص الذى يكثر استعماله فى مصر . ولقد استغلت ولا تزال تستغل رواسب الجبس الموجودة قرب سطح الأرض فى التلال الصحراوية جنوب شرق حلوان وفى الغربانيات فى منطقة مريوط وفى البلاح بين الاسماعيلية وبورسعيد . والرواسب فى الموقع الأخير لها علاقة بامتداد بحيرة المنزلة

١٣ - **النطرون** : أحد المنتجات الهامة التى تستعمل فى صناعة الصابون والزجاج وله فوائد أخرى ويستخرج من البحيرات القليلة الغور بمديرية البحيرة ومن منطقة وادى النطرون الشهيرة

١٤ - **ملح الطعام** : يوجد بكثرة ويستخرج بواسطة التبخير فى مناطق البحيرات شمالى الدلتا ونذكر على سبيل المثال المكس قرب الاسكندرية وضواحي بورسعيد
ويقل فى الأهمية عما سبق المواد الآتية :-

الطون : استخرج فى الماضى من جبل عمرو ويبعد بضعة كيلو مترات شرقى اسوان ولا يزال يوجد بكميات كثيرة فى تلال الصحراء الشرقية المصرية

مجر السب : استخرج من وقت لآخر من الواحات وبخاصة الواحة الخارجة

سلفات المغنيسيوم (الملح الانجليزى) : يوجد هذا أيضاً فى الواحات .
وقد أثار الاهتمام فى السنين الأخيرة وجود رمال على شاطئ البحر قرب الاسكندرية

وهذه تحتوى على الماجنتيت (اكسيد الحديد الممغنطس) واكسيد حديد آخر يحتوى على التيتانيوم .

ولعلى ذكرت ما فيه الكفاية لأبين الى أى حد يتوقف كيان مصر وتقدمها على المواد التى تستخرج من المناطق المقفرة التى تحيط بنهرها العظيم وواهب حياتها . وليس فى هذه المملكة المترامية الأطراف منطقة واحدة لا تعود على سكانها بفائدة ما . وتستظل الزراعة حياة مصر وقوامها كما تبقى الصحراء المحيطة بها مورداً لما يزيد فى رفايتها وسعادتها





الدكتور عبد الحكيم الرفاعي
مدرس الاقتصاد السياسي بكلية الحقوق

تجارة وصناعة مصر الحديثة

لماضرة الدكتور عبد الحكيم الرفاعي

(مدرس الاقتصاد السياسي بكلية الحقوق)

تمهيد

١. — الأمة — كما بينه الكاتب الفرنسي الشهير لبلای Le Play — نتيجة اشتراك ثلاثة عناصر : المكان ، والعمل ، والسكان . فالمكان ، أو البيئة الطبيعية ، له أثره في حياة الأمم ، لأن الحالة الاقتصادية في أية أمة تتوقف على مناخها ، ودرجة خصوبة أرضها ، ومقدار غنى طبقاتها الارضية بالمناجم وموقعها الجغرافي ، والقوى التي تساعد الانسان على عمله ، ومن هذا يتبين مقدار صلاحيتها لأنواع النشاط الاقتصادي المختلفة . كذلك عمل الانسان وكيفية استفادته من الثروات الطبيعية لا يقل أهمية عن العامل الأول ، فيقوم باستغلال الارض ، واستخراج الثروات الكامنة في الطبقات الارضية ، ويسخر القوى الطبيعية لخدمته . أما عن العنصر الثالث ، وهو السكان ، فيلاحظ أن كل شعب له ميزات خاصة وصفات كامنة ، هي مجموعة الصفات الفردية لأبناء الأمة ، وهي التي توجهها في النهاية الى المركز الاقتصادي الجدير بها ، اذ يعتمد السكان الى التأثير في الظروف الطبيعية حتى تصبح ملائمة لأطامهم .

٢. — وان الباحث في تطور الحالة الاقتصادية في الأمم يلاحظ أن الشعوب تمر بعدة مراحل ، ففي المرحلة الأولى نجد الناس في حالة الهمجية ، وفي المرحلة الثانية ، نجدهم في حالة الرعي ، ثم يتلوها طور الزراعة . ومتى بلغوا درجة كبيرة من الحضارة ينتقلون الى دور آخر هو دور الصناعة . وقد بين أحد الكتاب الألمان List أن الأمة لا تصبح

أمة عادية إلا إذا كانت زراعية وصناعية وتجارية في آن واحد . فالى بلوغ هذه المرحلة يجب أن توجه الأمم جهودها. (١)

٣ . — هذه المبادئ العامة ، إذا طبقناها على حالة مصر ، اتضح لنا أن البيئة الطبيعية كان لها أكبر أثر في حالتها الاقتصادية . فاعتدال مناخها ، وخصوبة أرضها ، وانتظام مياه الري فيها ، جعل منها أمة زراعية ، معظم اعتمادها على ما تنتجه الأرض ، كما أن موقعها الجغرافي بين الشرق والغرب جعل منها مركزاً تجارياً مهماً . كذلك من يتصفح تاريخ مصر يمكنه أن يلاحظ العلاقة الوثيقة بين درجة انتشار الصناعة فيها ، ومقدار حضارتها . ففي وقت ازدهار المدينة ، كنت ترى الصناعة بالغة شأواً بعيداً . وفي أوقات الانحطاط كان يعورها الكساد .

وسأحاول أن أبين في ما يلي تطور تجارة مصر الخارجية وصناعتها ، وحالتها في الوقت الحاضر ، ووسائل انهائها ومستقبلها .

١

تجارة مصر الخارجية (٢)

٤ . — كانت مصر ، منذ العصور القديمة ، نظراً لموقعها الجغرافي ؛ مركزاً للتجارة الدولية . وكانت الاسكندرية في عهد اليونان والرومان مستودعاً للبضائع التي ترسل بين الغرب والشرق . وفي عهد البطالسة نشطت الحركة الاقتصادية في مصر . وكانت تصدر للخارج منسوجاتها الدقيقة ، وأوراق البردى على أن أهم سلعة كانت تصدرها هي القمح . وقدر ما كانت تصدره منه في ذلك الوقت الى روما بما يقرب من مليوني هكتولتر .

(١) راجع كتاب فردريك لست في النظام القومى للاقتصاد السياسى (الترجمة الفرنسية)

F. List : Système national d'économie politique.

(٢) أهم المراجع : تقرير لجنة التجارة والصناعة ، المطبعة الاميرية سنة ١٩٢٥ .
أرمنجون : حالة مصر الاقتصادية والمالية (بالفرنسية) باريس سنة ١٩١١ . — كريج :
تجارة مصر الخارجية ، ملحق المانشستر جارديان الخاص بمصر في أول مارس سنة ١٩٣١ . —
تريمن : تجارة بريطانيا مع مصر ، ملحق الفايننشال نيوز الخاص بمصر في ٢٥ يناير سنة ١٩٣٢ ،
عبد الحكيم الرفاعى : تأثير الازمات النقدية الانجليزية في النظام النقدى المصرى . مجلة القا
والاقتصاد ، السنة الاولى ، العدد الخامس ، نوفمبر سنة ١٩٣١ ص ٧٦٦ — ٨٤٦ . —
الدكتور ليفى : تجارة مصر الخارجية ، مجلة مصر العصرية سنة ١٩١٩ .

وقد احتفظت مصر بمكاتها في عهد الاسلام ، الى أن جاء المهاليك ، فتدهورت في أيامهم الدولة المصرية ، وتدهورت أيضاً تجارتها . وظل الأمر على ذلك في عهد الترك . ولما جاء نابليون الى مصر ، لاحظ العلماء الملازمون للحملة الفرنسية ما طرأ على تجارة مصر الخارجية من الانحطاط ، وما نتج عن ذلك من نقص ايراد الجمارك . وعلى العموم يمكن القول أن مصر وصلت في عهد الترك ، بسبب المظالم واستبداد الحكام الى الدرك الأسفل من التأخر وارتبكت حالتها الاقتصادية والمالية .

٥ . — ولما ولي محمد علي باشا حكم مصر ، عمل على انقاذها من الفوضى ، وعنى بترقية الزراعة ، ووسع نطاق زراعة القطن والقصب ، وعمل على نشر الصناعة ، فزادت تجارتها الخارجية ، فبعد أن كان مجموعها ، في اوائل عهده ، من صادرات وواردات يقدر بخمسة عشر مليوناً من الفرنكات ، تجاوزت قيمة التجارة في أواخر عهده ١٢٢ مليون فرنك : منها ٦٧ مليوناً للصادرات و ٥٥ مليون للواردات . وقد نشطت تجارة مصر بعد ذلك وبلغت أقصى حد لها في سنة ١٩٢٠ إذ بلغت ٣٠٢٠٧١١٠٧٩٢ من الجنيهات المصرية .

٦ . — واذا حللنا الاحصائيات الخاصة بالتجارة الخارجية ، نجد أن مصر — نظراً لاعتمادها على محصول واحد هو القطن — تتأثر صادراتها ووارداتها بثن القطن وكمية محصوله . لأن نحو ٨٥ ٪ من تجارة الصادرات تتكون من القطن وبذرة القطن . وفي السنوات التي يرتفع فيها ثمن القطن ، تزيد قوة شراء الأهالي ، ويستوردون مقادير كبيرة من السلع . وفي السنوات التي ينخفض فيها ثمنه ، تضعف قوة شراء الأهالي . وتقل الواردات تبعاً لذلك . وهذا ما حصل بالفعل في سنة ١٩٣١ إذ انخفضت قيمة تجارة مصر الى مستوى ما كانت عليه في سنة ١٩١٣ (١) .

٧ . — على أن المتأمل في الأرقام الخاصة بالتجارة الخارجية ليندهش حينما يرى أن مصر ، وهي بلد زراعية ، تستورد من الخارج كميات كبيرة من المحصولات الزراعية . واليك بيان أهم ما استوردته مصر في السنوات الأخيرة مقدراً بالجنيهات المصرية :

(١) بلغ مجموع الصادرات والواردات في سنة ١٩٣١ : ٦٠٠١٩٢٠٠٠٠ جنيه وهذا

الرقم يقترب من قيمة تجارة مصر في سنة ١٩١٣ إذ بلغت ٦٠١١٠٥١٠٠٠ جنيه .

١٩٣١	١٩٣٠	١٩٢٩	١٩٢٨	١٩٢٧	١٩٢٦	أهم المنتجات الزراعية المستوردة
٢١٥,٠٠٠	١٢٦,١٨٥	٣٥٦,٧٨٥	١١٥,٦١٦	٤١٩	١٦٤,٦٢٢	القمح
١,١٦٦,٠٠٠	٢,١٥٠,٣٤٨	٣,٠٠٠,٤٧٥	٢,٣١٩,١١٢	٢,٤٣١,٧٨٣	٣,٣٢٢,١٨٥	الدقيق
٢٥٨,٠٠٠	١٣٤,٠٧٣	٢١١,٤٢٤	١٩٢,٩٩٨	٢٠٩,١٥١	٦٦٩,٣١٦	الأرز
٦٤,٠٠٠	١٤,٠٢٩	٧,٦٣٣	١,٦٩٩	٢,٥٢٠	٥١,٨٨٩	الذرة والذرة العويجة
٩,٠٠٠	٢٤,٦٨٦	٥,٦٨٤	٢,٥٨٩	٣٨,٧١٦	٩٣,٢٠٠	الفول
٧٢,٠٠٠	١٧,٠٣٤	٢,٤٤١	٥٦٣	١٦,١٩٧	١٢٠,٨٩٨	الشعير
٣٨,٦٠٠	١,٥٠٦,٤٧٥	١,١٧١,٠٧٣	٩٩٧,٩٥٧	٨٥٢,٠٨٦	٩٠٦,٧٥٥	السكر
١٠٣,٠٠٠	١٣٥,٥٥٢	١٥٣,٦٥١	١٥٣,٨٥٤	١٦٧,٤٥٨	١٥٤,٠٣٤	البطاطس
٦٣٧,٠٠٠ }	٥٨٨,٤٠٩	٤٤٤,٥٧٣	٣٧٧,٧١٤	٤١٢,٧٢٣	٤٦٤,٨٩٠	الفراكه
	٤٢٣,٣٥٩	٤٧٤,٨٢١	٤٧٢,٩٢٤	٤٨٢,٨٧٩	٤٧١,٥١٦	الفواكه المخفظة
٢٢٥,٠٠٠	٥٨٨,٦٢٩	٧٠٥,٦٣٧	٧٥٧,٢٠٤	٥٤٣,٧٦٨	٧٨٧,٥٤٨	الماشى واللحوم

والأزمة الحالية تبين مقدار الخطر الذى تتعرض له الأمة المصرية فى اعتمادها على محصول واحد مُستهدف للتغيرات العالمية ، ولمنافسة بعض المواد الأخرى مثل الحرير الصناعى . ولتوالى نقص اثمان القطن . أصدرت الحكومة أخيراً مرسوماً بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣١ يقضى بتحديد المساحة القطنية : فى منطقة السكلا ريدس بنسبة ٣٠ ٪ . وفى غيرها بنسبة ٢٥ ٪ . من المساحة القابلة للزراعة . وسيكون من شأن هذا القرار الاكثار من زراعة القمح والفواكه وغيرها من المواد الغذائية حتى تسد حاجة القطن وتغنيه عن استيراد كثير من المواد الغذائية من الخارج .

٧ - وإذا رجعنا الى تاريخ التجارة الخارجية المصرية وجدنا أن مصر فى أوائل القرن التاسع عشر كانت من الممالك التى تصدر المواد الغذائية ولكنها أصبحت الآن تعتمد على الخارج فيما يلزمها من الحبوب والدقيق وغيرها وتستورد منها مقادير كبيرة . وهذا ناتج طبعاً من بذل كل العناية الى ترقية محصول القطن . كذلك كانت مصر تصدر الى الخارج فى سنة ١٨٣٦ من المنسوجات القطنية ما قيمته ٦٢.٠٠٠ جنيه أى نحو ٣ ٪ من مجموع الصادرات . ولكن هذه النسبة أصبحت الآن فى حكم العدم . وقد لاحظت ، بحق ، لجنة التجارة والصناعة التى ألفت فى سنة ١٩١٦ : « ان المكانة الاقتصادية لتجارة الصادرات المصرية قد ضعفت وانحطت ، لأن تنوع المواد التى تتكون منها تلك الصادرات ، أخذ فى النقص بدل الزيادة . وهذا يجعل اعتماد القطن على البلاد الأجنبية أشد واعظم منه فى أى زمن سابق كما أنه يجعل دائرة الانتاج قاصرة قصوراً لم يسبق له نظير فى تاريخ البلاد . »

٨ - **صادرات مصر** - أهم صادرات مصر الى الممالك الأجنبية هو القطن . وقد بلغت قيمة الصادر منه فى سنة ١٩٢٩ مبلغ ٤١,٣٦١,٠٠٠ جنيه ، وفى سنة ١٩٣٠ ، ٢٣,٧٨٨,٠٠٠ جنيه ، وفى سنة ١٩٣١ ، ١٩,٦٨٨,٠٠٠ جنيه . وهذا بالنسبة الى مجموع الصادرات يمثل ٨٠ ٪ فى سنة ١٩٢٩ ، ٧٤ ٪ فى سنة ١٩٣٠ ، ٧٠ ٪ فى سنة ١٩٣١ . هذه الأرقام تدلنا على مقدار نقص قيمة الصادر من القطن فى السنتين الاخيرتين نظراً للآزمة العالمية الحاضرة وكساد الصناعة القطنية . ومع ذلك يمكن أن نلاحظ أن نقص قيمة الصادر من القطن يرجع الى انخفاض الأثمان اكثر منه الى نقص

الكمية المصدرة إذ لم يقل الصادر منه في سنة ١٩٣١ عن سنة ١٩٢٩ إلا بمقدار ٣ ٪ ،
وفي الجدول الآتي بيان كمية الصادر من القطن في الثلاث سنوات الأخيرة ، ومتوسط ثمنه:

السنة	كمية القطن المصدر (بالقنطار)	متوسط ثمن القنطار (بالريال)
١٩٢٩	٧,٦٢٥,٠٠٠	٢٧,١٣
١٩٣٠	٥,٩٢٧,٠٠٠	٢٠,٠٨
١٩٣١	٧,٣٩٧,٠٠٠	١٣,٣١

وأهم صادرات مصر ، عدا القطن : بذرة القطن . الأرز ، البصل ، زيت بذرة القطن ،
والسجائر ، والفوسفات والبيض ، والكسب واليك بيان قيمة الصادر منها في السنوات
الثلاث الأخيرة (بآلاف الجنيهات المصرية) :

أهم الصادرات	سنة ١٩٢٩		سنة ١٩٣٠		سنة ١٩٣١	
	قيمة المصدر	النسبة المئوية للمجموع الصادرات	قيمة المصدر	النسبة المئوية للمجموع الصادرات	قيمة المصدر	النسبة المئوية للمجموع الصادرات
بذرة القطن	٢,٨٦١	٥٨ ٪	١,٨٦٥	٥٨ ٪	١,٤٣٧	٥١ ٪
الأرز	٩٦٧	٢ ٪	٦٣٣	٢ ٪	٣٥٠	١٢ ٪
البصل	٨٧٢	١٧ ٪	٥٤٠	١٧ ٪	٧١٧	٢٥ ٪
زيت بذرة القطن	٤٧١	٩ ٪	٤٢٥	١٣ ٪	٢٨٨	١ ٪
السجائر	٣٥٢	٧ ٪	٣١٢	١ ٪	٢٤٨	٨ ٪
الفوسفات	١٧٧	٣ ٪	٢٥٨	٨ ٪	٢١٧	٧ ٪
البيض	٣٢٠	٦ ٪	٢٥٨	٨ ٪	٣٢٢	١١ ٪
الكسب	٦٠٧	١٢ ٪	٩٠٧	٢٨ ٪	٧٩١	٢٨ ٪

ويلاحظ أن تجارة الصادرات المصرية عانت في المدة الأخيرة عناء شديداً من القيود والرسوم الجبركية المرتفعة التي فرضتها بعض الدول عليها مثل الولايات المتحدة . فإن ضريبة السبعة سنتات التي فرضتها على كل رطل من القطن المصري قد انقصت مقدار الصادر اليها منه من ١ و ٢٧٧ و ٠٠٠ قنطار في سنة ١٩٢٩ الى ١٨٦ و ٠٠٠ قنطار في سنة ١٩٣١ . وقد نقصت أيضاً صادرات القطن الى فرنسا نظراً للضائقة الشديدة التي تعانيها تلك الصناعة فيها .

وقد قامت الحكومة في العام الماضي بالدعوة للاقطان المصرية والعمل على التعامل بها في البورصات الأجنبية . وعلى اثر ذلك زاد ما تستورده بعض الدول من القطن المصري خصوصاً ألمانيا ، والهند ، واليونان ، والسويد ، وكندا ، والصين ، واسبانيا . وتبذل الحكومة مجهودات كبيرة للحصول على الغاء الضريبة الاميريكية على القطن .

٩ - واردات مصر - تتبع واردات مصر ثمن القطن وكية محصوله ، لأن قوة شراء الأهالي من الخارج تتوقف على ذلك المحصول .

وقد نقصت قيمة واردات مصر في السنتين الأخيرتين ، بسبب هبوط اسعار القطن من جهة ، ومن جهة أخرى فإن التجار في مصر كانوا قد استوردوا مقادير كبيرة من السلع قبل تطبيق التعريفة الجبركية الجديدة التي نفذت في ١٧ فبراير سنة ١٩٣٠ . ويقدر ما استوردته مصر في سنة ١٩٢٩ بمبلغ ٥٦ مليون جنيهه ، وفي سنة ١٩٣٠ بمبلغ ٤٨٠ و ٤٧ و ٠٠٠ جنيهه وفي سنة ١٩٣١ زاد نقص الواردات فلم تتجاوز قيمتها ٣١ و ٥٢٩ و ٠٠٠ جنيهه أي بنقص ١٥٩ و ٩٥٩ و ٠٠٠ عن سنة ١٩٣٠ . وهذا النقص يمكن تعليقه بالأسباب السابق ذكرها ، اذ أن ما يقرب من ٩٠ ٪ من سكان مصر يشتغلون بالزراعة وقد تأثرت مقدرتهم على الشراء بسبب نقص اثمان المحصولات الزراعية ، ويمكن ان يزيد على ذلك ازدياد هبوط الأثمان في سنة ١٩٣١ . ويرجع نقص الواردات أيضاً الى تشجيع انتاج بعض الحاصلات القومية .

وأهم واردات مصر هي : المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية ، والحديد ، والصلب والسماد ، والقمح ، والدقيق ، والسكر ، والشاي . والبن والفلفل والتينيد . والزجاج والكحول والبتترول والآلات والروائح والبنزين والمازوت والأسماك ، والجن والاحذية وخشب البناء والفحم والصابون وخيوط القطن والحقائب والتبغ والفواكه والخضروات . وفي

الجدول الآتي بيان قيمة أهم الواردات في المدة من أول سبتمبر سنة ١٩٣١ لغاية ٣١ أغسطس سنة ١٩٣١. (١)

أهم الواردات	القيمة بالجنيهات المصرية
الخضروات والفواكه	٤٣٧٢ و ١١٤
المواد المعدنية	٢ و ٨١٨ و ٠٨٣
المواد الكيماوية	٣ و ٣٢٧ و ٩٧٢
المنسوجات	٨ و ٤٦٣ و ٣٩٠
المعادن العادية (المصنوعة والخام)	٢ و ٩٤٥ و ٥٢٥
الآلات والقطع الميكانيكية (الخ)	١ و ٩٦٢ و ٩٨٧
مواد التغذية والتبغ	٤ و ٠٤٤ و ٨٦٤
مواد أخرى	٦ و ٣١٧ و ٤٣٩
الجملة	٣٤ و ٢٥٢ و ٣٧٤

١٠ — **تجارة الترانسيت** — كانت مصر مستحوذة على جانب كبير من تجارة الترانسيت بين أوروبا والشرق ، وذلك نظراً لموقعها الجغرافي . إلا أن الاحصاءات في السنوات الأخيرة تدل على نقص هذه التجارة . وربما كان منشأ ذلك الأزمة العالمية التي نتج عنها قلة المبادلة بين الأقطار (٢) . كذلك تدل الاحصاءات على نقص البضائع المعاد تصديرها في سنة ١٩٣١ (٣) .

- (١) هذه الأرقام مأخوذة من احصاءات البنك الاهلي .
 (٢) كانت الاحصاءات لا تتضمن بياناً عن البضائع التي تمر برسم الترانسيت الا الفحومات وزيت الوقود . ولكن ابتداء من سنة ١٩٣٢ شرعت مصلحة الجمارك في اتخاذ التدابير التي تمكنها من نشر البيانات الخاصة بها .
 (٣) أهم الاصناف المعاد تصديرها : الكبروزين ، والبترين ، والمازوت والفحم الحجري والسجاجيد ، والبسط ، والاكياس الفوارغ والسيارات والسجائر .

١١- الممالك التي تنجر معها مصر - هي إنجلترا ومستعمراتها ، وفرنسا ، إيطاليا ، ألمانيا ، والولايات المتحدة ، وشيلي ، والبلجيك ، بلجيكا ، ورومانيا ، وتشكوسلوفاكيا ، واليابان ، واليونان ، وروسيا ، وفلسطين ، وسوريا ، وسيام ، والهند ، والهند الصينية الفرنسية ، والمستعمرات الهولندية ، والنمسا ، وسويسرا ، وهولندا ، والسويد ، وبلغاريا ، وتركيا .

ويلاحظ أن لانجلترا المقام الأول في تجارة مصر الخارجية . فهي أكبر دولة تتعامل معها مصر سواء في المبيعات أو في المشتريات . الا أنه بمقارنة الأرقام الخاصة بالتجارة الخارجية قبل الحرب ، بمثلاتها بعد الحرب نرى أن نصيبها من التجارة المصرية أخذ في النقص : ففي سنة ١٩١٣ كانت بريطانيا تشتري من صادرات مصر نحو ١ و ٤٣٪ . وتبيع لها من وارداتها نحو ٥ و ٣٠٪ . وقد انخفضت هذه النسبة في سنة ١٩٣٠ الى ٥ و ٣٤٪ بالنسبة الى الصادرات والى ٧ و ٢٣٪ بالنسبة الى الواردات . على أننا لو أنعمنا النظر لوجدنا أن نقص تجارة الواردات الانجليزية في مصر يرجع الى سنة ١٩٢٥ . إذ في السنين التي تلت الحرب مباشرة لم ينقص نصيب إنجلترا بل بالعكس وزادت وارداتها في سنة ١٩٢٢ الى ٣٤٪ ، أي بزيادة ٥ و ٣٪ عما كانت عليه في سنة ١٩١٣ . ولكن ابتداء من سنة ١٩٢٥ ، وهي السنة التي أصلحت فيها إنجلترا نظامها النقدي ، أخذت وارداتها في النقصان . وذلك يرجع الى أن نفقة الانتاج في إنجلترا أعلى مما هي في غيرها ، لارتفاع أجور العمال . ولذا لا يمكن أن تزاحم الممالك الأخرى في الأسواق الدولية . وعلى أثر ذلك أخذ نصيب إنجلترا في الواردات المصرية يقل شيئاً فشيئاً فانخفضت الواردات الانجليزية في سنة ١٩٢٥ الى ٢ و ٢٥٪ وفي سنة ١٩٢٦ الى ٨ و ٢١٪ وفي سنة ١٩٢٧ انتعشت بعض الشيء فاصبحت تعادل ٦ و ٢٥٪ . ولكنها أخذت في الانخفاض بعد ذلك فكانت نسبتها ٧ و ٢١٪ في سنة ١٩٢٨ ، وكانت ٧ و ٢٣٪ في سنة ١٩٣٠ . وهذا ما أدى في العام الماضي الى ارسال بعثة تجارية انجليزية تحت رئاسة السير بلفور لتوثيق العلاقات التجارية بين مصر وإنجلترا .

الا أن عدول إنجلترا عن قاعدة الذهب في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣١ وانخفاض الجنيه الانجليزي والجنيه المصري تبعاً له مما يؤدي الى اتساع نطاق العلاقات التجارية بين مصر

وانجلترا لأن المصرى ليس من مصلحته أن يشتري من الممالك التى لا تزال متبعة قاعدة الذهب. اذ أن أثمانها تعتبر مرتفعة بالنسبة اليه ، نظراً لتدهور نقوده ، فهو مضطر بناء على ارتباط النقد المصرى والانجليزى أن يستورد منها ما تنتجه من المواد . وقد نشطت قليلا صناعة القطن فى لانكشير على أثر هبوط الجنيه و زاد مقدار ما صدر اليها من القطن المصرى فى المدة من ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣١ الى نهاية الأسبوع الثانى من يناير سنة ١٩٣٢ عما صدر فى نفس المدة من الموسم السابق بمقدار ٢٩٦.٠٠٠ قطار .

١٢ - أما نصيب الممالك الأخرى فيتبين من الجدول الآتى ومنه يتضح الفرق بين نصيب أهم الممالك فى تجارة مصر الخارجية قبل الحرب ، وفى سنتى ١٩٣٠ و ١٩٣١ :

اولا : تجارة الصادرات (١)

الدولة	النسبة المئوية فى سنة ١٩١٣	النسبة المئوية فى سنة ١٩٣٠	النسبة المئوية فى سنة ١٩٣١
فرنسا	٨ و ٨ %	١٤ و ٤ %	١٢ و ٨ %
المانيا	١٢ و ٨ %	٧ و ٩ %	٩ و ١٢ %
ايطاليا	٣ و ٢ %	٦ و ٢ %	٥ و ٩٩ %
الولايات المتحدة	٧ و ٨ %	٦ و ١ %	٢ و ٥ %
روسيا	٧ و ١ %	٥ و ٤ %	٦ و ٠٨ %
سويسرا	٣ و ٢ %	٣ و ٩ %	٣ و ٥ %
الهند	—	٣ و ٤ %	٤ و ٥٤ %
اليابان	٢ و ٣ %	٣ %	٤ و ٧٥ %

(١) راجع مقالة مستر كريج عن تجارة مصر الخارجية فى المانشستر جارديان : اول مارس سنة ١٩٣٠ . وراجع تقرير ادارة الجمارك عن سنة ١٩٣١ .

ثانياً: تجارة الواردات^(١)

الدولة	النسبة المئوية في سنة ١٩١٣	النسبة المئوية في سنة ١٩٣٠	النسبة المئوية في سنة ١٩٣١
فرنسا	٩٪	٩.٤٪	٩.٨٪
إيطاليا	٥.٣٪	٩.١٪	٩.١٧٪
ألمانيا	٥.٨٪	٧.٩٪	٨.٠٥٪
الولايات المتحدة	١.٩٪	٤.٧٪	٤.٣٤٪
البلجيك	٤.٢٪	٣.٩٪	٣.٨٧٪
اليابان	٠.٢٪	٣.٦٪	٤.٨٧٪
الصين	١٪	٠.٦٥٪	٠.٧٤٪
الهند الصينية	٤.٨٪	١.٢٤٪	٠.٧٧٪
أستراليا	١.٣٪	٢.٧٪	٣.١٢٪*
روسيا	٣.٢٪	١.٩٪	١.٤٪
سويسرا	٥٪	١.٢٪	١.٣٪
رومانيا	٤٪	٣.٨٪	٣.٦٪

١٣ - **حالة الميزان التجاري المصري** - يتأثر الميزان التجاري بسعر القطن . ولذا نجد أنه كان في مصلحة مصر في مدة الحرب وفي السنتين التاليتين لها . وذلك لأن القطن ارتفع ثمنه في مدة الحرب لزيادة الطلب عليه . فبعد أن كان متوسط ثمنه في سنة ١٩١٣ نحو ٣ جنيه و ٣٠.٨ ملهمات زاد في سنة ١٩١٩ إلى ١٧ جنيه و ٥٦.٢ ملهما . وفي الجدول الآتي بيان حالة الميزان التجاري في أثناء الحرب ، وفي السنتين التاليتين لعقد الصلح :

(١) راجع مقالة مستر كريج السالفة الذكر وراجع ايضا ارمينجون . حالة مصر الاقتصادية والمالية . باريس سنة ١٩١١ . وتقرير ادارة الجمارك عن سنة ١٩٣١ .

(بالجنيهات المصرية)

السنة (من أول سبتمبر الى ٣١ أغسطس)	الواردات	الصادرات	الميزان التجارى زيادة (+) او نقص (-) الصادرات عن الواردات
١٩١٥ - ١٩١٦	٢٧,٥٤٥,٣٤٠	٢٩,٨٨٢,٣٩٣	٢,٣٣٧,٠٥٣ +
١٩١٦ - ١٩١٧	٣٠,٠٩٥,٣٧١	٤٤,٥٨٧,٩٥٠	١٤,٤٩٢,٥٧٩ +
١٩١٧ - ١٩١٨	٤٧,٢٨٥,٢٢٦	٤٨,٠١٩,٩٥٢	٧٣٤,٧٢٦ +
١٩١٨ - ١٩١٩	٤٤,٣٣٤,٧٢٠	٤٨,٨٢٩,٩٥١	٤,٤٥٩,٢٣١ +
١٩١٩ - ١٩٢٠	٨٧,٥٧٧,٩٨٥	١١٣,٤٦١,٨٠٦	٢٥,٨٨٣,٨٢١ +

على أنه ابتداء من سنة ١٩٢٠-١٩٢١ رجع الميزان التجارى فأصبح فى غير صالح مصر ، وذلك لانخفاض أثمان القطن وكان مقدار العجز فى تلك السنة ١٧ و ٥٤٠ و ٣٤ جنيه ثم تحسن فى السنوات التالية ، ثم تغير بعد ذلك وأصبح فى غير مصلحة مصر من سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٦ الى سنة ١٩٣٠ - ١٩٣١ (أى عدا ستى ١٩١٧ - ١٩٢٨) ، و (١٩٢٨ - ١٩٢٩) . وقد بلغ العجز اكثر من ١٤ مليوناً فى سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ . ويعمل ذلك أولاً بتدهور أثمان القطن كما يبينه من جهة ، وبكثرة ما استورده التجار قبل تطبيق التعريف الجمركية الجديدة من جهة أخرى . فى الجدول الآتى بيان حالة الميزان التجارى من سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ الى سنة ١٩٣٠ - ١٩٣١ :

(بالجنبريات المصرية)

السنة (من أول سبتمبر الى ٣١ أغسطس)	الواردات	الصادرات	الميزان التجارى زيادة (+) او نقص (-) الصادرات من الواردات
١٩٢٠ - ١٩٢١	٧١,٧٢٥,٦٧٧	٣٧,٦٩٠,٢٦٠	٣٤,٠٣٥,٤١٧ -
١٩٢١ - ١٩٢٢	٤٦,٠٠٦,٥٢٩	٥٠,١٨٥,١٤٠	٤,١٧٨,٦٦١ +
١٩٢٢ - ١٩٢٣	٤٤,٤٥٣,١١٦	٥٣,٥٦١,٧٨٨	٩,١٠٨,٦٧٢ +
١٩٢٣ - ١٩٢٤	٤٧,٤٤٠,٥٩٠	٦٤,١٠٩,٦٩٦	١٦,٦٦٩,١٠٦ +
١٩٢٤ - ١٩٢٥	٥٦,٢٥٧,٥١١	٦٧,٩٥٢,٨٠٨	١١,٦٩٥,٢٩٧ +
١٩٢٥ - ١٩٢٦	٥٥,٩٧٣,٠٧٥	٥٢,٨٥٥,٦٣٠	٣,١١٧,٤٤٥ -
١٩٢٦ - ١٩٢٧	٤٨,٢٣٠,٢٢٣	٤٥,٨٢٣,٠٣٥	٢,٤٠٧,١٨٨ -
١٩٢٧ - ١٩٢٨	٥١,٥٦٥,٣٨٨	٥٤,٣١٠,٩٨٣	٢,٧٤٥,٥٩٥ +
١٩٢٨ - ١٩٢٩	٥٥,٢٨٤,٣٩٧	٥٧,١٩٥,٣٨٨	١,٩١٠,٩٩١ +
١٩٢٩ - ١٩٣٠	٥٤,٠٥٦,٩٨٨	٣٩,٧٢٢,٠٢٩	١٤,٣٣٤,٩٥٩ -
١٩٣٠ - ١٩٣١	٣٤,٢٥٢,٣٧٤	٢٩,٣٣٠,٦٩٥	٤,٩٢١,٦٧٩ -
متوسط العشر السنوات الاخيرة من سنة ١٩٢١ — سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١	٤٩,٣٥٢,٠١٩	٥١,٥٠٤,٧١٩	٢,١٥٢,٧٠٠ -

نستخلص من هذه الاحصاءات أن الميزان التجارى غير متوازن وأنه يجب معالجة هذا الاضطراب. وقد عملت الحكومة على السعى لايجاد أسواق جديدة لتصريف المحصول المصرى ونشر الدعاية له فى الخارج وادخاله فى التعامل فى البورصات الأوربية ونأمل أن تثمر هذه الجهودات قريباً. وهى الآن شارعة فى العمل على تشجيع صادراتنا من الفواكه والخضروات. وقد وضعت رقابة على المحصولات الرئيسة المعدة للتصدير. إذ أنشأت مصلحة التجارة والصناعة مكتباً لمراقبة الصادرات. وسيقوم هذا المكتب فى أول الأمر بمراقبة البيض والبصل، لتحسين سمعة هذين الصنفين فى الخارج.

على أن توازن الميزان التجارى لن يتم على وجه مرضى الا بتنوع الزراعات والعمل على انهاض الصناعة . وسأعالج فى القسم الثانى من هذا البحث موضوع الصناعة وطرق انماؤها فى مصر . انما يحسن قبل بحث هذا الموضوع أن نقول كلمة موجزة عن حالة ميزان الحسابات المصرى .

١٤ . — ميزانه الحسابات المصرى : لا ينحصر ميزان الحسابات فى الميزان التجارى بل يشمل أيضاً عناصر أخرى متنوعة ، هى التى يطلق عليها العناصر الغير المنظورة invisibles ، ومن الصعب تقويمها بدقة ، ومن هذه العناصر : مصاريف السائحين الاجانب فى مصر ، ونفقات الحجاج ، والسائحين المصريين فى اوربا زمن الصيف ، وعددهم يختلف باختلاف السنوات ، وأقساط الديون المصرية ، والمبالغ التى تدفع لسد نفقات الجيش البريطانى ، وما يدفع فى مصر لسد قيمة الكوبونات التى يحملها سكان القطر ، والمبالغ التى تدفعها الشركات لمساهميها وحمله سنداتهما فى الخارج ، والمبالغ التى تدفع بمصر نظير خدمات شركة قناة السويس للملاحة ، ونفقات التمثيل السياسى الاجنبى فى مصر ، ونفقات تمثيل مصر فى الخارج . والمبالغ التى تدفع لأعضاء البعثات العلميه ، ونفقات المراكب الاجنبية فى الموانئ المصرية ، وفوائد السندات الضامنة لأصدار البنوك المصرى . هذه العناصر كلها يجب مراعاتها فى تقدير ما لمصر وما عليها من الديون .

ويمكن القول أن مصر تكون دائنة للخارج غالباً فى فصل الشتاء إذ تصدر مقادير كبيرة من القطن فى ذلك الوقت ، كذلك يكثر عدد السائحين الاجانب فى مصر . وبالعكس تكون مدينة فى فصل الصيف إذ تقل فيه الصادرات المصرية ، ويكثر سفر المصريين لقضاء فصل الصيف فى الخارج .

ويكاد يكون من المستحيل أن نبين بدقة حالة ميزان الحسابات المصرى . الا أن البنك الأهلى يرى فى تقاريره السنوية أنه قد يصح القول بتعادل العناصر التى يتألف منها الميزان الحسابى بعضها مع بعض فى السنوات العادية .

وقد كان ميزان الحسابات فى مصلحة مصر فى مدة الحرب ، وذلك لارتفاع ثمن القطن ولكثرة ما أنفقته إنجلترا على جيوشها فى مصر . وانه وان قل قدوم السائحين الى مصر فى فصل الشتاء فى تلك المدة ، فان هذا النقص قد عوضه وجود الجيوش البريطانية فى مصر ، كما أن المصريين الذين كانوا ينفقون فى الخارج أموالاً طائلة فى فصل الصيف ، اضطروا

الى ملازمة بلادهم ، كذلك قلت الواردات الى مصر ، بسبب صعوبة المواصلات وبطئها كما أن الحكومة المصرية وضعت قيوداً على الاستهلاك ، وحددت الحصص التي يستهلكها كل فرد من بعض السلع ، كما أنه كان لمصر رؤوس أموال كبيرة في الخارج منها بونات الخزينة البريطانية التي كانت تأتي بريح كبير للدولة وقد زاد مقدار هذه البونات نظراً لزيادة الاصدار في مصر .

وقد قدر ما كسبته مصر في مدة الحرب ، نظراً لأن ميزان الحسابات كان في صالحها ، بمبلغ ١٠٠ مليون جنيه .

الا أنه ابتداء من سنة ١٩٢١ فقدت مصر معظم ما كسبته في أثناء الحرب ، إذ غالت في الاستيراد وكان عجز الميزان التجاري وحده في سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ يقدر بنحو ٤١٧,٠٣٥,٣٤ جنيه .

ولما كان مسألة توازن الحسابات لها أهمية حيوية نأمل أن تهتم الحكومة بوضع إحصاءات شاملة وأن تعمل على الحصول على المعلومات اللازمة من شركات الملاحة ، والفنادق ، والمصالح المختلفة (١) .

(١) وقدر المستر كريج السكرتير المالي للحكومة المصرية ما ينفقه السائحون الاجانب في مصر بما يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين جنيه . وهذا المبلغ يعادل تقريباً ما ينفقه السائحون المصريون بأوربا في فصل الصيف ، والحجاج . وقدر القوائد التي تدفع للمالين الاجانب الذين يستثمرون أموالهم في مصر بما يتراوح بين ثمانية ملايين وتسعة ملايين جنيه . على أن هذا التقدير اساسه المدة التي قبل الحرب . وقدرت مذكرة اللجنة المالية عن مشروع الميزانية سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٣ المبالغ المدفوعة نظير البضائع المستوردة أو الخدمات المؤداة للجيش البريطاني بمبلغ ١٩٦ مليون في سنة ١٩٢٩ ، ١٥٩ مليون في سنة ١٩٣٠ ومليونين في سنة ١٩٣١ . وقدرت أيضاً المبالغ التي تدفع في مصر نظير خدمات شركة قناة السويس للملاحة من جهة ، ولسد قيمة السكوبونات التي يحملها سكان القطر المصري من جهة اخرى في سنة ١٩٢٩ ، بمبلغ ٢٥٦ مليون ، وفي سنة ١٩٣٠ بمبلغ ٢٥٤ مليون وفي سنة ١٩٣١ بمبلغ ٢٥٣ مليون راجع كريج : تجارة مصر الخارجية في المانشستر جارديان . العدد الخاص بمصر — أول مارس سنة ١٩٣١ .

الصناعة في مصر

١٥- ان عدد سكان القطر المصرى آخذ فى الازدياد . وبحسب تعداد سنة ١٩٢٧ يبلغون ٨٦٧ر١٧ر١٤٢ . ولما كانت مساحة الاراضى المنزرعة تبلغ نحو ستة ملايين فدان ولا يمكن زيادتها عن ذلك الا قليلا ، وجب التفكير فى ايجاد موارد عمل لهذا العدد الكبير من السكان ، والاهتمام بترقية الصناعة . اذ ان التطور الاجتماعى يتوقف على التطور الصناعى . وأن دولة تهمل الصناعة لى دولة متأخرة .

وربما كان التعبير ، بأن دولة ما صناعية أو غير صناعية ، غير دقيق ، بل الأصح أن نقول أن دولة وصلت أو لم تصل بعد الى المرحلة الصناعية . فالامة كما بينا تنتقل من مرحلة الرعى الى مرحلة الزراعة ومن التطور الزراعى الى التطور الصناعى .

١٦- وان تاريخ القطر المصرى ، من عصر الفراعنة الى الآن ، يبين لنا بدقة ذلك التلازم بين درجة رقى الدولة ، وحالة الصناعة فيها .

ففى عصر الفراعنة تدل الأبحاث على مبلغ حضارة المصريين ، وكيف أنهم كونوا فكرة صحيحة عن نظام الحكم ، وقد ازدهرت الصناعة فى عصرهم . وكانت تتميز اذ ذاك بصفة الابتكار . فلم يكن الصانع المصرى مقلداً فى عمله للغير بل كان يتميز بسبقه فى ذلك الميدان . وأهم الصناعات التى وجدت فى ذلك العهد : صناعة التعدين ، وسبك المعادن . يدلك على تقدمها تلك التماثيل والآلات الزراعية المصنوعة من النحاس ، كذلك صناعات النقل (السفن الصغيرة والعجلات) ، وصناعة البناء ، يشهد بعلو كعبهم فيها الازهرامات الخالدة ، وصناعة التجارة ، والفخار ، والمصوغات ، والمجوهرات والزجاج . وان آثار قدماء المصريين لتبين مبالغ المامهم بفن الكيمياء . الا أن رقى الصناعة فى مصر كانت تعتوره فى بعض الأحيان ، فترات من الخمول ، تبعاً لتحكم الدول الفاتحة لها .

وفى عهد البطالسة كانت مصر أرقى مملكة فى البحر الأبيض المتوسط ، فكان المصريون ينسجون أدق الخيوط ، وانتشرت فى ذلك العصر صناعة الزجاج ، وأوراق البردى... الخ

١٧- وبعد انتهاء عصر الأسرة اليونانية المصرية ، أخذت الصناعة فى التدهور ، الى أن جاء الاسلام ، فأعاد الفتح الاسلامى لمصر مركزها الصناعى . وقد كانت مصر

مركزاً تجارياً مهماً في ذلك العصر نظراً لموقعها الجغرافي . والصناعات ، التي كانوا يراولونها ، : اما صناعات مدنية مثل صناعة البناء ، إذ اشتهرت مصر في ذلك الوقت بالتبليط والترخيم والنحت ، مثل صناعة الجلود والمصوغات والأثاث والزجاج ، والورق والحصر ، والشمع ، والصابون ، والسكر ، والدقيق ، والحلوى . واما صناعات حربية مثل صناعة الأسلحة ، والسروج ، والتروس والخيام والسفن^(١) . وكانت الصناعات المصرية خاضعة لنظام الطوائف ، فكان لكل طائفة شيخ يشرف على أعمالها .

على أن أهم عصر اسلامي لرقى الصناعة هو عصر الفاطميين ، ويرجع ذلك إلى عناية الخلفاء بها وما كانوا يوالونها به من اعانات وجوائز صناعية ، وتشجيعها بالمشتريات منها ١٨ — هذا العصر الذهبي للصناعة المصرية ما لبث أن انتهى في عهد المماليك والترك . ويمكن تعليل ذلك بتعسف الأتراك في فرض الضرائب على المصريين . فكانوا يبذلون جهدهم في ابتزاز اكبر ما يمكن من الأموال دون نظر إلى مصلحة الشعب ، كذلك أخذ الأتراك ، عند فتحهم لمصر ، عدداً كبيراً من الصناع المصريين . كما أن تحول مجرى التجارة عن مصر ، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، أضعف مركزها التجاري . وفي هذا العصر ضعفت روح الاختراع عند الصانع المصري . وبعد أن كانت الصناعة أساسها الابتكار ، تغيرت مهمة الصانع فأصبح مقلداً ، ولذا يسمى هذا العصر ، عصر التقليد ١٩ — ولما ولي محمد علي باشا على مصر عمل على انقاذها من حالة الفوضى ، وسعى إلى استقلال مصر سياسياً واقتصادياً . واستعان بالخبراء الاجانب خصوصاً الفرنسيين والاطاليين (الا أنه ما لبث أن طرد الايطاليين لمنازعات سياسية) . وقد عمل هؤلاء الاجانب على مساعدة مصر بمعلوماتهم الفنية والزراعية والصناعية .

وقد كانت المشروعات الصناعية ، في عهد محمد علي ، مشروعات حكومية ، أهمها : صناعة السفن ، إذ أنشأ داراً لصناعة السفن ببولاق . وأنشأ مصانع للنسيج والغزل وكان يصدر ما يزيد عن حاجة مصر إلى سوريا ، وأوروبا ، وعن بصناعة الحرير ، واكثر من

(١) راجع تقرير لجنة التجارة والصناعة . المطبعة الاميرية سنة ١٩٢٥ . وراجع أيضاً أرمنجون . حالة مصر الاقتصادية والمالية . باريس سنة ١٩١١ ، وراجع كتاب المقريري ومقال نوس بك في مجلة مصر العصرية ، يناير سنة ١٩٣٠ .

زراعة أشجار التوت . وأنشأ كثيراً من الصناعات الأخرى ، مثل صناعة الجوخ ، والطرايش ، والزيت .

ولم يهمل محمد علي باشا الجانب العلمى والمعنوى للحركة الصناعية . فأنشأ مدرسة الفنون والصنائع . وبث في نفوس الناس روح تشجيع الصناعات الوطنية . هذا البناء ، الذى أقامه محمد علي باشا ، لم يلبث أن انهار بعد وفاته . إذ أهمل الحكام الذين قاموا بعده تعهد ذلك العمل العظيم الذى بدأ به .

٢٠ - وعلى أثر انشاء المحاكم المختلطة أخذت رؤوس الأموال الأجنبية تفد الى مصر لتستغل فيها . وانشئت عدة شركات صناعية ، منها شركات الترام ، وشركات الماء ، وشركة السكر ، وشركات الكهرباء ... الخ . وقد استعانت بالعمال المصريين ، والاجانب النازحين من بعض بلاد البحر الأبيض المتوسط . وأظهر العامل المصرى نبوغاً فى العمل تحت اشرافهم ، حتى أنه يمكن القول ان الصانع المصرى ، ورث اليوم شيئاً عن مهارة أسلافه ، التى حازت إعجاب العالم فى ما مضى .

٢١ - ولما نشبت الحرب العظمى ، أوجدت فى نفوس المصريين روح الاعتماد على النفس ، إذ أن صعوبة المواصلات ، وقلة الانتاج فى مصر ، أجبرت الشعب على القيام بسد حاجياته . خصوصاً أن مصر كان يجب عليها أن تنتج ما يكفي حاجة سكانها ، والجيش المربطة فيها فى ذلك الوقت . فنشأت عدة صناعات منها صناعة الأخشاب ، والتغذية ، وصنع الملابس ، والفخار ، وأدوات البناء وبعض صناعات التعدين ، والجلود وبعض الصناعات الاستخراجية والزجاج .

ويمكن أن نقارن تأثير الحرب فى الصناعة المصرية بحالة الحصر البحرى فى أوربا أيام الحرب النابليونية ، إذ امتنع دخول المنتجات الانجليزية فى القارة ، فأنشئت عدة مصانع للقيام بإنتاج السلع التى تعذر استيرادها . كذلك كان الحال فى مصر . إذ أصبح من المتعذر استيراد كثير من المواد المصنوعة فأنشئت عدة مصانع لإنتاج ما كانت البلاد تشتريه من أوربا .

ويلاحظ أن تلك الصناعات كانت وليدة الحاجة فلم تقم الحكومة فى بادى الأمر بتعويضها . ولكن لما طال مدة الحرب ، ألقت الحكومة لجنة فى سنة ١٩١٦ تسمى لجنة التجارة والصناعة برئاسة حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدق باشا ، وصدر قرار

مجلس الوزراء بتشكيلها في ٨ مارس سنة ١٩١٦ . وكانت مهمة تلك اللجنة بحث تأثير الحرب في الصناعة والتجارة في مصر . واقتراح التدابير المؤدية لتشجيع وإيجاد أسواق جديدة ، لتصرف الحاصلات المصرية ، واستبدال الأصناف التي انقطع ورودها بغيرها مما يصنع في مصر ، وبحث طرق التعليم الفني والتجاري . وقد زارت اللجنة معظم المصانع ووضعت اللجنة تقريراً مسهباً مفيداً ، بينت فيه الطرق التي يمكن اتخاذها لتشجيع الصناعات المصرية وتوسيع نطاقها . ولكن ما جاء بتقرير اللجنة لم يعمل على تنفيذه ولم يوضع لنا برنامج اقتصادي ثابت نسير عليه .

٢١ - وفي سنة ١٩٢٠ فكر عدد من المصريين في انشاء بنك مصري ، تكون كل عناصره مصرية ، رأس ماله يكتب فيه المصريون وحدهم ، مديروه وموظفوه مصريون . هذا هو بنك مصر الذي يعتبر الخطوة الأولى لاقبال المصريين على المشروعات المالية والتجارية ، وقد زيد رأس ماله الى أن أصبح مليون جنيه . وعمل البنك على انشاء مشاريع صناعية . لها شخصية متميزة عن شخصيته ، وميزانية مستقلة عن ميزانيته . ولكنها تتمتع بمساعدته وتعضيده . وقد عمل البنك على استجلاب ثقة أصحاب الأموال وبلغ عدد الشركات التي أنشأها عشرا هي : مطبعة مصر ، شركة مصر لتجارة وحاج القطن ، شركة مصر للنقل والملاحة ، شركة مصر للسبنا والتشيل ، شركة مصر لغزل القطن ونسجه ، شركة مصر لنسج الصوف ، شركة مصر للكتان ، شركة مصر لصيد الأسماك ، شركة مصر للتصدير ، شركة مصر لصنع الورق ، وأخيراً قام البنك بانشاء شركة للطيران^(١) .

هكذا عمل بنك مصر على اجتذاب المصريين نحو الصناعة ، وعلى تشجيعهم على توظيف رؤوس أموالهم في المشروعات المالية والتجارية فصر مدينة له بتلك الروح الجديدة التي بثها في النفوس .

(١) وقد قررت الحكومة منح شركة الطيران التهربات الآتية (١) إيجار الاراضى اللازمة لها بأجور مخفضة (٢) استخدام الراديو الكهربائى بلامقابل (٣) دفع اعانة لتشجيع تعليم الطيران عن كل فرد من المصريين (٤) اعفاؤها من رسوم الواردات على الطائرات وجميع المواد التي تستوردها للقيام بعمائها (٥) منحها اعانة سنوية .

٢٣ - حالة الصناعة في مصر في الوقت الحاضر - بعد تلك المقدمة الموجزة

عن تاريخ الصناعة في مصر ، يحسن بنا أن ندرس حالتها في الوقت الحاضر .
يدل تعداد السكان الذي حصل في سنة ١٩٢٧ على أن في بلادنا حركة صناعية
قابلة للتوسع . وقد زاد عدد المشتغلين بالصناعة بعد أن كان عددهم يقدر في سنة ١٩١٧
بـ ٩١١ و ٤٢٨ زاد الى ٩٦٩ و ٥٥٥ في سنة ١٩٢٧ أى نسبة الزيادة في عشر سنوات
تبلغ ٢٩,٦ ٪ ، بينما بلغت نسبة زيادة السكان في نفس المدة ١١,٥ ٪ (زاد عدد
السكان من ٩١٨ و ٧٥٠ الى ١٢ و ١٩١٧ الى ٨٦٧ و ٢١٧ الى ١٤) . كذلك زادت نسبة
التعليم الصناعي ، فعدد طلبة المدارس الصناعية زاد من ٢٦٥٠ في سنة ١٩١٧ الى ٦١٧٥
في سنة ١٩٢٨ أى بزيادة ١٣٢ ٪ . في بحر إحدى عشرة سنة .
وهاك بيان أهم الصناعات في مصر :

٢٤ - ١ : صناعة السكر^(١) - هي أكبر الصناعات في مصر . ويبلغ عدد

المشتغلين بها نحو ٢٧ ألف عامل . وتقوم بهذه الصناعة ، شركة مؤسسة برؤوس أموال
أجنبية . وقد كانت حالة الشركة في تدهور مستمر قبل الحرب . وقد أفلست في سنة ١٩٠٥
اذ كانت تنتج بخسارة ، نظراً لمزاومة السكر النمساوى ، الذى كانت تواليه حكومته بالمنح
(primes) . ولأن رئيس مجلس ادارتها كان يغالى في المضاربات . الا أنه عقد صلح بين
الدائنين والشركة . وقامت على أثر ذلك إدارة جديدة اتبعت في ادارتها روح الاقتصاد
والطرق الحديثة في الانتاج .

ولما نشبت الحرب العظمى ، وترتب عليها وقف صناعة السكر في أوروبا ، نظراً
لتخريب بعض الأقاليم التى تزرع البنجر ، نشطت تلك الصناعة وزاد الانتاج المصرى
وبلغ مقدار ما تصدره الى الخارج نحو ٢٠٠.٠٠٠ طن وقد زادت أرباح الشركة في ذلك
الوقت ، نظراً لارتفاع أثمان السكر ووقف حركة التجارة النمساوية في البحر الأبيض . ففترة
الرخاء الحقيقية للشركة هي مدة الحرب .

ولما تأثرت شركة السكر بالأزمة الحالية ، عقدت معها الحكومة اتفاقاً في شهر فبراير

(١) راجع عبد الحكيم الرفاعى ، حماية صناعة السكر في مصر ، مجلة القانون والاقتصاد ،

سنة ١٩٣١ ، على أن تنتج ما يكفي حاجة القطر على أن تفرض الحكومة رسوماً جمركية مرتفعة ، تمنع مزاحمة السكر الأجنبي للسكر المصري . وتمكن الشركة من توزيع حصة عادلة من الأرباح على أسهم رأس المال وحصل التأسيس . ونظير ذلك تشتت الحكومة في الأرباح اذا زادت عن حد معين ويكون لها الرقابة على الشركة .

٢٥ - ٢ : صناعة الغزل والنسيج — كانت هذه الصناعة في عهد محمد

على . ولكنها اندثرت من بعده . وفي سنة ١٨٩٩ أنشئت الشركة الانجليزية المصرية للغزل والنسيج باسكندرية ففرضت الحكومة على منتجاتها رسماً مساوياً للرسم الجرمي ، عاق هذا الرسم الشركة ففصيت . وحل محلها شركة الغزل الأهلية بالاسكندرية . ومن وقت تأسيس الشركة في سنة ١٩٠٢ الى الآن ، أخذت تستعمل الأساليب الحديثة في الصناعة وقد أعفمتها الحكومة من رسم الاتاج .

وقد انشأت حديثاً شركة مصر لغزل ونسيج القطن مصنعا مزوداً بأحدث الآلات . وأتخذت الاجراءات لجعله مستوفياً للشروط الصحية . وبدأ المصنع عمله الا أنه لا بد أن تمضي فترة من الزمن ، حتى ينتج كل المقدار الذي يستطيع انتاجه أذ أن تدريب عدد كاف من العمال يستغرق وقتاً طويلاً .

وتحت اشراف بنك مصر انشئت ايضاً شركة مصر لنسيج الحرير . وقد أتى لها باحدث طراز من الآلات . ولم تجد شركة مصر لنسيج الحرير صعوبة كبيرة في اختيار العمال ، لأن عدداً من أهالي دمياط تدرب على هذه الصناعة منذ زمن طويل .

وانا نرجو أن يكون لصناعة غزل ونسيج القطن نجاح كبير في مصر . ولذلك لتوافر المادة الأولية . فغزل القطن ونسيجه يعود برح اكبر مما لو استوردنا الأقمشة أو الخيوط المغزولة من الخارج أذ توفر مصاريف النقل والجمارك وارباح الوسطاء . ولأن أجر العامل المصري أرخص من اجور العمال في الممالك الاخرى وذلك لكثرة الايدي العاملة في مصر .

على أنه قد يعترض على هذه الصناعة ، بان جو القطر المصري جاف . ولكن يلاحظ أن متوسط درجة الرطوبة في بعض الجهات يكفي للقيام بتلك الصناعة . ومن المتيسر استعمال وسائل الترطيب الصناعي .

وقد عملت الحكومة على تشجيع الشركتين القائمتين بهذه الصناعة (صناعة غزل القطن ونسجه) وذلك بمنحها اعانة قدرها ٣٠ قرشاً عن كل قنطار من القطن يستعمل في صناعة الغزل والنسيج مهما كانت رتبته ووضعت لمنح الاعانة شروطاً أهمها : (١) ن تكون الاعانة على سبيل التجربة لمدة سنة قد تجدد أولاً وتجدد أو تعدل (٢) الا تدفع الاعانة الا بعد تحقق وزارة المالية من المقدار المستملك من القطن (٣) أن تقطع دفع هذه الاعانة متى بلغت الأرباح الممكن توزيعها على رأس المال المدفوع ٥٪ (١).

وقد اتفق أخيراً على تخفيض الاعانة الى ١٠ قروش تدفع الى أن تصل أرباح الشركة الصافية الى ٥ ٪ كذلك منحها الحكومة تسهيلات خاصة في شراء القطن.

ويشتغل في صناعة غزل المنسوجات القطنية نحو ٨٠٠٠ عامل وفي نسج الحرير نحو ٢٠٠٠ عامل.

٢٦ - ٣ : صناعة المباني : صناعة الأدوات اللازمة للبناء على جانب كبير من الأهمية . وأهم لمصانع القائمة بذلك مصنع سورناجا . ويعمل به نحو ١٥٠٠ عامل ويقوم بصنع الطوب ، والبلاط ، والجبس ، والأسمنت .

٢٧ - ٤ : صناعة النعيرين والتنجير : وأهم المعادن التي تشتغل بمصر هي البترول والفوسفات والمنجنيز والمغرة واكسيد الجير وفي الجدول الآتي بيان مقدار المستخرج منها بالطن

السنة	البترول	الفوسفات	المنجنيز	المغرة واكسيد الجير
١٩٢٩	٢٧٢ و ١١٤	٢١٥ و ٣١١	١٩١ و ٤٧٧	١٠١٧
١٩٣٠	٢٨٥ و ٠٨٨	٣١٢ و ٠٨٢	١٢١ و ٢١١	١١٨٤
١٩٣١	٢٩٠ و ٠٠٠	٢٤٢ و ٢٠٥	١٠٠ و ١٩٥	٨٥٠

٢٨ - ٥ : صناعة السجائر : تنتج مصر أنغر السجائر في العالم ، ومعظم المصانع تابع لشركات أجنبية . وقد بلغ المصدر منها في سنة ١٩٢٩ ما قيمته ٣٥٢٠٠٠ جنيه وفي سنة ١٩٣٠

مبلغ ٣١٢ الف جنيه ، وفي سنة ١٩٣١ يقدر الصادر بـ ٢٤٨ الف جنيه ويلاحظ أن الدول الاجنبية تفرض رسوماً عالية على السجائر المصرية وهذا ما يقلل استهلاكها في الخارج .

٢٩ — ٦ : **صناعات القرطم** : من هذه الصناعات صناعة استخراج الزيت . ويوجد بمصر عدة معاصر ، فهو يستخرج من بذور الخس وبذور القطن والسمسم والقرطم .

ومنها صناعة المكرونة وقد تقدمت اخيراً في مصر وبعض مصانعها مملوكة للبصريين . ومنها صناعة البيرة . وتقوم بها شركة « بوموتى والاهرام » ومركزها بالاسكندرية ولها فرع في الجيزة .

٣٠ — **صناعات أخرى** : ولا يتسع المقام هنا لدراسة جميع الصناعات الباقية فنكتفى بالإشارة الى أهمها وهي : صناعة السجاد — وقد أنشأت مصلحة التجارة والصناعة مصنعاً نموذجياً لتعليم وتدريب الفتيات حتى تصبح من الصناعات المنزلية . والصباغة وهي من الصناعات الملحقه بصناعة النسيج . وصناعة المواسير . وصناعة الأحذية وقد تقدمت في المدن الكبرى ولا سيما في دمياط . وصناعة دبغ الجلود وصناعة الاثاث وقد أنشأت مصلحة التجارة والصناعة معرضاً للاثاث يسترشد به الصناع في أعمالهم . والطبع ، والروائح والاسمنت ، والصابون والشمع وضرب الأرز ، والورق إذ يوجد في الاسكندرية مصنع لورق اللف يشغل به نحو ٥٠٠ عامل منهم ٤٥٠ من المصريين . وصناعة الكحول . وصناعة العاج . وصناعة البضائع الجلدية . وصناعة صيد الأسماك . وقد انشأ بنك مصر شركة مصر لمصايد الأسماك لاستغلال مصايد الأسماك وتحويلها الى منتجات صناعية . هذه النهضة الموجزة تدل على أن في مصر حركة صناعية وانها قد تقدمت تقدماً محسوساً وان كان معظم المصانع لا يتبع الطرق الحديثة في الانتاج .

٣١ — **مستقبل الصناعة في مصر** : ان الزراعة عاجزة كما بينا عن الوفاء بمطالب شعب يزداد سكانه ازدياداً مضطرباً ، ويحتاج الى ترقية مستوى المعيشة لافراده . فلا بد اذن من الاهتمام بالصناعة لا سيما وعناصر الانتاج الصناعي متوافرة لدينا فالأيدي العاملة موجودة بكثرة وهي أرخص منها في الممالك الأخرى . وقد ورث العامل المصري شيئاً ه — حضارة مصر

من نشاط اسلافه الأقدمين ، فلا ينقصه الا التعليم الفنى والتقنين وهو ما نرجو أن تزداد
عناية الحكومة به . كذلك الخامات النباتية متوافرة . فصر تنتج اغنى الحاصلات النباتية . كما
أن الطبقات الأرضية فيها كميات وافرة من البترول والمانجنيز والفوسفات الخ . ويمكننا
أن نستخدم القوى المائية المدخرة فى خزان أسوان لتوليد الكهرباء . فلم يبق الا أن يقبل
المصريون على استخدام رؤوس اموالهم فى المشروعات الصناعية .

أما القول بأن عدم وجود الفحم فى مصر يمنعها من أن تكون قطراً صناعياً ، فما
لا شك فيه أن بعض الآلات الحديثة تدار بالبترول ، ووجود آبار البترول فى بلادنا يحل
مشكلة الوقود الى حد ما ، كذلك امكان توليد الكهرباء من خزان اسوان يخفف كثيراً
من مضار عدم وجود الفحم فى بلادنا .

والأزمة العالمية الحاضرة تبين لنا بكل جلاء خطر الاعتماد على محصول واحد . فواجب
الأمة اذن هو السعى فى أن نكون أمة صناعية وأن نعمل على تشجيع مصنوعات بلادنا .
أليس من المحزن أن نرى المصرى يحتقر صناعات بلده ولا يهتم الا بكل ما هو أجنبى ؟
لاحظت ذلك لجنة التجارة والصناعة فقالت فى تقريرها بعبارة بليغة : « واذا اعتبرنا الأمر ،
من حيث شرف الأمة ومجدها فهل يليق بأولئك الذين يطمحون الى اعلاء شأن بلادهم ألا
يحرروا ساكناً وهم يشاهدون مع زوال الصناعة الوطنية زوال تلك الروح الفنية وذلك
الذوق البليغ الذى طالما بالغ أسلافهم فى تهذيبه وارهافه ؟ كان للصناعة المصرية طابع مخصوص
تمتاز بها طوائفها وتقديره فى جميع الآفاق ما أثرها . وقد كانت أخلاق المصريين مؤتلفة
مع أساليب الصناع وأذواقهم موافقة لمنازع أرباب الفنون . فلما تدفقت على البلاد واردات
البضائع الأجنبية فقد القطر مميزاتة الذاتية وعدم استقلاله من الوجهة الفنية والاجتماعية .
ففى أى مظهر من مظاهر الحياة نظرنا سواء فى الأثاث أو فى الملابس أو فى المباني وجدنا
الذوق الأجنبى سائداً متسيطراً وألفيناه متمثلاً فى أوضاع مختلفة كل الاختلاف ومتنافرة
أشد التنافر . كل ذلك والذوق المصرى مطرح فى زاوية الإهمال ، مقضى عليه بالانكار .
وان فى قيام هذه الحال لاعتداء صريحاً على قومية الأمة وتحيفاً مبيئاً لاستقلالها الأدبى
وما أخلاق الأمة وثروتها الفنية الاجزاء من المصالح العامة التى نحن حراس لها وأمناء عليها .

٣٢ . — فالحركة الصناعية فى مصر جديرة بالتشجيع والمساعدة من جانب الحكومة
وذلك بواسطة تدبير المال للصناعات . ويتحقق هذا بإنشاء بنك للقيام بعمليات الائتمان

الصناعي ، واعفاء المشاريع الصناعية من الضرائب بما فيها ضريبة المباني في السنين الأولى من انشائها ، وتخفيض أجور نقل المصنوعات الوطنية ، واعطاء منح للإنتاج ، وفرض رسوم جمركية مرتفعة على الواردات الى الوقت الذي يتسنى فيه للصناعة أن تسير بدون معونة الدولة وانشاء مصانع نموذجية ومعارض ترشد الصناع في أعمالهم ، وتفضيل المصنوعات الوطنية في مناقصات المصالح الحكومية .

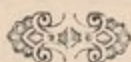
٣٣ . — وقد عمدت الحكومة الى اتباع سياسة تعضيد الحركة الصناعية . وذلك أنها أبدلت النظام الجمركي الموروث عن تركيا بنظام جعلت فيه الرسوم نوعية وراعت في تحديددها حماية الانتاج الزراعي والصناعي بفرض رسوم مرتفعة على الأصناف التي ينتج مثلها في مصر . كذلك عدلت في أجور النقل لمصلحة المنتجات الوطنية ، وقررت تفضيل العروض الوطنية في المناقصات الحكومية ، وقامت مصلحة التجارة والصناعة بانشاء مصنع نموذجي للسجاد ومصبغة نموذجية وهي على وشك أن تنشئ مصنعاً لدبغ الجلود وآخر للزجاج . ولم تهمل الحكومة الجانب الاجتماعي في الحركة الصناعية فانشأت مكتباً للعمال يبحث في طرق معالجة البطالة .

٣٤ . — واذا فكرنا في الصناعات التي يجب أن نبدأ بها في مصر فأرى أن نختار الصناعات التي تتوافر فيها الشروط الآتية (١) أن تكون مادتها الخام موجودة في مصر (٢) ألا تحتاج الى وقود كثير (٣) وأن تكون لهذه المصنوعات سوق في مصر أي يمكن تصريفها داخل البلد . ومتى تقدمنا في تلك الصناعات أمكن أن نخطو خطوات أخرى . وهذه الشروط متحققة في الصناعات الآتية : الزجاج ، الورق ، غزل ونسج الصوف ، الأطعمة المحفوظة ، الطرايش ، العلب الصفيح ومخلفات الحيوانات .

٣٥ . — والخلاصة أن بلداً كمصر تتوافر فيه الأيدي العاملة النشيطة الصابرة ، والمواد الأولية التي تقدمها له الزراعة ، وفي طبقاتها الأرضية كثير من الثروات الكامنة ، ويمكنها موقعها الجغرافي من استيراد المواد التي تحتاج اليها بسهولة لجديرة بأن يكون لها قسط كبير في الحركة الصناعية .

وربما كان الوقت الحاضر مناسباً لتشجيع الصناعات الوطنية ، نظراً لانخفاض قيمة الجنيه المصري تبعاً للجنيه الانجليزي ، إذ يؤدي هذا الانخفاض الى ارتفاع السلع

المستوردة من الممالك التي تتبع قاعدة الذهب فيجد المصريون من مصلحتهم أن يحصلوا على السلع التي تفس الحاجة إليها داخل القطر اذا كان ذلك متيسراً .
واذا كانت البيئة الطبيعية جعلت مصر قطراً زراعياً لخصوبة أرضها ، وانتظام مياهها ، واعتدال مناخها ، فان تضافر سكانها وبذل جهودهم في سبيل رقيها سيوجههم الى الناحية الصناعية ، فيقدمون على توظيف رؤوس أموالهم في المشروعات الصناعية ويقبلون على التعليم الصناعي ، ويجعلون من بلادهم قطراً زراعياً وصناعياً حتى تستطيع أن تتبوأ مكانها اللائق بأقدم مدنية في التاريخ ؟







الاستاذ سلامه موسى

الفروع والصانع

لحضرة الاستاذ سلام موسى

لم يكن العامل المصرى يختلف فى بداية القرن الماضى من العامل الاوربى فى نهاية القرون الوسطى . كما لم تكن الهيئة الاجتماعية المصرية تختلف من الهيئة الاجتماعية الاوربية . فقد كان هناك نظام للصناعات يدعى نظام الجايلد . وكان يقابله فى مصر نظام الطوائف .

والطائفة هى هيئة ينتظم فيها العامل أى الصانع يدخل صيداً ثم يرتقى الى صانع ثم يرتقى بعد ذلك الى معلم . وللطائفة شيخ له حق معاينة العامل وتحصيل الضرائب منها . والوساطة بينها وبين الحكومة .

وهذا النظام عاش فى اوربا ومصر فى القرون الوسطى وهذه القرون قد امتدت الى بداية القرن الماضى فى مصر . وهو نظام يوافق الصناعات اليدوية . وقد مات فى اوربا عقب ظهور الآلات . وكذلك مات فى مصر لهذا السبب نفسه . فقد تززع أيام محمد على الذى أسس مئات المصانع التى افلست فى حياته . فلما جاء سعيد باشا حرم على شيوخ الطوائف معاينة العمال . ثم لما كانت أيام اسماعيل عين موظفون حكوميون لجباية الضرائب من العمال فزال شيخ الطائفة بازالة حقوقه وواجباته .

هذا هو حال الصانع فى المدن . ولا يمكن أن نصفه بأنه كان حالاً سيئاً بل ارجح الظن انه كان الفرد الوحيد الذى يتمتع فى مصر بحقوق يسهر عليها شيخ الطائفة . اما حال العامل فى الريف أى الفلاح فكانت سيئة بل غاية فى السوء لأنه كان يعمل وكأنه يسخر . وكان الفرار من الزراعة مألوفاً . ويجب الا يبرح من أذهاننا أن العلة التى تعلل بها محمد على لشن الحرب على تركيا هى ايواء الجزار لبعض الفلاحين الذين فروا الى عكا . وحالة الفلاح فى ذلك العهد يكفى فى بيانها هذه الكلمة التى تنقلها عن تاريخ مصر للاسكندرى وسفدج . وكانت حالة الفلاح المصرى فى هذه الفترة غاية فى الشقاء والبؤس . اذ أثقل عاتقه محمد على بالضرائب وبتسخيره فى حفر الترع ولجنيدته لجنيداً اجبارياً . وقد أثرت فيه هذه

العوامل تأثيراً سيئاً فكان يهلك من المصريين الآلاف في حفر الترع ونحت تعذيب محصلى الضرائب . ولما ضاقت الحال واشتد الكرب بالناس هاجر خلق كثير من سكان الوجه البحرى إلى بلاد الشام .

ولم يكن الفلاح على هذه الحال من البؤس أيام المماليك ولكنه كان في حالة قريبة منها . ومنذ أيام محمد على إلى الآن نجد تطوراً جديداً أخذ يعكس الحال القديمة . فإن الفلاح كان مدة المماليك ومدة محمد على في أسوأ حال ليس له أى حق معترف به . يفر من الريف ويهجر مصر إلى الشام ، بينما كان للصانع حقوق يسهر عليها شيخ الطائفة .

ولكن هذه الحال أخذت تتطور لمصلحة الفلاح وخاصة بعد الاحتلال الانجليزى . بينما حالة الصانع أخذت تسوء لأن الصناعات الوطنية صارت تموت لغارة المصنوعات الأجنبية عليها . فقد كانت صناعة الغزل والنسيج منتشرة في انحاء البلاد يعيش منها ألوف الصانع . كل منهم صانع ومالك في آن واحد ، له مهارة الصانع وكرامة المالك . ولكن عندما اخترعت آلات الغزل والنسيج في اوربا ركدت هذه الصناعة عندنا واضطر كثير من النساجين أن يبحثوا عن عمل آخر . وهكذا الحال في صناعات أخرى يدوية . فانها ماتت اوركدت لأن المصانع الاوربية قتلتها بما أوردته وما زالت تورده الينا من مصنوعاتنا .

ان ظهور الآلات هو عامل كبير جداً في تطور العمل سواء للصانع او الفلاح . فقد أحالت الآلات صانعنا القديم إلى عامل أجير . وقد بدأت منذ نحو عشرين سنة تنتشر بين الفلاحين وخاصة في التفاتيش أى الضياع الكبيرة التى يملكها كبار الأغنياء . فإن هذه التفاتيش تستعمل الآلات البخارية والكهربائية والموتورية للرى والحراث والحصاد والنقل . وأصبح كثيرون من المتوسطين يستعملون المحراث الموتورى للحراث والرى .

ونشأ من هذه الحالة الجديدة أن تفشت البطالة بين الفلاحين حتى لقد اكتسبت الصناعات في المدن في السنوات العشر التى تقع بين سنتى ١٩١٧ و ١٩٢٧ : ٥٨ : ١٢٧ عامل معظمهم من الريف . والدليل على ذلك أن الزيادة في هذه الصناعات بلغت ٣٠ ٪ . بينما هى لم تبلغ في سكان القطر سوى ١٢ ٪ . فكان الفرق وهو ١٨ ٪ . قد جاء من الريف . ولماذا جاء هؤلاء من الريف ؟

جاءوا لأن التفاتيش الكبيرة استعملت الآلات فاستغنت عن الايدى العاملة . فهجر العمال قراهم إلى حيث يجدون عملاً في المدن . وقد وجدوه في هذه الصناعات

ان عالم العمال في مصر الآن بما فيه من بيئة القرية وبيئة المدينة يجابه مسألتين —
الأولى هي تفشى البطالة.
والثانية هي الفاقة البالغة.

فاما تفشى البطالة فيرجع في الريف والمدن الى استعمال الآلات التي تغني عن الابدى العاملة. ولو كان عندنا صناعات يدوية أو حتى آليه في المدن تبلغ من الكثرة والتقدم حداً تستطيع فيه أن تستوعب العمال العاطلين في الريف لحفت ضائقة البطالة بعض الشيء. ولكن الواقع أن صناعتنا ما تزال قليلة ومتأخرة.

ويجب أن ننبه هنا الى ان البطالة الآن في الريف اشد واطغر بين الفلاحين مما هي بين الصناع والعمال في المدن. فاينما يوجد تفتيش يبلغ زمامه الفأ أو الفين من الأفدنه نجد الى جنبه مئات من الاهالي الفقراء الذين ترى على اجسامهم اعراض الامراض التي تنشأ من القحط. وذلك لانهم لا يعملون في العام كله سوى سبعين أو ثمانين يوماً، وسائر ايامهم يقضونها في بطالة جوع.

ولو كان هناك احصاء يجري مع تبادل الثقة بين العمال والقائمين بالاحصاء بلغ العاطلون على اقل تقدير نحو مليون نفس بين الفلاحين وحدهم. ونحن لا يمكن أن نسمى انفسنا امة متمدنة ما لم تنتظم لنا ادارة تحسن احصاء العاطلين وتعالجهم.

.....

أما الفاقة فهي المسألة الثانية التي يجب علينا جميعاً أن نجابهها. فان العامل العاطل نكبة واضحة وكارثة يعترف بها الجميع. أما العامل الذي يعمل ثم هو مع عمله لا يحصل الا على اسوأ المطعم والمسكن لان اجره قليل فان نكبته غير واضحة. وهي تحتاج الى تعليل وشرح.

واعظم اسباب الفاقة في مصر اننا تقتصر على الزراعة ثم نحاول أن نعيش ونقتنى ادوات الحضارة التي لا يطبق النفقة عليها سوى الامم الصناعية. ولذلك نرهب الفلاح بضرائب باهظة لكي تنفق على ادارة حكومية تعمد حتى في الامم الصناعية غالبية غلاء فاحشاً. فان مرتبات الوزراء وماهيات كبار الموظفين ثم وفرة هؤلاء الموظفين قد أصبحت عبئاً كبيراً على الأمة. ونحن الى الآن امة زراعية فقيرة لا تطيق هذه التكاليف وسبب آخر للفاقة انه يملك نصف الارض الزراعية اقل من ١٣٠٠٠ نفس.

وسبب ثالث أن الضرائب والرسوم المفروضة على الأرض كبيرة جداً .

وسبب رابع أن معظم الارض الزراعية مرهونة للبنوك تؤدي لها اقساط كبيرة كل عام

فهذه الاسباب مجتمعة تجعل الفلاح يعيش في حال اسوأ الحال من الفاقة . ولسنا نستطيع زيادة اجره الا اذا خفضنا الضرائب والرسوم والاقساط المفروضة على الارض أو اذا عمدنا الى نوع من التعاون ينقص التكاليف . ولكن نقص التكاليف يزيد البطالة بين الفلاحين .

وربما يكون الحل الوحيد لمعالجة الفاقة في بلادنا هو زيادة الحركة الصناعية قوة

.....

ولكن علينا مع تشجيع الحركة الصناعية أن نعاون العمال على أن ينهضوا وينظموا انفسهم في نقابات تدافع عن حقوقهم وتكسبهم روح الجماعة وتساند العصبة . كما انه علينا ايضاً أن نقدم لهم معظم الاصلاحات التي نسمح زملائهم في اوربا في تحقيقها .

وكثيراً ما نسمع كلما ذكرت الاصلاحات الاجتماعية التي يتمتع بها العمال في اوربا انها لا تلائم عمالنا أو هي كما قيل منذ اسبوع بمثابة الثوب الكبير للطفل الصغير . والغريب أن هذا الكلام لا يقال عن مرتب ضخيم يتناوله موظف كبير يرى نفسه أن له الحق في أن ينزل على قدم المساواة مع اكبر الموظفين في العالم المتمدن بل يزيد عليهم احياناً كما هو الواقع الآن اذ أن مرتب رئيس الوزارة عندنا اكبر من مرتب رئيس الوزارة البريطانية أو أى وزارة اخرى في العالم

.....

أن كل من يقرأ تاريخ نهضة العمال في اوربا لا يسعه الا أن يرى أن النقابة كانت اساس هذه النهضة . ولهذا يجب أن نحزن طويلاً للمقاومة العنيفة التي يجدها تأليف النقابات عندنا من الحكومة .

وقد مضى على الحركة النقابية في مصر مدة كانت يجب أن تكفى لئلا ترى هذه الحركة الآن قوية منظمة . وكان يكون لنا في نظامها كل خير . فانه لا شيء ادعى الى الاستتباب والبعد عن التزعزع من توجيه نظر العامل الى النظام في العمل وتحقيق المطامع المشروعة عن سبيل النقابة . وليست النقابات في زماننا سوى البديل الذي تقتضيه حاجة العصر

الجديد من تلك الطوائف التي كانت حية نشيطة ايام الصناعات اليدوية . وهي الطوائف التي قلنا انها ماتت في القرن الماضي .

والواقع أن النقابة ألزم اليوم للعامل أو الصانع من الطائفة في القرون الماضية . لأن العامل كان في القرون الماضية مالكا أى يملك مصنعه أما الآن فهو أجير في مصنع كبير يمكن لصاحبه أن يستبد به فينقص أجره أو يزيد ساعات عمله أو يطرده .

.....

وفي مصر حركة نقابية اذا وجدت تشجيعاً ورعاية من الحكومة سارت في ضوء النهار . أما اذا وجدت عداً ومقاومة اضطرت بطبيعتها الحال أن تستحيل الى حركة عصائية تسير في الظلام . وليذكر ولاية الأمور عندنا انه ليس في العالم دولة متمدنة لا يكون بين وزاراتها ووزارة للعمال . بل في ايطاليا وزارة للنقابات .

ويرجع تاريخ الحركة النقابية في مصر الى سنة ١٨٩٩ حين أنشئت نقابة « عمال السجاير المختلطة » أى المؤلفه من عمال مصريين وأجانب . ثم ظهرت سنة ١٩٠٨ نقابة عمال الترام المختلطة . وفي سنة ١٩٠٩ ألف عمر لطفى بك « نقابة عمال الصناعات اليدوية » ثم خمدت الحركة وبقيت في خمودها الى سنة ١٩١٩ . وأخذت الحكومة تكافح هذه الحركة الى أن أوشكت أن تقتلها سنة ١٩٢٣ .

وقد ظهر أول اتحاد للنقابات سنة ١٩٢٣ على أيدي الشيوعيين في الاسكندرية . ثم ظهر اتحاد آخر برئاسة عبد الرحمن فهمى بك سنة ١٩٢٤ والآن ينضوى العمال الى الاتحاد الذى يرأسه عباس حلم . وهذا الاتحاد لا يجد للأسف أى عطف من الحكومة

.....

ليس للعامل المصرى مشاكل تختلف من المشاكل التي يواجهها العمال في العالم كله . فهو انسان مثلهم يؤذيه قلة الأجر وكثرة الجهد ويؤذيه المرض ويتألم في الشيخوخة ، ويجوع ويتألم من الجوع عند البطالة . وله زوجة قد تصير أرملة أو أمأ وفي كلتا الحالتين تحتاج الى معونة . والعمال في الأمم المتمدنة يجدون هذه المعونة ولكن العامل المصرى لا يجدها من حكومته هنا .

١ - ففى بريطانيا قانون خاص بالمسنين اذا بلغ العامل سن السبعين حق له أن ينال معاشاً يبلغ نصف جنيه في الاسبوع . واذا كان أعمر صار له هذا الحق وهو في سن الخمسين

- ٢ - وفي بريطانيا قانون للأرامل يحق به للأرملة من أى سن أن تنال عشرة شلنات كل أسبوع وتأخذ عن ابنها الا كبر ستة شلنات وعن كل ابن آخر ثلاثة شلنات كل اسبوع .
- ٣ - وفيها أيضاً قانون خاص بالمرضى يمكن العامل أو العاملة من التعالج مجاناً .
- ٤ - وفيها أيضاً قانون للبطالة يحق به للعامل العاطل أن ينال مساعدة معينة مدة عطله الى أن يجد عملاً .
- ٥ - وفيها أيضاً مكاتب العمال . وهي ليست للرقابة على العمال بل لمساعدتهم والبحث عن أعمال لهم .
- ٦ - وفيها أيضاً حزب ونقابات منظمة قد اعترفت بها الحكومة لا لأنها حق للعامل بل لأن لها قيمة تهذيبية للامة كلها .
- وكل هذه الاصلاحات يجب أن تكون حقاً للعامل المصرى اذا أردنا أن نتوقى الغلو الذى يؤدى اليه حرمانه مما يتمتع به اخوانه وزملائه فى اوربا .
- اذا أردنا أن نتقى الشيوعية وجب علينا أن نتسامح فى الاشتراكية . واذا أردنا أن نتقى العصابة وجب علينا أن نتسامح فى النقابة . واذا أردنا أن نتقى نتائج الحق الذى يشعر به العامل عندما يعرف أن نصف أرض مصر يملكها أقل من ١٣٠٠٠ نفس وجب علينا أن نرفه عنه باصلاحات اجتماعية مختلفة ولا نتركه هو وأولاده يجوعون وقد نعطله بينما يتمتع رجل واحد بنحو الف أو الفين من الأفدنة .





الاستاذ اسماعيل محمود القباني
استاذ بمعهد التربية

التعليم والاتصال الفكرى

محاضرة الأستاذ - د. عبد الحميد محمد القبانى

لعل كثيرين منكم تولاهم شئ من العجب عندما قرأوا العنوان الذى نشر فى أول الامر لهذه المحاضرة ، وتساءلوا ما العلاقة التى تجمع بين التعليم والمواصلات فتجعل منهما موضوعاً لمحاضرة واحدة ؟ * ولكن الصلة بينهما ليست فى الواقع بعيدة كما يبدو أول وهلة . ومع أن العنوان الحالى للمحاضرة ، وهو « التعليم والاتصال الفكرى » ، أوفى فى التعبير عن الغرض المقصود منها ، لأنه لا يصرف الذهن إلى المواصلات المادية وحدها ، لا يجوز أن ننسى أن المواصلات المادية وسيلة هامة من وسائل الاتصال الفكرى ، فتكون بذلك وسيلة من وسائل التعليم . وقد عرف الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت ميل التعليم بأنه « الثقافة التى يعطيها كل جيل متعمداً للجيل الذى يخلفه كى يؤهله للاحتفاظ بمستوى الرقى الذى وصل هو اليه على الأقل ، ولرفع ذلك المستوى ان أمكن » . فالتعليم ، إذن ، ليس محصوراً بين جدران المدارس ، بل يشمل كل ما من شأنه أن يؤثر فى عقول الأفراد ونفوسهم ، فيوسع مدى أفكارهم وتجاربهم ، ويزيد فهمهم للحياة وغاياتها ، ويسمو بمشاعرهم ووجداناتهم ، ويرسم لهم الامثال العليا لى يعملوا على الوصول اليها . فالمطابع والمنابر ، ودور التمثيل والسينما ، والمتاحف والمعارض ، ووسائل المواصلات التى تسهل انتقال الأفكار هذه كلها عوامل للتربية والتعليم لا تقل قيمتها عن قيمة المدارس . بل انى أذهب الى أبعد من ذلك فأقول ان التعليم المدرسى ليس إلا إعداداً للتعليم الحقيقى الذى نحصل عليه من هذه العوامل الأخرى . فالكلام عن التعليم لا يكون كاملاً إلا إذا شمل جميع هذه النواحي .

* أدلت هذه المحاضرة فى أول الامر بعنوان : « التعليم والمواصلات » .

على أنه يتعذر على في محاضرة واحدة أن أتوسع في الكلام عن كل عامل من هذه العوامل وكل ما أطمع فيه هو أن أرسم لكم صورة اجمالية تبين مقدار تقدم التعليم وحالة النهضة الفكرية في مصر في الوقت الحاضر .

ومع أن مصر كانت في تاريخها الأول مهد الحضارة والمدنية ، وفي القرون الوسطى مناراً للعلم والعرفان ، فإن النهضة التي نشاهدها الآن حديثة العهد جداً ، ولا تكاد تتصل بذلك التاريخ الماضي . فانه لما جاء نابليون بحملته الى مصر في آخر القرن الثامن عشر ، كائن أهلها غارقين في ظلمات عميقة من الجهل وضيق الفكر . كان التعليم فيها مقصوراً على الجامع الأزهر وعدد من الكتاتيب المنشأة من أموال الأوقاف الخيرية . ولم تكن هذه الكتاتيب كثيرة إلا في القاهرة ، كما أنها لم تكن تعلم غير القراءة والكتابة وشيء من القرآن . وأما الأزهر فكان منذ القرن السادس عشر في حالة تأخر وعزلة فكرية . وكان الطلبة الذين يأتون اليه قليلى العدد ، والتعليم فيه لا يخرج عن دراسة ما ألف في القرون الوسطى في علوم اللغة والدين . أما العلوم المدنية الحديثة فلم يكن لها أثر في مصر . ولم تكن فيها صحيفة أو مجلة تقرأ ، ولا مطبعة تطبع فيها الكتب ولم يعرف فيها كاتب نابه ، ولو وجد كاتب كهذا لم يوجد من يقرأ له ، لأن الأهالي كانوا في شغل شاغل عن العلم وأمور الفكر .

واستمر الحال هكذا الى أن استتب الأمر لمحمد علي . فلما شرع هذا الرجل العظيم في تنظيم شؤون البلاد واصلاح ادارتها ، شعر بالحاجة الى رجال متعلمين ، يمكنهم الاضطلاع بالأعمال الفنية في الجيش والمصالح الادارية . فارسل البعث الى أوروبا لدراسة مختلف العلوم والفنون ، وفتح مدارس كثيرة للتعليم على النظام الغربي ، منها خمسون مدرسة ابتدائية وثانوية انشئت في آخر حكمه على نمط مدارس الليسيه بفرنسا . ثم انه عهد الى رجال البعثات بعد عودتهم بترجمة الكتب الدراسية في جميع العلوم ، وطبعت هذه الكتب في المطبعة التي انشأها بيولاقي .

وتقلبت حال التعليم الجديد في عهد الولاة الذين خلفوا محمد علي تبعا لنزعات كل وال وللحالة المالية في عهده . فمنهم من كان يغلق المدارس ويضيق نطاق التعليم . ومنهم من عني به وأنفق عليه بسخاء . ومع أن هذا التعليم كان له أثر محمود في تنوير الازدهان ، وبدأت بوادر النهضة الفكرية تظهر في عهد الخديوي اسماعيل ، فالدافع الحقيقي لفتح

المدارس لم يكن ، الى وقت قريب ، يختلف عن الغرض الذى قصده محمد على منها ، وهو اعداد موظفين للآلة الحكومية .

ومما يجدر بالذكر ان لجنة الفت سنة ١٨٨٠ للنظر فى حالة المدارس وضعت تقريراً عظيم القيمة ، يشتمل على اصلاحات جمّة وعلى برنامج قومى لنشر التعليم ، اقترحت فيه انشاء مكتب من الدرجة الثالثة بكل قرية يبلغ عدد سكانها من الفين الى خمسة آلاف نفس ، يعلم فيه القرآن والديانة والقراءة والكتابة والحساب ؛ ومكتب من الدرجة الثانية فى كل مدينة يبلغ عدد سكانها من خمسة آلاف الى عشرة آلاف نفس ، يعلم فيه ، علاوة على المواد السابقة ، التاريخ ومبادئ التاريخ الطبيعى والهندسة العملية والرسم ؛ ومدرسة ابتدائية على النظام الغربى لكل ١٠٠٠٠٠ نفس من سكان المحافظات وعواصم المديرىات والمدن المهمة . وقد عاقت الحوادث السياسية التى حدثت عقب ذلك تنفيذ هذا البرنامج لسوء الحظ . ولكن لما استقر الامر اخذت الحكومة ، ابتداء من سنة ١٨٨٥ تعمل على تنظيم التعليم ونشره ، مسترشدة بما فى تقرير اللجنة السالفة الذكر من الآراء والمقترحات . ولما شعر المصريون بمزايا التعليم ، عظم اقبالهم عليه ، بعد ان كان التلاميذ فى ايام محمد على يجندون للدارس كما يجند الشبان للخدمة العسكرية . وتمشت الحكومة مع هذا الاقبال بقدر ما سمحت به مواردها المالية . فحولت عدداً كبيراً من الكتاتيب القديمة الى مكاتب من النوع الذى سمته اللجنة مكاتب الدرجة الثالثة ، وفتحت عدة مدارس ابتدائية جديدة ، ووسعت نطاق التعليم الثانوى واصلحت مناهجه ، واصلحت نظم المدارس العليا والفنية التى انشئت فى عهد محمد على واسماعيل ، وفتحت غيرها تدريجاً بحسب حاجة البلاد ، واستمرت على ارسال البعثات العلمية الى اوربا ، وزادت العناية بتعليم البنات الذى بدأ فى عهد اسماعيل ، ولم تكن له تحت اشراف الحكومة حينئذ الا مكاتب معدودة ومدرستان ابتدائيتان ، فزيد عدد هذه المكاتب والمدارس تدريجاً .

وفى أول القرن الحالى اشدت الشعور الوطنى فى الأمة المصرية ، وأخذت الطبقة المتعلبة فيها تشعر بالكرامة القومية ، واختلجت نفوسها بأمانى الحرية والرقى . وقد ادركت أن عظمت أية أمة لا يمكن أن تبنى الا على أساس متين من العلم والثقافة ، ورأت أن جهود الحكومة لا تروى عطش الأمة الى التعليم ، فهبّ الأهالى لتكميل النقص ، وفتحت مئات من المدارس الأهلية تحت اشراف الأفراد أو الجمعيات الخيرية . وتوج

هذا المجهود بإنشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ بأموال اكتب بها الاهالى وبإشراف نفر من كبار المفكرين فى مصر . وبقيت هذه الجامعة مستقلة فى ادارتها الى سنة ١٩٢٣ . وكانت فى خلال هذه المدة منبعاً للثقافة الحرة ، ومركزاً علياً أمه الكثيرون ممن كانوا يطلبون العلم للعلم لا للوظيفة .

ولما رأت الحكومة هذا النشاط العلمى من جانب الأمة ، عملت على مسيرته ، ففتحت مجالس المديرىات فى سنة ١٩٠٩ سلطة فرض ضرائب محلية وصرفها فى نشر التعليم . وقد أنشأت هذه المجالس مدارس ابتدائية فى كثير من المراكز ، واكثر من فتح المكاتب فى القرى ، وتولت اعانة الصالح من المدارس والمكاتب الاهلية ، كما أنشأ بعضها مدارس صناعية وزراعية . فكان لعملها اكبر أثر فى نشر التعليم بين طبقات الشعب .

وهناك صنف من المدارس لا ينبغى أن ننسى فضله ، وهو يشمل المدارس التى أنشأها الجاليات الاوربية والبعثات الدينية الاجنبية فى مصر . وقد فتحت المدارس الاولى منها فى عهد محمد على ، وزاد عددها باطراد الى الوقت الحاضر . وكان الغرض الاصلى منها تعليم أبناء الجاليات الاجنبية التى تنتمى اليها . ولكنها لم تلبث أن اجتذبت اليها عدداً من المصريين قدروا التعليم فيها حق قدره ، لاسيما تعليم البنات الذى لم يكن له مكان يذكر فى المدارس الحكومية الى وقت قريب . وبعض تلك المدارس أنشئ للمصريين خاصة ، كالمعهد الذى نحن فيه الآن ، والذى أدى ، على رغم حداثة ، خدمات جليلة للتعليم والتقدم الاجتماعى فى مصر .

هنا بمحل نشأة التعليم على النظم الغربية . وقد بقى التعليم الدينى القديم الى جانبه ، محتفظاً بنظمه وتقاليده . نعم ان بعض الكتابات حولت الى مكاتب حديثة كما سبق الذكر ، ولكن الكثير منها بقى على حاله ، مكتفياً بتحفيظ القرآن مع تعليم القراءة والكتابة . ومن أتم ذلك كان له أن يلتحق بالازهر أو بغيره من المعاهد الدينية . وقد تقلب الازهر طول القرن التاسع عشر فى أدوار شدة ورخاء ، وتأخر وازدهار ، ولكن التعليم فيه بقى على فطرته . فكان الطالب يدخله « مختاراً بلا قيد ولا شرط ، ويختلف الى من أراد من العلماء لتلقى العلم عنه ، ويبقى فيه ما شاء أن يقيم . واذا آنس من نفسه علماً كافياً وملكمة يتمكن بها من إفادة غيره ، جلس الى التدريس حيث يجد مكاناً خالياً ، وعرض نفسه

على الراغبين من الطلبة . فكانوا اذا وجدوه على علم التفوا حوله وقبلوا يده ، واذا رأوا غير ذلك انصرفوا عنه . وتلك هى شهادة العالمية التى كان يعطاها العلماء ، (١) .

وفى سنة ١٨٧٢ تفرعت عن الازهر مدرسة دار العلوم ، التى قصد منها اعداد المعلمين للمدارس الحديثة ، وأدخلت فيها نظم ودراسات لم يكن للازهر بها عهد ، فكان لها أثر بارز فى النهضة الأدبية فى ذلك الزمن . وفى الوقت نفسه بدأت يد التنظيم تمتد الى الازهر فى شئ من التردد . فوضعت له عدة قوانين على التوالى ، حتى كانت سنة ١٩١١ فأدخلت عليه تغييرات جوهرية إذ قسمت الدراسة فيه الى ثلاث مراحل ، مدة الدراسة بكل منها خمس سنوات ، وأدخلت العلوم الحديثة فى كل مرحلة منها ، ووضع نظام لتعيين المدرسين وقبول الطلبة ، وسنت للانتقال السنوى وللتخرج امتحانات مثل امتحانات المدارس . وقد طبقت هذه القواعد على المعاهد الدينية الأخرى التى كانت موجودة والتى أنشئت بعد ذلك . وباجلطة طلى التعليم الدينى بطلاء النظم المدرسية الحديثة ، ولكن روحه لم تكد تختلف فى الواقع عن الروح القديمة ، الا اذا كان ذلك فى السنين الأخيرة ، إذ أعيد تنظيمه على شكل جديد . ✓

من هذه النظرة السريعة تبين لنا حالة التعليم فى مصر الى سنة ١٩٢٢ ، عندما تسلمته الادارة الوطنية . وهو تعليم مزدوج : فمن ناحية مدارس أولية (مكاتب) يستطيع التلميذ بعدها أن يتم دراسته فى المعاهد الدينية ، أو المدارس الشيعية بالدينية كمدارس المعلمين الأولية ، وكان الى وقت قريب يستطيع أن ينتقل منها الى الورش الصناعية أيضاً . ومن الناحية الأخرى حلقة التعليم الغربى ، وهى تتكون من المدارس الابتدائية ، فالثانوية ، فالعليا ، وتفرع عنها مدارس التعليم الزراعى والصناعى والتجارى المتوسطة .

فلما آل أمر التعليم الى الأيدى المصرية ، تضاعفت العناية بنشره ، واتسع نطاقه مع الرغبة المتزايدة فيه من الأمة . وقد اتخذ فى تحوله اتجاهات معينة ، أهمها الاربعة الآتية :

الاتجاه الأول : محاربة الأمية :

نص الدستور المصرى على جعل التعليم الأولى الزامياً . فتنفيذاً لذلك وضعت وزارة المعارف برنامجاً لتعميم هذا التعليم للبنين والبنات ، بالاشتراك مع مجالس المديريات ، فى

(١) نقلا عن تقرير لجنة اصلاح الازهر المشكدة سنة ١٩١٠ تحت رئاسة المرحوم احمد فتحي زغلول باشا .

مدارس تسمى المدارس الالزامية . والتعليم بهذه المدارس مجاني ، ومدة الدراسة بها ست سنوات ، من السابعة الى الثالثة عشرة . وهي تختلف عن المدارس الالوية (المكاتب) في ان التعليم بها نصف يومى ، فيتعلم البنات فى الصباح ، والبنون بعد الظهر . والغرض من ذلك الاقتصاد فى النفقات ، وتمرين التلاميذ فى النصف الثانى من النهار على الاعمال الزراعية أو الصناعية التى يرغبون فى اعداد أنفسهم لها ، حتى لا يؤدى نشر التعليم الى هجر الفتيان للحقول والمصانع ، وسعيهم وراء الوظائف الكتاتية . ويعنى فى هذه المدارس بتعليم القراءة والكتابة والديانة والحساب ، مع مبادئ بسيطة فى العلوم الاخرى التى تعلم بالمدارس الابتدائية ما عدا اللغة الاجنبية .

والمقرر الآن أن يتم انشاء المدارس اللازمة لجميع أطفال القطر فى سنة ١٩٤٧ . وكان عدد الموجود منها طبقاً لاحصاء التعليم فى سنة ١٩٢٩ ، ١٥٥٧ ، مدرسة تحت ادارة وزارة المعارف ومجالس المديرىات والمجالس المحلية ، يتعلم فيها نحو ٢٠٠٠٠٠ تلميذ وتلميذة . وهذا عدا المكاتب (المدارس الالوية) التى تديرها ، أو تشرف عليها ، الهيئات الرسمية ، وكان عددها يتجاوز ٣١٠٠ مكتب يتعلم بها نحو ٣٢٠٠٠٠ تلميذ وتلميذة ، وعدا المكاتب التى يديرها أفراد أو جمعيات مستقلة .

ورغبة فى سرعة القضاء على الأمية ، أنشأت وزارة المعارف ، بالاشتراك مع مجالس المديرىات كذلك ، أقساماً ليلية لتعليم العمال ، مدة الدراسة بها سنتان . وقد بلغ عدد طلابها فى سنة ١٩٢٩ نحو ٣٠٠٠٠٠ .

الاتجاه الثانى : ترقية التعليم العالى :

زيد عدد المدارس الثانوية زيادة مطردة منذ سنة ١٩٢٢ ، وكثر عدد المتخرجين فيها ، ووجهتهم الطبيعية هى الاستمرار فى الدراسة العالية . وكان بمصر فى تلك السنة سبع مدارس عالية تعد الطلبة للبهن الراقية . ولم يكن بها معهد لنشر الثقافة الحرة ، التى لا يقصد منها الاعداد لمهنة خاصة ، الا الجامعة المصرية . ولكن فتور الهمم ونشوب الحرب العالمية وما جرت به من ضيق أضعفها مواردها المالية ، فلم تعد قادرة على القيام بعملها على وجه مرضى . فرأى القائمون بشؤونها فى سنة ١٩٢٣ تسليمها الى الحكومة . وكانت دراستها محصورة فى المواد الأدبسية ، فأنشأت الحكومة فيها كلية للعلوم ، وضمت اليها مدرستى الطب والحقوق ، وفتحتها للدراسة على نظامها الجديد فى سنة ١٩٢٥ . وقد استقدمت لها

كبار الاساتذة من اوربا ، وعملت على ترقية مستوى التعليم بها ، حتى أصبحت ، على رغم حداثتها ، مركزاً منتجاً للبحث العلمى ، وبدأت تنشر روحها فى الأوساط العلمية المصرية .

وأما المدارس العليا التى لم تلحق بالجامعة فقد عنت وزارة المعارف باصلاحها وترقيتها حتى تكفى لاعداد الشبان المصريين للحلول محل الفنين من الاجانب الذين أخذوا يخرجون من خدمة الحكومة المصرية منذ سنة ١٩٢٣ .

ورغبة فى سد الحاجة العاجلة الى مصريين متعلمين تعليماً راقياً ، توسعت الادارة المصرية فى ارسال البعث العلمية الى بلاد الغرب . ولكنها بدأت تعدل عن هذه السياسة الآن ، اكتفاء بالتعليم الراقى فى الجامعة المصرية والمدارس العليا بعد اصلاحها .

الاتجاه الثالث : العناية بالتعليم الفنى :

كان من نتائج التعليم النظرى ، بنظمه المألوفة عندنا ، اخراج فئة من الشبان يترفعون عن العمل اليدوى ، ويتهيون الكفاح فى ميدان الاشغال الحرة ، ويعلقون كل آمالهم على وظائف الحكومة . وليست هذه الحال مقصورة على مصر ، ولكن خطب مصر بها اكبر من خطب غيرها . وقد ساعدت على ذلك طبيعة النفسية المصرية ، والاحوال التى بدأ فيها التعليم الحديث ، إذ كانت الغرض منه ، كما يبينته ، مجرد إعداد الموظفين . وكان من السهل الى وقت قريب ايجاد الوظائف لكل من يحصل على قسط مناسب من العلم . ولكن الاقبال الشديد عليه أخل بالتوازن ، وزاد المتعلمون زيادة كبيرة على حاجة الوظائف . وهذه حال اذا استمرت فانها تهدد كيان الامة . فللخروج منها رأت وزارة المعارف أن تحول تيار المتعلمين الى التعليم الفنى ، من زراعى وصناعى وتجارى ، لأنه يؤهل الطلبة لأعمال الحياة والكفاح فى سبيل الرزق ، لاسيما وان البلاد قادمة على نهضة صناعية محسوسة . فأنشأت مدارس جديدة لهذه الأنواع من التعليم ، ووسعت المدارس الموجودة منها ، وعدلت من نظمها بما يرفع مستوى التعليم فيها . فأصبح يشترط لدخول الورش الصناعية الحصول على شهادة الدراسة الابتدائية ، وصار التعليم فيها هو التكملة الطبيعية لتعليم التلميذ الذى ليس لديه الاستعداد للاستمرار فى الدراسة النظرية العالية . وهو تعليم عملى ونظرى معاً . ويستطيع الطالب بعدها أن ينتقل الى الاقسام الصناعية الثانوية ، أو مدارس الفنون والصنائع ، وهى تعدده للأعمال

الصناعية الراقية . واذ كان من الناهين فيها ، وحصل على شهادة الدراسة الثانوية قسم أول ، أمكنه دخول مدرسة الهندسة العالية .

ويقابلها في التعليم التجارى مدارس التجارة المتوسطة . وسيكون دخولها بعد أن يتم الطالب القسم الأول من الدراسة الثانوية . ومثلها مدارس الزراعة المتوسطة في التعليم الزراعى . فهذه المدارس الصناعية والتجارية والزراعية يمكن في الواقع اعتبارها أنواعاً خاصة من التعليم الثانوى ، تعد للحياة العملية ، لا للدراسة النظرية العالية . والمبدأ الذى تقوم عليه صحيح ما دام يراعى في انشائها حاجة البلاد الاقتصادية .

الاتجاه الرابع : العناية بتعليم البنات :

ان نسبة المتعلبات من الأناث في مصر كانت في سنة ١٩١٧ أقل من ٢ ٪ . وفى احصاء سنة ١٩٢٧ لم تتجاوز النسبة ٤ ٪ . بينما قد بلغت للذكور نحو ٢٠ ٪ . وهذا كاف للدلالة على تأخر تعليم البنات بالنسبة الى البنين . ومهما تكن الاسباب التى ادت الى هذا التأخر فى الماضى ، فان رأى العام أخذ يشعر منذ زمن أن المرأة هى حجر الزاوية فى التقدم الاجتماعى ، وانه لا رقى لأمة اذا بقيت نساؤها جاهلات . وقد تمشت وزارة المعارف مع هذا الروح فى السنين الأخيرة ، فضاعفت الجهود فى سبيل تعليم البنات . فجميع مدارس التعليم الإلزامى ، كما سبق الذكر ، تعلم البنين والبنات على السواء . وقد زيد عدد مدارس البنات الابتدائية ، وأنشئت لهن ثلاث مدارس ثانوية أميرية فى مصر والاسكندرية ، كما أنشئت مدرسة خاصة لبنات الأعيان فى الجيزة . ويوجد الآن عدد قليل من الطالبات يتعلمن فى كليات الجامعة المصرية ، جنباً الى جنب مع زملائهن من الطلبة .

ولم يقتصر هذا النشاط على وزارة المعارف ، بل كان لجهود مجالس المديرية والجمعيات الأهلية اكبر نصيب فى نشر تعليم البنات ، مما يدل على تيقظ روح البلاد الى اهمية هذا التعليم . ومن الانصاف ان نذكر أن مجالس المديرية انشأت بضع عشرة مدرسة ابتدائية للبنات فى الاقاليم ، فى الوقت الذى لم يكن فيه لوزارة المعارف سوى مدارس قليلة فى مصر والاسكندرية .

هذه أهم الاتجاهات فى سياسة التعليم التى نسير عليها فى الوقت الحاضر . ولتقف الآن قليلاً للنظر فيما نجنه منها .

كثيراً ما يخطر للإنسان ، وهو يشاهد هذا التوسع في التعليم ، أن يسأل : هل التقدم في نوعه كالتقدم الحاصل في كميته ؟ وهل هذه الجهود الكبيرة التي تبذل لتحقيق الغرض المقصود منها ؟ إن قيمة التعليم تتوقف على أثره في الحياة القومية . ونحن أمة ناهضة ، تريد أن تشق طريقها الى مستقبل زاهر يليق بها وبعظمتها الماضية . وهي خارجة من فترة خمول وضعة ، خلفت في حياتها من وجوه النقص والضعف الشيء الكثير . فهل ساعد التعليم على علاج هذه العيوب ؟ هل رفع مستوى ثقافتنا ، وهذب نفوسنا ، وجعل حياتنا أقرب الى الكمال مما كانت ؟

ان الناظر الى المجتمع المصرى الآن يرى نهضة فكرية ، قد تكون محصورة في فئات خاصة ، ولكنها نهضة حقيقية بارزة . فتعليم اللغات الأجنبية قد أوصل شباب مصر الى آداب تلك اللغات وعلومها ، وبدأ يطلعهم على أخلاق الأمم المختلفة ، وطرق تفكيرها ، ونظم حياتها ، والمقاييس التي تقيس بها القيم العقلية والأدبية . وتنتج من هذا تنوير الأذهان ، وتوسيع الآفاق العقلية ، وتغيير نظرة الطبقات المتعلمة الى الحياة . وقد ساعدت على ذلك في السنين الأخيرة سهولة المواصلات وكثرة الأسفار . فالخطوط البحرية والجوية قربت المسافات بين مصر والخارج ، والتلغراف السلكي واللاسلكي هداما الحواجز بين الأمم . فأصبحنا نقرأ في المساء أخبار ما يحدث في أقصى انحاء العالم في الصباح ، ونستطيع ، ونحن جلوس في بيوتنا ، أن نصغى الى محاضرة تلقى في لندن أو باريس ، ونسمع موسيقى الأوبرا في فينا أو نابولي . ولا يكاد يصدر كتاب ذو قيمة في أى قطر من الأقطار ، الا ويكون بين يدي القارئ المصرى في بضعة أيام ، أو اسابيع قليلة . ولا تكاد تظهر قطعة تمثيلية أو أدبية رائعة ، الا ونقرأ عنها في صحفنا ، وقد نستطيع مشاهدتها على مسارحنا ، ودور السينما عندنا . كل هذه المؤثرات تعمل دائبة على ايقاظنا ، وتغيير عقليتنا .

ثم ان نشر القراءة والكتابة بين طبقات الشعب سهل توصيل الروح الجديد اليهم عن طريق الصحف والمجلات الكثيرة . فأخرجهم الى حردما من عزلتهم ، وصرت الآن تجد بين العمال المصريين من يحدثك عن الأفكار الاجتماعية الجديدة ، ويشعر بما له من حقوق ، وما عليه من واجبات ، ويدرك من الحياة شيئاً آخر غير اللقمة يسد بها ريقه ، والمعيشة الفطرية التي درج عليها من قديم الزمان .

كل هذا خير . ولكن المتأمل لا يستطيع أن يكتم شعوره بان المدارس لم تعمل كل

ما يمكنها عمله لمساعدة التطور الاجتماعى عندنا . ان الذى نشعر بنقصه فينا اكثر من كل شىء آخر ليس هو العلم ، وانما هو الوجدان الحى ، والمثل العليا الخلقية . ان كثيرين من شباننا الذين طلبوا العلم فى الجامعات الأجنبية بزوا زملائهم الأجانب فى التحصيل ، ولكنهم لما عادوا إلينا لم يستطيعوا النهوض بالأعمال التى كان يقوم بها هؤلاء . وكثير من النظم التى اخذناها عن الغربيين تحطمت فى أيدينا ، مع أنها ناجحة عندهم تؤتى أحسن الثمرات . فلماذا كل هذا ؟ النقص فى معلوماتنا ؟ كلا أيها السادة ! ليس هذا هو السبب الحقيقى . لكن صريحين ، فليس من مصلحتنا أن ندارى عيوبنا . أن الذى يميز الأجنبى على المصرى ليس علمه فقط ، بل شعوره بالواجب والمسؤولية ، وغيرته على عمله ، وإخلاصه للمصلحة العامة ، وتغلبه على شهوات النفس ، وشجاعته الأدبية ، وصلابته فيما يعتقد أنه الحق ، وأمثال ذلك من الصفات التى تبنى عليها عظمة الأمم . فإذا فعلت مدارسنا لغرس هذه الصفات فى نفوسنا ؟ لا أقول أنها لم تعمل شيئاً ، لانه لا يمكنها الا تعمل شيئاً ففى اما أن تساعد على تنمية هذه الصفات فى نفوس تلاميذها ، واما أن تعوق نموها . وانى لأخشى شديد الخشية أن مدارسنا بنظمها الحالية تعوق هذا النمو .

وأهم سبب لذلك فى اعتقادى هو أننا اندفعنا فى نشر التعليم من غير أن نفكر التفكير الكافى فى الغاية التى نقصدها منه . فكل من له أدنى اتصال بمدارسنا اليوم يشعر أنه ليس لها من غاية الا حشو أذهان التلاميذ بمختلف أصناف المعلومات . تشهد بذلك مناهج الدراسة المثقلة بالمواد والموضوعات ، والتى تذبل عقول التلاميذ قبل أن تتمكن من استيعابها ، وتشهد بذلك العناية الخارقة للعادة بالامتحانات من كل صوب ، وتسابق المدارس تسابقاً هستيرياً للحصول على النتائج فيها بكل وسيلة مهما تكن هادمة لأغراض التربية الصحيحة . فإذا بعد ؟ ما الذى يكسبه التلاميذ من تكديس المعلومات فى عقولهم المسكينة ؟ ما أثر ذلك فى أخلاقهم ، وفى مستقبل حياتهم ؟

قد يقال ان تعليم العلم هو وظيفة المدرسة الأساسية ، وأنها لا تستطيع العناية بالأخلاق إلا عرضاً . ويلاحظ فى الجواب عن ذلك أن تعليم العلم شىء غير تكديس المعلومات ، وسأبين بعد حين أن تعليم العلم لا يمكن فصله عن تربية الخلق والوجدان . على أن القول بأن وظيفة المدرسة هى تعليم العلم قول عتيق ، انحدر إلينا من القرون الوسطى ، حينما كان التعليم مقصوراً على فئة صغيرة تريد الانقطاع للعلم . أما وقد أخذت الأمم بمبدل تعميم

التعليم ، فإن وظيفة المدرسة قد تغيرت ، لأننا لا نريد أن نحول الأمة كلها الى علماء . قد ذكرت لكم انه كان من نتائج التعليم في مصر تخريج طلاب وظائف ، لا يصلحون للعمل المنتج ، أو لا يرغبون فيه ، وذكرت أن هذه من أهم مشاكل التعليم عندنا ولا نزال نتلمس لها الحل . وعندى أن الحل الصحيح يجب أن يقوم على مبدأ أن الغرض من المدارس ليس تعليم العلم ، بل تعليم الفرد كيف يحيا حياة سامية نافعة . وإن من أهم ما كشفه علم النفس الحديث ان القوة الدافعة في حياة الانسان ليست هي الأفكار المجردة ، بل النزعات الوجدانية . فالفكرة لا تتحول إلى قوة في حياة المرء ، إلا اذا أحاطت بها عاطفة . لذلك فإن المدارس الحديثة لا تجعل غايتها تلقين العلم ، بل تربية الشخصية . وليس معنى هذا أن المدارس لا تعلم العلوم ، وانما معناه أنها لا تجعل العلوم غايتها . الغاية التي يجب أن ترمى اليها هي بناء الخلق ، وتربية الوجدان . والعلوم التي تعلمها انما هي وسيلة من الوسائل التي تستعملها لتحقيق هذه الغاية . فمن المهم أن يكون تعليمها محققاً للغاية التي تنشد لها ، لا هادماً لها . والعيب الذي يؤخذ على مدارسنا هو أنها توجه كل عنايتها للوسيلة ، وتضحى في سبيلها بالغاية .

قلت منذ قليل ان المدارس إذا لم تعمل على غرس الصفات الخلقية الطيبة في النفوس ، فانها تغرس ضدها لا محالة . لأن هذه المسألة ليس فيها موقف حياد . فالخلق ، كما يعرفه الكثيرون ، هو عادة الارادة . و ارادة التليذ تعمل في كل لحظة من لحظات حياته ، وفي كل حركة يأتيا في المدرسة . تعمل وقت اصغائه للدرس ، وتعمل وقت لعبه في ساحة المدرسة ، وتتأثر بسلوك أساتذته وزملائه نحوه . وبكل ما يقع تحت نظره . وكل أثر من هذه الآثار هو حجر يوضع في بناء خلقه سواء الى الخير أم الى الشر . تصورا التليذ يتلقى درساً أياً كان ، لايهمنا ان كان في الجغرافيا . أو الرياضة ، أو التجارة ، أو امساك الدفاتر . قد يخيل اليانا ان كل ما يعيننا هو تحصيله لموضوع الدرس . ولكن الحقيقة ان التليذ في أثناء التحصيل تنغرس في نفسه ، أردنا أو لم نرد ، اتجاهات كثيرة ، لها أبعد الأثر في حياته . فهو قد يحصل موضوع الدرس وفي الوقت نفسه يتعود البحث والتفكير والنقد والابتكار ، وقد يحصل موضوع الدرس وهو مجرد آلة مستقبلية لا تفكر لنفسها ، ولا تهتم بعمل ، بل تبقى منتظرة ان توجه وتقاد . قد يحصل موضوع الدرس على شكل يحبه اليه ويولد في نفسه الغيرة عليه ، وقد يحصله على شكل يبغضه اليه ويجعله يفر من العمل . قد

يحصل موضوع الدرس ، ويكون موقف معلمه منه بما يشعره بأن المدرسة انما تعمل لنفعه ، وأن النظام والقانون انما وجدا لمصلحة الجميع ، فتتربى في نفسه الغيرة على النظام والقانون والولاء للجموعة التي ينتمى اليها ، وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فيشعر أن المعلم حاكم مستبد يرغبه على القيام بما لا يريده ، وأن المدرسة خصم له يعمل على معارضة ميوله ، وأن القانون والنظام ليسا إلا اداة للظلم والاستبداد ، فيثور على كل هذا ، وتنمو في نفسه الانانية والفردية الممقوتة ، التي لاتعرف قانوناً إلا مصلحتها ولذتها . وعلى هذا النمط قد يكون سلوك المعلم بوجه عام مما يوحى الى التليذ بالمبادئ الخلقية الراقية ، ويبحث في نفسه المثل العليا السامية ، وقد يكون على النقيض من ذلك مما يربى فيه الاستهتار ، والنفاق ، ودناءة النفس . والذي يجب أن نذكره دائماً هو أن موضوع الدرس : من جغرافية ، أو رياضة ، أو طبيعة ، أو غير ذلك ، وان يكن هو كل شيء بالنسبة الى الامتحان ، شيء تافه في الواقع بالنسبة الى حياة التليذ . وأما المهم ، الذي يجعل من التليذ عضواً نافعا في المجتمع أو عالة عليه ، فهو هذه النزعات النفسية . التي تتربى فيه عرضاً في أثناء الدرس ، والتي لايعنى أحد بامتحانها والبحث عنها . فقيمة التعلم اذن ، ليست في كثرة المعلومات التي نلقنها للتليذ ، بل في استجابة نفس التليذ لهذه المعلومات . والتعليم الحديث ليس تعليم معارف تحصل ، بل تعلم تجارب تكتسب . وهذه التجارب ، كما تكتسب في تحصيل العلوم المعروفة ، تكتسب في كثير من وجوه النشاط الأخرى . فلنخضع عنا اذاً ارداء الأكاديمية الجامدة ونير الامتحانات الثقيل ، ولنعدل عن النظم الآلية التي تغلب على التعليم عندنا ، ولنساير الترية الحديثة فندخل في مدارسنا جو النشاط والحرية المنظمة ، التي تسمح للتليذ بأن يريد ويعمل ، ويكتسب من تجارب الحياة ما يبنى به شخصيته . ولنذكر ان كل معلومات الأولين والآخرين لا يمكن أن تخطو بالمجتمع المصري خطوة واحدة في طريق الرقي ، اذا كانت تخرج لنا شخصيات محطمة ذابلة .

ويجب ألا نقصر هذا النوع الحيوى من التعليم على أبناء الخاصة الذين تمكنهم مواردهم من دخول المدارس الابتدائية والثانوية ، بل علينا أن نوسع دائرته حتى يشمل أبناء الشعب ، وهم الغالبية الكبرى من الأطفال . ان كل ما أعدناه لأبناء العامة هو التعليم الالزامى . ومهما نقل عن المواد التي تعلم فيه ، فان عمله في الحقيقة لا يخرج عن محو الأمية . وهذا غرض جليل في حد ذاته ، ولكن واجب الدولة لا يقف عنده اذ ان أول مبادئ

الديمقراطية التي نشدها هو ضرورة تربية كل فرد من أفراد الأمة تربية اجتماعية تعده لأن يكون مواطناً صالحاً - وهذا هو واجب الدولة نحو نفسها - ثم إتاحة الفرصة لمن يؤهله استعداداً للوصول إلى أرقى درجات التعليم، بصرف النظر عن ثروة أهله ومركزهم الاجتماعي - وهذا هو واجبها نحو أفراد شعبها. فإين كل ذلك في نظامنا؟ أين التربية الاجتماعية في مدارسنا الإلزامية؟ وماذا أعددتنا لمن يتمم التعليم بها، اذا ظهرت فيه علامات النبوغ؟ ان الطريق الوحيد المفتوح أمامه هو طريق التعليم الديني أو شبه الديني. وهذا باب واحد من أبواب التعليم العالي. فلماذا نقفل في وجه أبناء الشعب بقية الأبواب؟ هبوا تليداً في المدارس الإلزامية، تجلت فيه، وهو في الحادية أو الثانية عشرة من عمره، النباهة وحسن الاستعداد. ولكن ميله واستعداده لا يتجهان به نحو التعليم الديني، فكيف يمكنه متابعة الدراسة الراقية، والمدارس الابتدائية والثانوية مغلقة في وجهه، لبعد الشقة بين مناهجها ومناهج التعليم الإلزامي؟ حتى الورش الصناعية، التي كانت المنفذ الطبيعي لخريجي المدارس الأولية، أقفلناها في وجوههم، وأصبحنا نشترط لدخولها الشهادة الابتدائية! فإذا لم نمكن أبناء العامة من التعليم الذي يعدهم لان يكونوا صناعاً حاذقين، فما الذي نمكنهم منه؟

إن في وزارة المعارف الآن لجنة تنظر في تنظيم التعليم الإلزامي وربطه بأنواع التعليم الأخرى. ونحن نتقدم اليها بالرجاء ألا تقتصر على ربطه بالتعليم الديني، بل تنظر في تسهيل انتقال التلاميذ من المدارس الإلزامية إلى المدارس الابتدائية والثانوية في سن الحادية أو الثانية عشرة، اذا وجد عندهم الاستعداد الذي يؤهلهم للدراسة الراقية.

وقد يتطلب هذا ترقية التعليم الإلزامي عن حالته الحاضرة. وهذه الترقية تتطلب المال، ومن الصعب أن يتكلم الانسان عن مشروع يتطلب المال في إبان الأزمة الحاضرة. ولكن مما يجدر ذكره أن مكتب التربية الدولي بخيف عمل في العام الماضي إحصاء بما تنفقه كل دولة على التعليم فكانت مصر من البلاد القليلة التي صرفت عليه بالنسبة إلى ميزانيتها. إذ لو أخذنا البلاد القريبة منا في الميزانية، نجد أن أيرلندا تخصص ١٥٪ من ميزانيتها للتعليم، وهولاندا ٢٣٪، والمجر ١٦٪، ورومانيا ١٢٪، والسويد ١٩٪، وشيلي ١٨٪، والمكسيك ١١٪، بينما مصر لا تنفق على التعليم إلا ٨.٥٪، من ميزانيتها. وفوق هذا فان التعليم الإلزامي لا يصيب من هذه النسبة النصيب الذي يستحقه بالقياس

على أنواع التعليم الأخرى . وقد دلت التجارب على أنه من الخطر على رقي الأمة الاجتماعية أن نباعد بين خاصتها وعامتها في التعليم الى الحد الذي نراه الآن . اذ تصبح كالمارد ، رأسه في السماء ، ورجلاه في التراب ، فتضعف الصلة بين الرأس المدبر والأطراف المنفذة .

على أنه مهما تبلغ حال المدارس الإلزامية أو غير الإلزامية من الرقي ، فإن التعليم لا ينبغي أن ينقطع عند مغادرة التلميذ للمدرسة . بل إن قيمته لتتوقف على مقدار ارتفاع التلميذ بوسائل التعليم الأخرى التي يعدها له المجتمع . ذلك أن المدارس ، كما ذكرت في أول المحاضرة ، لا تعلم وإنما تعد للتعلم . هي تزود التلميذ بأداة التعلم ، فإذا لم يستعمل هذه الأداة في مستقبل حياته ، لم تلبث أن يعلوها الصدأ ، ويذهب بها البلى ، ويضيع كل جهد بذل معه عبثاً . فما الذي أعده المجتمع المصري لتغذية روح الفتى والفتاة بعد تركهما المدرسة ؟ إن أقوى عدة لنشر الأفكار يعرفها العالم الى الآن هي المطابع . ولكن قوة المطابع في مصر يحدها أمران : الأول عجزها عن الوصول الى السواد الأعظم من الأمة لجهله القراءة ، والثاني أن التأليف في مصر لا يزال في مهده ، ويندر فيه الجيد الذي يجمع بين الفائدة واللذة . ولست أرمى بهذا الى الكتب العلمية الفنية ، فقد ظهرت في هذه الناحية مؤلفات كبيرة الفائدة . ولكن الدائرة التي تؤثر فيها هذه المؤلفات دائرة ضيقة . أما الذي يستطيع النفاذ الى روح الصانع في مصنعه ، والفلاح في قريته ، والفتاة الساذجة في بيتها ، فيوحد بين هذه الأرواح ، ويساعد على تكوين شخصية قومية وعقلية مصرية ، تشترك في نظرتها الى الحياة ، فهو الأدب القومي . ولا أظنني مخطئاً إذا قلت أن هذا الأدب القومي ، الذي يستمد وحيه من الحياة المصرية وتجاربها ، والذي يعبر عن النفس المصرية ومشاعرها ، لم يتكون بعد ، وإن كنا نلمح شرارة منه من آن الى آخر في وسط الظلام ، مما يبشر بأننا على أبواب عصر جديد .

وهناك نوع آخر من المؤلفات أخذ ينتشر في البلاد الغربية ، وهو سلاسل الكتب الشعبية المبسطة في الموضوعات العلمية والاجتماعية . وقد ساعدت كثيراً على ترقية الحياة الفكرية في تلك البلاد ، وأساعت منتجات الفكر الحديث لأذهان الجماهير ، فقربت بذلك البعد بين رأس المارد ورجليه . ونحن في مصر أشد ما نكون حاجة الى هذا الصنف من المؤلفات . ففعل المؤلفين وهيئات النشر توليه القدر الكافي من عنايتها ، فتؤدى للجيش الناشئ أجل الخدمات .

واخراج الكتب لا يؤتى الثمرة المرجوة منه إلا إذا كان من السهل وصولها الى سواد القراء . ولا يتأتى هذا إلا بالكثارة من دور الكتب العامة . وقد عرفت الأمم الراقية لهذه الدور فضلها ، فلم تبخل عليها بالمال والجهد . وأضرب لكم مثلاً بانجلترا ، فان سلطاتها المحلية تعمل ، وفقاً لقانون صدر في سنة ١٩١٩ ، على إيجاد مكتبة في كل قرية مهما صغرت ، وجعلها مركزاً للبطالة والمحاضرات والأبحاث ، قائماً بذاته أو متصلاً بالمدرسة الأولية المحلية . ونحن بعيدون عن هذا في مصر ، ولا يمكننا أن نصل اليه في يوم وليلة . ولكنه لا يليق بأمة تنشد الرقي والثقافة ألا يكون بها من المكتبات العامة إلا ما يعد على الأصابع في القاهرة والاسكندرية والقليل من عواصم المديرية ، واكثرها خامل لا ينفع به . ويستعملون في كثير من البلدان مكتبات متنقلة ، تمر في بلاد الريف في مواعيد معينة لاعارة الكتب . وهذه طريقة جديدة بالتجربة في مراكزنا الصغرى .

على أن المطابع في مصر ، اذا كان أحد جناحيها ، وهو الكتب ، مقصوداً ، فان جناحها الآخر ، وهو الصحافة ، قد نما وصار قوة يعتد بها . إذ إن نشر التعليم الأولي ، وقيام الحركة الوطنية التي نبض لها قلب كل مصرى ، أديا الى زيادة انتشار الصحف والمجلات ، حتى أصبحت صحفنا اليومية الكبرى تعد قراءها بعشرات الألوف . وقد قال عنا اللورد كرومر يوماً من الأيام ، أننا أمة تستهويها الكلمة المطبوعة . وهو قول حق ، وليس فيه ما يمسنا ، لأنه يصدق على الجماهير في سائر الأمم . إذ من المعروف عن بلاد اللورد كرومر نفسها أن الرجل العادى فيها ليس له رأى خاص به في المسائل العامة ، بل رأيه هو رأى الصحيفة التي يقرؤها . وان دل هذا على شيء ، فهو يدل على ما للصحافة من قوة في تكوين الرأى العام ، ونشر الأفكار والمعتقدات . وهذه القوة أداة فعالة للنهوض الاجتماعى إذا أحسن استعمالها . وبما يوجب الاسف أن الاحوال السياسية التي عملت على انتشار الصحف ، أضعفت أثرها من ناحية أخرى . إذ جعلت الصحافة اليومية توجه جل عنايتها الى المباحث السياسية والتطاحن الحزبى . ولكن مهمة الصحافة الحديثة لا تقتصر على ذلك ، بل يجب أن تكون مثقفاً عاماً للقارىء ، يجد فيه ما يشبع كل ميوله الروحية . وسيزيد أثر الصحافة المصرية في المستقبل بقدر عنايتها بالنواحي الأدبية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ، واستخدامها للكتاب المتمكنين من هذه النواحي .

إن المقام لا يتسع للاطالة في الكلام عن القيمة التعليمية للتمثيل ، والسينما ، والراديو

وغير ذلك من وسائل الاتصال الحديثة . ويكفى أن أقول إن أثرها بعيد المدى ، وإن مصر لا تزال في أول عهدها بها ، وامامها مجال واسع لترقيتها والاستفادة منها في تنبيه طبقات الشعب .

ولكنى لا يسعنى أن أختم قبل أن أشير إلى وسيلة من أهم وسائل نشر الافكار وبث المثل العليا في بلاد كبلادنا لا تزال تغلب عليها الأمية : وهذه الوسيلة هي الاجتماعات المنظمة . وهى تتخذ أشكالا كثيرة ، من محاضرات عامة ، وحلقات للبحث والدراسة ، وهيئات للعمل الاجتماعى ، وجماعات تتعاون على صرف أوقات الفراغ في وجوه تسمو بالنفس ، وغير ذلك مما لا حصر له . وقد بدأت مثل هذه الاجتماعات تظهر في حياتنا ، ولكنها لا تزال محصورة في العواصم الكبرى ، وفي الطبقات المفكرة . والمهم أن تمتد هذه الجهود الى طبقات الشعب ، فهم عماد الأمة . والقيام بهذه الجهود فرض على كل من كانت لديه القدرة عليها . فانا لانجد في بلاد العالم التى سبقتنا فى المدنية أمة تعتمد فى التعليم والنهوض الاجتماعى على جهود الهيئات الرسمية وحدها ، بل ان الناس فى تلك البلاد يشعرون أن خدمة المجتمع امر واجب على كل فرد . وأى خدمة أجل من العمل على تحسين حال الذين لم تسعدهم احوال الحياة بما أسعدتنا به من نعم التعليم والثقافة ؟

ويسرنى أن أذكر انه أتيج لى فى الأسبوع الماضى أن ارى مثل هذا العمل فى مصر يقوم به جماعة متواضعة من الشبان تألفت تحت اسم « الرواد » ، وفتحت محلة للفتيان من العمال والطبقات الفقيرة بحى السيدة زينب ، يأوون اليها فى كل مساء ، فيتعلمون شيئا من العلوم ، وتلقى عليهم محاضرات بسيطة فى موضوعات صحية واجتماعية تفيدهم ، وتهيا لهم بعض وسائل الحياة الاجتماعية والرياضية التى تهذب نفوسهم .

ان مثل هذا العمل يجب أن يعم كل ناحية بالقطر المصرى . ولو تهيأت الأسباب للمدارس الأولية لكانت أصلح نواة له فى القرى . فالرابطة التى تربط التلاميذ بمدارسهم يجب أن تبقى بعد مغادرتهم لها . ومثل هذه المدارس فى البلاد الأخرى ترسل نورها حتى يعم حياة القرية التى تقوم فيها . أما واحوال مدارسنا الأولية كما نعرفها ، فأنى أوجه النداء الى شباب مصر ، الذى يهيمه بناء مستقبلها ، بأن خير ما تعمله لمصر هو أن تضجى بشئ من وقتك وجهدك ومالك فى العمل على سد النقص فى حياة فلاح مصر !

وفى هذا فليتسابق المتسابقون !



حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا
وكيل وزارة الداخلية للشؤون الصحية

حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا.

من أراد البحث في حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر وجب عليه أن يستعرض الحالة التي كانت عليها البلاد في العصور الغابرة حتى يمكنه أن يزن الحالة الحاضرة بالمقابلة بين العهدين ويقدر النشاط الصحي الحالى التقدير الصحيح مع مراعاة العوائد القومية والأمراض المحلية ودرجة المدنية في العصور المختلفة كما لا يغيب عن البال أن تقدم الصحة العامة لا يقاس بالنتائج التي أدى إليها هذا التقدم لحسب بل بمقدار الأعمال التي كان من شأنها الوصول الى هذا القدر من التقدم .

ان تقدم الصحة العامة يمشى جنباً الى جنب مع تقدم الطب ومع انتشار التعليم بين أفراد الأمة ورقها في نواحي حياتها المختلفة لأن ارتفاع مستوى العناية بالحالة الصحية العامة لم يأت في الواقع الا من طريق تطبيق ما بلغته فروع الطب من النماء في الأزمنة المختلفة ولهذا السبب استنسب رجال الصحة أن يطلقوا على فرع الطب الذي يعنى بالصحة العامة اسم « علم الطب الوقائي » لأنه لا يقتصر على العناية بالملايسات التي تحيط بالانسان فقط كما يتبادر الى الفهم من تعريف مداه بعبارة (الصحة العامة) ولا بالمظاهر الاكلينيكية للمرض ووسائل الوقاية منه بل يشمل سبر غور التطورات التي تحدثها الاصابة بالمرض في جسم الانسان ومعرفة مدى قوة الدفاع الكامنة في خلايا وسوائل الجسم لمقاومة الامراض أى معرفة القوة الحقيقية للجيش المدافع عن الانسان. فهذا الفرع يجمع كل جهود فروع الطب التي عرفت منذ خلق الانسان حتى الآن ويوجهها الى غاية واحدة في دائرة مداه الواسعة .

أما الغايات التي يرمى اليها دائماً مهما اختلفت الوسائل وتنوعت الطرائق فهي : —
١ — تقوية بنية الفرد وبذلك تزداد قوة مقاومته للأمراض وتعلو تبعاً لها كفايته لتأدية العمل المنتج وهي بيت القصيد .

٢ - الوقاية من الأمراض باستئصال شأفة أسبابها أو قمعها ومنع انتشارها بامتلاك ناصيتها .

٣ - اطالة العمر وتقليل الوفيات .

وكل من تتبع تاريخ الطب الوقائي أو تاريخ الطب بصفة عامة رأى أن كل الابحاث والملاحظات لا تتجه الى غير هذه الغايات سواء أكان السير اليها بطيئاً كما حصل في العصور السالفة أم سريعاً كما شاهدنا في القرنين الأخيرين وسواء انحصرت الابحاث في الوصول الى غاية واحدة من هذه الغايات الثلاث أم الى اثنتين منها أم شملتها كلها كما هو الحاصل في عصرنا الحاضر . ولقد قامت كل أمة من الأمم القديمة والحديثة بنصيب في تقدم الصحة العامة وكان كل نصر جديد في تفهم طبيعة الأمراض يمهّد السبيل الى نصر آخر يليه بل الى فتح جديد حتى بلغنا التقدم الحالى وتستمر الفتح بعون الله فتزداد المعرفة لأسرار الكون بالكشف عن حقائقها وفتح مغاليقها حتى اننى لا أغالى إذا قلت أنه لو بعث أحدنا بعد جيل أو اثنين لادّهبه ما ستكون عليه الحالة الصحية العامة من التقدم واذا أعاد الى مخيلته صورة ما كان يظنه المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه هذه الحالة في عصرنا الحاضر لرآها لدى المقابلة بما سيكون عليه العالم—رسماً فجاً من البساطة بمكان. ولكن أحفادنا لا يستطيعون على أى حال أن ينكروا أنه لولا ما جادت به قرائح أجدادهم في عهدنا الحاضر وفي عصور أجدادنا لما تقدم العالم قيد خطوة بل لفنيت الدنيا ومن عليها بما انتابها من الشرور الاجتماعية وجوائح الأمراض القتالة لأنه لم يخل عصر من العصور من وباء فتاك أو غصبة تكشر فيها الطبيعة عن نايها ويبدو أثرها بأحد مظاهر التدمير والتخريب كفيضان الأنهار وثوران البراكين أو زلزلة الأرض ولا عاصم يومئذ للناس إلا بمقاومة طغيان الطبيعة بيد العلم والعرفان .

ومصر كانت أولى الأمم التى عملت على رفع مستوى الطب والصحة العامة فهى أقدم أمم الأرض حضارة وعلماً ومنبت أول انتصار ناله الانسان على الأمراض ومن حيث الصحة العامة كان قدماء المصريين يباهون بأنهم أصبح بنى آدم وكانت دأبهم الأخذ بكل حيلة ليتمتعوا بالصحة الجيدة ولذلك كانوا أمة تعنى بأسباب البأس والألعاب الرياضية وشعارها « درهم وقاية خير من قنطار علاج » وكانوا يدرسون الطب فى جامعات عين شمس ومنف وطيه والاسكندرية التى كانت مهبط العلم وقبلة طلابه وقد كرع موسى

عليه السلام كؤوس العلم مترعة في جامعة عين شمس وتهذب بكل حكمة المصريين —
ونقل اليونان علوم مصر الى بلادهم وقت أن كان المصريون يعرفون الكثير عن القبالة
وعملية الحتان وعلم الصحة والجذام والأمراض الجلدية ويكفيهم غراً أن أبقرات الملقب
بأبي الطب وفد على بلادهم للاغتراف من بحر حكمتهم وهو صاحب القول الحكيم « على
الطبيب اذا أراد أن لا يخدع نفسه أو يخدع غيره أن يلم بما كان يعرفه من سبقوه » لأن
خير وساطة للتجديد في مختلف العلوم هي البناء على الأسس الصالحة من القديم .

ان المقياس الأول لتقدم الصحة العامة هو النظافة العامة وقد كان قدماء المصريين
كثيري الرعاية لذلك خصوصاً في أشخاصهم وهذا مما أدى الى ترقية عاداتهم — قال
هيرودوت في كتابه الثاني إبان زيارته لمصر في القرن الخامس قبل الميلاد « لا نزاع
في أن المصريين هم أكثر تديناً من أية أمة أخرى ومن عاداتهم أنهم يشربون في كؤوس
من البرونز ويغسلونها يومياً وهذا لا يقوم به بعضهم فقط بل كلهم على السواء وهم جد
حريصين على ارتداء الملابس البيضاء المغسولة حديثاً وهم يهتمون مراعاة للنظافة التي هي
شعارهم وهم يفضلونها على الظهور بالمظهر الحسن وكنبتهم يملقون جسمهم كله مرة كل
ثلاثة أيام حتى لا يعلق بأجسامهم القمل أو غير ذلك من الحشرات النجسة في اثناء قيامهم
بخدمة الآلهة وكذلك يغتسلون بالماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل . »

ولاحظ هيرودوت أيضاً كثرة وجود البعوض وكان المصريون يتقون شره
بالصعود الى الأبراج التي تعلو المناقع ليناموا بعيدين عن متناول البعوض الذي كانت
الرياح تحول دون وصوله اليهم . وأما الذين كانوا يعيشون بقرب المناقع فانهم كانوا
ينصبون اثناء الليل شبكات صيد الأسماك على فرشهم وكانوا يزحفون من تحتها للوصول
الى الفرش منعاً لتسرب البعوض بداخلها .

فالمصريون والحالة هذه هم أول من تنبه لمضار البعوض ولانتقاء ضرره بأبسط الوسائل
ومن الذين درسوا الطب بمصر وكان لهم القدر المعلي في وضع أساس الطب الوقائي
جالينوس الذائع الصيت الذي كان تلميذاً للمصريين اذ رضع لبان العلم بجامعة الاسكندرية
في القرن الثاني قبل الميلاد واحاط بكل ما عرف عن الطب في وقته . وبما هو جدير بالذكر
في هذا الموطن انه وإن كان الفضل يرجع الى ابقرات في تقسيم اسباب الأمراض الى انواعها
تبعاً للفصول أو المناخ أو العوامل الخارجية أو العوامل الشخصية كنوع الغذاء أو

العادات أو ممارسة التمارين الرياضية وهو صاحب المبدأ القائل بأن فعل المرض يكون بالهجوم من جانبه ويقابله الدفاع من جانب الجسم أى انه الكاشف الأول لقدرة الطبيعة على الشفاء وان الطبيب الماهر هو الذى يدرس وسائل مقدرتها هذه ثم يقلدها - وان كان ما تقدم كله ينسب فضله الى ابقراط فجالينوس كان أول من أعلن ملاء الاطباء ان علم وظائف الاعضاء هو دعامة الطب وقد جعله علماً قائماً بذاته وجمع كل ما عرف عن الطب في زمنه وصنفه أسرة بابقرط واستمرت مؤلفاته المرجع الاعلى للعلوم الطبيعية غرباً وشرقاً زهاء اربعة عشر قرناً وكان ينصح تلاميذه بزيارة جامعة الاسكندرية التى انشأها بطليموس الثانى اذ هى موطن الدراسة الصحيحة لجسم الانسان وقد ظلت هذه الجامعة شمس العالم التى يستضيء الاطباء بنورها ومنع العلم والعرفان الذى يرتوى فيه كل طالب للحقيقة الى سنة ٢٠٠ بعد الميلاد ثم بدأت فى الانحطاط الى أن ذهبت ريحها واندثرت فى سنة ٦٤٠ ميلادية عندما فتح العرب مدينة الاسكندرية وكانت العلوم الطبية قد اضمحلت فى مصر قبل انتقالها الى اليونان وكان التشريح قد منع من سنة ٥٠٠ ميلادية ففرق رجال العلم ايدى سبا وهاجروا الى بلاد الشام وفارس وليس من شك فى أن الحالة الصحية قد اضمحلت فى البلاد كذلك تبعاً لاضمحلال معاهد الطب الذى عدت على علومه فنون الشعوذة والدجل واصبح اثرأ مشوها بعد ان كان جنة قفوفها دانية وفيها من كل فاكهة زوجان .

ثم سطع على مصر نور الطب العربى فى زمن ازدهاره فى الفترة من سنة ٧٥٠ الى ١٢٥٠ ميلادية وظهر بمصر فى اوائل هذا العهد كتاب فى الطب القبطى جمع بين دفتيه مائتى « وصفة » لامراض العيون والمعدة والرحم والبواسير والجرب وامراض جلدية اخرى . وقد استفادت مصر كثيراً من الطب العربى وآوى الى ظلها الظليل واشتغل بالتأليف والتصنيف فى اثناء هذه الفترة من تاريخها كثيرون من مشاهير الاطباء العرب كسيمون الموسوى وابن العيني وابن الفارس والنباتى الشهير بابن البيطار الذى شغل بمصر وظيفة الصيدلى الاول التى تعادل الآن وظيفة مدير قسم الصيدليات وانشأ ابن طيلون فى سنة ٨٧٥ ميلادية أول مستشفى فى ذلك العصر وعزره الملك كافور الاخشيدى بمستشفى آخر فى سنة ٩٥٧ م وكانت هناك دار اخرى للعلاج فى مصر القديمة وفى سنة ١٠٠٥ م أسس الحاكم دار الحكمة بالقاهرة وهى اشبه بجامعة منها بدار طب وكان الفاطميون قد

بدأوا في تأسيس جامعة بالاسكندرية احياء لجامعتها القديمة كما أسس صلاح الدين مستشفى الناصري والنوري واشتغل ابو صبيحة في المستشفى الاخير وكان الطب يدرس في هذه المستشفيات ثم انشئ عبد اللطيف البغدادي دروساً في الطب بالازهر سنة ١١٩٢ م

ولا يمكن انكار ما قام به الطب العربي في خدمة الصحة العامة في مصر بل في العالم اجمع فالعرب وان كان أغلب طبهم منقولاً عن طب جالينوس غير انهم ابتكروا الكثير ايضاً مما يخرج تعداده عن موضوع هذا البحث ومن ابرز ابتكاراتهم تفريق الرازي بين الحصبة والجدرى وتأسيسهم المستشفيات وابتداعهم الامتحانات والاجازات الطبية وتنظيمهم فن الصيدلة والكيمياء ومحافظتهم على ما ورثوه من العلوم الطبية من اليونان وخلاصة القول ان العرب هم واسطة الاتصال بين مدينة الأغريق ومدينة اوربا الحديثة وفضلهم على عصرنا الحاضر لا ينكر .

ولقد كان من الطبيعي أن يرث المصريون عن العرب علومهم الطبية ولكن ارادت العناية الالهية ان يفتح العرب الاندلس وينتشر العلم العربي من هناك الى اوربا فيزدهر وينمو حتى يصل الى أوجه - كما اتى على مصر حين من الدهر لم تكن فيه شيئاً مذكوراً - اظلمت فيه شمس العلم وأفل نجم الطب وسادت الفوضى الا وهو عصر المماليك ولقد شذ عنهم أحدهم وهو السلطان قلاوون الذي أنشأ البيمارستان الكبير في سنة ١٢٨٦ م وحسب وفقاً للاتفاق عليه وهو باق حتى الآن وان كان قد خصص للعيون بعد أن كانت تعالج به في أول انشائه كل الامراض ثم خصص لمرضى العقل واستمر هكذا حتى سنة ١٨٥٦ ميلادية ولا ننس مستشفى المؤيد الذي كان حوالي ١٤٢٠ ميلادية . ولما استولى العثمانيون على مصر في سنة ١٥١٧ م لم تكن حالة الطب أو الصحة العامة باحسن منها في عهد المماليك وقد اجتاحت البلاد في العهدين جائحات من الاوبئة لا يتسع المجال لوصفها وكانت تترك لتأكل في العباد كما تأكل النار الحشيم وقد وصف المؤرخ الشهير الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ما شاهده في اثناء انتشار وباء الطاعون الذي ابتدأ في أواخر شهر جمادى الاولى سنة ١٢٠٥ هجرية وذكر أهواله التي تشيب ناصية الوليد وقال ما يدل على أنه لم يتحرك أحد من أولى الأمر لمكافحته وقد مات به ما لا يحصى من الاطفال والشبان والجواري والعبيد والمماليك والاجناد والكشاف والامراء وامراء الالوف وتوفي من السناجق نحو اثني عشر سنجقاً . وكان يخرج من بيت الأمير في

المشهد الواحد الخمسة والستة والعشرة ولم يبق للناس شغل الا الموت وأسبابه فلا تجد الا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن ميت أو مشغولاً في تجهيز متوفى أو باكياً على نفسه وهى تكاد تطير شعاعاً فرقا من الموت ونذر جداً من يشكو المرض ولا يموت ونذر ايضاً ظهور الطعن باجسام المرضى ولم يكن يشعر المريض بالحي بل يكون جالساً فتأخذه رعدة من البرد فيتدثر ولا يفريق الا مخطأً أو يموت من نهاره أو ثانى يوم أو ربما زادت فترة مرضه أو نقصت عن ذلك وقد استمر فعل الطاعون الى اوائل رمضان ثم اضمحل شأنه ولم يقع بعد ذلك الا قليلا نادراً ومات الاغا والوالى فى اثناء ذلك فولوا خلافيهما فماتا بعد ثلاثة ايام فولوا خلافيهما فماتا ايضاً واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى اسبوع واحد .

ثم أتى بعد ذلك عصر الفرنسيين بقيام نابليون الاول فى سنة ١٧٩٨ م بحملته على مصر . ويمكن اعتبار هذا الفتح مبدأ لتاريخ الصحة العامة بالبلاد كما يعتبر مبدأ تاريخها الحديث وقد اصطحب نابليون مائة من أعظم علماء فرنسا المجهزين بالسكتب والآلات العلمية كما استحضر معه مطبعة عربية وأدخل الكثير من الإصلاحات الصحية العامة ككنس الشوارع ورشها فى أوقات معينة ووضع مصباح على كل منزل وقام علماءه ببحوث علمية مفيدة وآثار بجمعهم العلمى لا تزال تذكر لهم بالفخر العظيم . وليس من شك فى أن هذه الحملة كانت من الحوافز الهامة لادخال أسباب المدنية الغربية الى مصر وكانت الخطوة الاولى فى حكم المصريين لانفسهم وذلك بما أنشأه نابليون بالبلاد من مجالس ولجان أسوة بما عمله فى غيرها من الممالك مما كان السبب فى غرس بذور الشعور بالكرامة الوطنية والاهلية وقد مهد عمله هذا السبيل لبزوغ نجم محمد على الكبير منشىء مصر الحديثة الذى رفعته مصر فرفعها واحبته فاحبها .

وقام أطباء الجيش الفرنسيون بأبحاث مفيدة حيث أصدر ديجنيت الطبيب الأول للجيش أمراً الى أطبائه أن يقوموا بأبحاث طبية وطوبوغرافية لجميع الجهات التى يحلون بها . وأنشأ نابليون ادارة تقوم بتنفيذ الاجراءات الصحية المتبعة فى موانئ كثيرة بالبحر الأبيض المتوسط .

ووجه الأطباء عنايتهم الى الصحة العامة محافظة على جيشهم وقد داهمهم وباء طاعون شديد الوطأة علاوة على التهاب العيون الذى أصاب كثيرين من رجال الجيش

واتخذ الاطباء احتياطات شديدة لقمع الوباء كحرق الأمتعة وغيرها وكانت بالبلاد في طول مدة وجود الحملة تقريباً ادارة صحية وهى وان كان جل همها العناية بصحة الجيش فأنها أنشأت عدة مستشفيات عسكرية بالأزبكية والجيزة والقصر العيني ودمياط ورشيد وغيرها كما قامت تلك الإدارة بنشر الدعوة الصحية خصوصاً ضد الجدري حيث طبعت نشرة عنه باللغة العربية ووزعت بواسطة الديوان الكبير على كبار الأعيان وعلى السيدات بواسطة السيدة نفيسة هانم زوجة مراد بك الكبير

ومات من رجال الحملة من يوم خروجها من فرنسا حتى نهاية السنة الثامنة (بالتوقيت الفرنسى الجديد المتبع وقتئذ) ٨٩١٥ توفى منهم بالطاعون ١٦٨٩

ومن المذكرات الطبية ذات الشأن التى دونها الأطباء مذكرة للدكتور بروانت عن الرمد وأخرى عن الدوستناريا ومذكرة عن الرمد لسفارسى وعدة مذكرات عن الطاعون . وقد جاء فى هذه المذكرات أن الأمراض التى كانت منتشرة بمصر وقتئذ — علاوة على الطاعون والدوستناريا والحمى المتقطعة وأمراض العيون والكساح والعمى والفتق — الحصيات البولية والقيح المائى والصرع والحمى المعوية والجدري والاستسقاء . وقام رجال الحملة بعمل جداول عن الحالة الجوية بالقاهرة والاسكندرية .

وقد يكون أول احصاء منظم للتوفين فى القاهرة هو الذى عمل تحت اشراف ديجنيت حيث أجرى هذا الاحصاء من ٢٩ برومير من السنة السابعة حتى فندمير من السنة الثامنة بالتوقيت الفرنسى الجديد — واستنتج منه ما يأتى :

ان عدد النساء اكثر من عدد الرجال

ان وفيات الاطفال تحدث فى ستة الأسابيع الأولى من حياتهم وعلى العموم تكثر وفياتهم قبل بلوغهم سن تسعة أشهر .

ان الجدري هو اكثر الأمراض حصداً للاطفال .

ويستخلص من احصاءات الطبيب المشار اليه التى عملها عن السنة الكاملة وهى السنة الثامنة (بحسب التوقيت الفرنسى الجديد المتبع وقتئذ) أن عدد الوفيات بلغ فى اثناءها بالقاهرة ٥٨٩٥ منهم ٣٥١٦ طفلاً و ١٣٧٦ امرأة و ١٠٠٣ رجال .

وحول قصر العيني الى مستشفى كما أن نابليون أمر بافتتاح مستشفى مدني بالازبكية
يسع ٣٠٠ مريض .

وجلا الفرنسيون عن مصر في سنة ١٨٠١ وقد جومار عدد سكان القطر في سنة
١٨٠٠ ب ٢٤٦٠٢٠٠ نسمة ولكن حسب تقدير كلوت بك لا يتجاوز السكان المليونين
وبجلاء الفرنسيين وعودة حكم العثمانيين لمصر وتسلمت الممالك ثانية سنحت الفرصة
لجلوس محمد على على عرش مصر وتم بذلك خلاص البلاد على يديه من عصور الفوضى
والمظالم وسار بها في سبيل الرقي الى أبعد شوط ونهض ضمن ما نهض به بالشؤون الطبية
والصحية .

تولى محمد على باشا الحكم وممارسة مهنة الطب في أيدي قوم جهلة يتناقل بعضهم عن
بعض المعلومات الطبية المشوهة وكان بعضهم يلقبون بالحكام وهم يقومون بمعالجة
الأمراض الباطنية وبعضهم يمارسون الجراحة ويلقبون بالجراحين وكان على رأسهم
جراحا باشا - كما يوجد بجانب هؤلاء المجبرون والدايات وكان جل اعتمادهم على بقايا
الطب العربي وقال كلوت بك انه لما حضر الى مصر كان يرأس المستشفيات حلاقون وقد
أبعدوا بصعوبة حتى يحل مكانهم كلوت بك وزملاؤه .

فلما أوجد محمد على جيشاً نظامياً بمصر استدعى كلوت بك في سنة ١٨٢٥م ليكون
طبيباً أول لهذا الجيش ويرجع اليه الفضل في إعادة تأليف مجلس الصحة وقد شكل من
خمسة أعضاء من أطباء وجراحين وصيادلة برئاسة كلوت بك وكان هذا المجلس يشير
على وزير الحربية في كل المسائل ذات العلاقة بالصحة وغيرها حيث لم تكن توجد وقتئذ
ادارة صحية . ثم انشئت فيما بعد ادارة طبية يرأسها مفتش عام وهذه الادارة كانت تدير
شؤون مستشفيات الجيش وصيديلياته حيث ألحق بهذه الادارة قسم للدوية وتسيلا
لصرف الدواء وضعت فارما كويا بها بعض الوصفات ، وأقرها مجلس الصحة وأست
صيدلية مركزية بالقاهرة ومستودعات للدوية بالاسكندرية للقطر المصري وبحلب
وعكة للشام وبجدة لبلاد العرب وبالخرطوم لسنار وبكندية لكريت .

وأنشئ للبحرية المصرية مجلس صحة بالاسكندرية .

ونشأ عن اتخاذ الوسائل المتقدمة انخفاض نسبة الوفيات بين رجال الجيش

والبحرية وكان مستشفى ابى زعبل هو المثال الذى تحتذيه كل المستشفيات وقد أسست به فى سنة ١٨٢٧م مدرسة الطب وفرع للصيدلة فدرس علم الصحة للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث . ثم أنشئت مدرسة للولادة بهذا المستشفى أيضاً وتخرج فى مدرسة الطب بعد خمس سنوات أربعون طبيباً أرسل منهم لباريس اثنا عشر طالباً حيث حصلوا على شهادة الدكتوراه من كلية باريس .

ثم انتقلت مدرسة الطب والمستشفى الملحق بها الى سراى ابراهيم بك (وهو قصر العيني الحالى) حيث هما الآن وأصبح المستشفى يسع من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ مريض وبالمدرسة ثلاثمائة تلميذ - ورخص ولى النعم فى قبول مرضى من غير العسكريين كما أن مستشفى أبى زعبل خصص للنساء ومستشفى الأزبكية لكل الأمراض وكان ملحقاتاً بكل المدارس بالأقاليم جراحون مرخص لهم فى معالجة الأهالى ثم انشئت مدرسة للولادة بمستشفى قصر العيني .

وقبل زمن محمد على باشا كان الذين يقومون بمعالجة الحيوانات هم البيطرة فأنشأ المسيو هامو بناء على رغبة محمد على باشا مدرسة للطب البيطرى برشيد ثم نقلت الى أبى زعبل حيث الحق بها مائة طالب وبعدئذ وجد أنها بعيدة عن الحرس بشبرا فنقلت الى هناك لتكون على مقربة من فرسان الجيش وأصبح فيها مائة وعشرون طالباً .

ومما يجب ذكره أن كلوت بك هو الذى أشار باستعمال التطعيم ضد الجدري لمقاومة انتشار هذا المرض بالقطر المصرى بعد أن كان يودى بحياة ستين ألفاً من الأطفال كل سنة أو ثلث المواليد على رأى كلوت بك وقام هو وتلاميذه بمكافحة الكوليرا التى وفدت على مصر سنة ١٨٣٠م وبذلوا جهوداً فائقة فى مقاومة طاعون سنة ١٨٣٥ .

فما تقدم نرى أن مصر الحديثة عرفت ما هى الصحة بعد أن وضع دعائمها محمد على باشا وإن كان الفرنسيون قد مارسوها قبله محافظة على جيوشهم ومن عهده استمرت فى تقدم حتى عصرنا الحاضر .

وبلغ عدد سكان مصر فى نهاية عهد محمد على باشا نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون وتعداد سكان القاهرة نحو ثلاثمائة ألف نسمة .

وسار أبناء وأحفاد محمد على الذين تولوا الحكم بعده على منواله وقطع كل منهم فى

هذا السبيل شوطاً يختلف عن الآخر تبعاً للوارد التي كانت لديه ووفقاً لمشورة الرجال الذين كانوا يعملون معه حتى أتى الخديوى اسماعيل باشا الذى امتاز عصره بالتجديد فى كل النواحي الاجتماعية والمادية وقد تقدمت الشؤون الصحية وفقاً لخططه الاصلاحية تقدماً عظيماً لا سيما وان علم الصحة كان قد خطا خطوات واسعة فى عصره مما كان خير معوان له على هذا التقدم .

وما حل القرن العشرون حتى أصبح علم الصحة غير مقصور على مكافحة الوبئة ومراقبة زيادة الوفيات وقيد المواليد بل تعدى ذلك الى الناحية الوقائية وابتدأت النهضة الصحية فى مصر بالازدهار على ضوء التقدم الحديث للعلم والفنون الطبيعية الذى انبثق فجره فى اواخر القرن التاسع عشر حيث اكتشفت جرائم الأمراض فى الانسجة وأن ننس لا ننسى ما قام به باستور من العمل الخالد فى اكتشافه أسباب التخمر فى سنة ١٨٥٧م وأبحاثه عن الجراثيم فى سنة ١٨٧٧م وعن الطعوم فى سنة ١٨٨٠ و ١٨٨٢ التى هى أساس الطب الحديث هذا مع ما استنبطه كوخ من المزارع الصلبة والطرق المتقنة لتمييز الجراثيم وقد كان ذلك فتحاً عظيماً فى الطب وتتابعت الاكتشافات الباهرة التى امتاز بها عصرنا من سنة ١٨٧٠ حتى سنة ١٩٠٥ وفيها اكتشاف هتسن لباشلس الجذام ونيسر لميكروب السيلان وأبرت وجانكى لباشلس الحى التيفودية واجستن لبنور التقيح وكوخ لباشلس التدرن وباشلس الكوليرا بالقطر المصرى وكلبس ولوفار لباشلس الدفتيريا وكيتسانو وبرسن لباشلس الطاعون ونيكولاير لباشلس التيتانوس واكتشف لافرن سنة ١٨٨٠ طفيلي الملاريا وهلم جرا حتى اتت سنة ١٩٠٥ فاكتشف شوندين ميكروب الزهري ثم اكتشف ان لهذه الجراثيم سموماً تفعل فى الجسم واعقب ذلك تحضير بهرنج وكيتسانو مصلًا مضاداً للدفتيريا . وبهذه الاكتشافات الموفقة وصلنا الى معرفة حقيقة هامة وهى ان الجسم السليم اذا هاجمه ميكروب قد يتأثر بفعل سمومه غير انه يمكن خلاياه وسوائله ان تقوم بالدفاع عن الجسم باتلاف الميكروب وهضمه وهذا الدفاع يحصل بواسطة مواد مضادة بفعلها لفعل سم الميكروب وقد سبق ذلك بسنتين كشف متشكوف لفعل الكريات البيضاء فى اتلاف الجراثيم وتلا ذلك عدة اكتشافات كالتلبد وغيره ثم فى سنة ١٩١٠ أعلن اهليرخ اكتشافه لمركب ٦٠٦ الذى يقضى على طفيلي الزهري فى جسم الانسان فما تقدم بيانه نرى أن أول عمل باهر رفع من شأن

علوم الطب وأقامها على أقوى الدعائم يرجع الفضل فيه الى باسـتور الكيماوى وذلك سنة ١٨٥٧ م وكان الفضل فى إتمام هذا العمل الباهر لكيماوى آخر وهو اهل رخ ولن تنسى الانسانية مهما كرت الدهور وتعاقبت العصور فضل هذين النابغين عليها .

وأخذت مصر نصيبها فى تطبيق نتائج هذه المكتشفات لتحسين الحالة الصحية العامة بها لانه متى اكتشفت الجرثومة المسببة للـرض أمكن مكافحته بالتغلب عليها . وكان الدافع الى هذا التطبيق بمصر آتياً عن طريقين الاول رغبة أولى الأمر فى تمدين مصر والأخذ بالاساليب الاوربية النافعة والثانى تكرر حدوث الاوبئة فيها بسبب وقوعها على حافة البركان كما يقول المثل الاوربى نظراً لموقعها الجغرافى الذى جعلها على الدوام نقطة الاتصال بين ممالك العالم وبما يذكر فى هذا المقام مع الاغـتباط انه فى اثناء نهضة مصر الصحية الحالية توفق بلهارس لاكتشاف ديدان البلهارسيا وليبر لطريق العدوى بها وبديدان الانكلستوما وانتهى الأمر بالبحث فى جميع الواحى الصحية والعمل على تحسينها وبالتالى لرفع مستوى الحياة الصحية لكل فرد من الافراد وللمجتمع المصرى كله على اختلاف طبقاته مما كان له اكبر الاثر فى تمدين مصر ولو كانت موارد البلاد المالية سمحت بتمشى مستوى الثقافة العامة مع رقى الصحة العامة خطوة خطوة لبلغت مصر من المدنية شأوا عظيماً ولاستفادت البلاد من الاعمال الصحية أضعاف ما تستفيدة الآن اذ من البديهي أنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

فالحالة الصحية بالقطر المصرى الآن مرضية فقد كانت نسبة الوفيات فى سنة ١٨٨٨ : ٢٠ فى الالف وفى سنة ١٨٨٩ : ٥١٦ فى الالف وكان عدد السكان ٦٨٢١٦٠٠ بينما انخفضت نسبة الوفيات بالقطر فى سنة ١٩٣٠ الى ٢٤٠ فى الالف وهى أقل نسبة فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة وعدد سكان القطر الآن نحو خمسة عشر مليوناً ثم أن زيادة نسبة المواليد عن نسبة الوفيات كانت قليلة بينما هى الآن عالية جداً ففى سنة ١٨٨٩ كانت نسبة المواليد فى القاهرة مثلاً ٥٨٨ وسنة الوفيات ٥١٦ لكل الف ساكن بينما فى سنة ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد فى القطر المصرى ٤٤٠ ولم تتعد نسبة الوفيات ٢٥٨ والبون شاسع بين النسبتين وهذا دليل من أهم الادلة على تقدم الصحة العامة بلا نزاع واذا لوحظ وجود قلة فى نسبة المواليد فهذه القلة احدى مظاهر المدنية التى

تدعو الى الاقلال من تعدد الزوجات ومن الزواج المبكر لكثرة تكاليف الحياة الآن وللرغبة في التقليل من النسل لتوفير العناية بالقليل منه ليشب الابناء اصحاء ويصيروا اعضاء نافعين في الهيئة الاجتماعية ومع ذلك يقابل قلة النسل قلة الوفيات بين المواليد فبعد ان كان يتوفى في السنوات من ١٩٠١ الى ١٩٠٥ : ٢٨٢ في كل الف مولود انخفض هذا العدد في سنة ١٩٣٠ الى ١٥١ وفاة لكل الف مولود — واذا نظرنا الى هذه النسبة نجدها عالية لو قورنت بما يقابلها ببعض الممالك الأخرى كإنجلترا أو فرنسا ولكن يخفف وطأتها ان نسبة المواليد بمصر اعلى جداً مما هي في هذه الممالك حتى أن عدد سكان مصر دائماً في ازدياد وهو الآن خمسة امثاله في أول عهد نهضتها الحديثة أى أول عصر محمد علي باشا .

ومع ذلك فمسألة زيادة وفيات الاطفال بالقطر المصري هي من المسائل التي تبحث بحثاً مستفيضاً وقد بدى بالعمل على مكافحتها بأفعل الوسائل العملية إذ أنشئ في كل عاصمة مديرية مركز لرعاية الطفل وحماية الأمومة كما أنشئت عدة مراكز بالقاهرة والاسكندرية وأنشئت فروع بالمستشفيات العامة لمعالجة الاطفال ومراكز ومستشفيات متنقلة كما ألحقت دور الولادة بهذه المراكز ونظمت زيارات صحية بواسطة زائرات معينات لارشاد الحوامل والأمهات الى طرق العناية وتربية الطفل وغير ذلك من الوسائل الفعالة لمعالجة الأمراض الوراثية وتحسين النسل وقد أُلْمِعا الى أثر هذه الجهود في نقص نسبة الوفيات ولا شك أن انتشار التعليم الإلزامي بين طبقات الشعب سيكون خير معوان على الوصول الى تقليل وفيات الاطفال الى الحد الأدنى .

ولم يكن أثر الاهتمام بالطفل مقصوراً على تقليل نسبة الوفيات بين الاطفال بل المقصود به أيضاً انشاء جيل قوى البنية ذى كفاية للعمل المنتج يعيش الى أقصى مدى مستطاع . ولقد ظهرت طلائع هذا الجيل وشواهد ذلك جلية في فتيان وفتيات اليوم فأين شباب اليوم من شباب خمسين سنة مضت خصوصاً شابات ذاك العهد حيث كن صفراوات هزيلات أو سمينات مترهلات . وأما شبان اليوم وشاباته فممتثلون صحة وعافية إذ يعنى بصحتهم من يوم ولادتهم حتى يخرجوا الى معترك الحياة — واذا ازدادت عناية المصريين بممارسة الألعاب الرياضية رجوعاً منهم الى سنة أجدادهم من قبل أصبح مجيء هذا الجيل قريباً ولا شك فيه .

ولا أريدك بياناً عما اتخذ ويتخذ الآن في مقاومة الأوبئة ومنعها فقد أصبحت بعض الأمراض أثراً بعد عين كالحمى الراجعة كما أصبح البعض الآخر يتقى بالحقن كالدفتريا والحميات المعوية أو يقاوم بسهولة كالطاعون الذى كان الشبح الخيف بمصر كما سبق لنا بيانه في هذا المقال .

هذا وقد انتشرت معاهد العلاج في كل ناحية من نواحي القطر فلا يخلو الآن مركز من مستشفى ولا عاصمة مديرية من مستشفى عام كبير ولا قرية كبيرة من عيادة خارجية مع تيسير وسائل التشخيص بإنشاء المعامل بكل أنواعها وتزويدها بالأجهزة المختلفة وتوفير كل طرق المعالجة الحديثة بمعاهد العلاج حتى أصبح بالقطر المصرى الآن ١٢٠ مستشفى عاماً ومركزياً وقروياً علاوة على المستشفيات والعيادات الخاصة ببعض الأمراض كالرمد ، الطفيليات المشار إليها فيما بلى

ولما كانت مصر منذ القدم موطناً لأمراض كالبلهارسيا والانكلستوما وبعض أمراض العيون كالرمد الحبيبي وهذه الأمراض — علاوة على الملاريا التى فشت في بعض جهات القطر بسبب وجود المستنقعات التى نشأت على الأخص عن أحداث حفر لأخذ التراب منها لعمل الآجر لبناء المنازل بالقرى وعدا الزهري والأمراض الدرنية — وهذه تقلل من كفاية السكان وتضعف قوة إنتاجهم وتهدي كيان الأمة بصفة عامة. فقد وجهت إليها العناية بنوع خاص وأنشئت المستشفيات والمستوصفات لمعالجتها وكذلك لمعالجة الجذام ، كما بذلت الجهود في عمل الأبحاث الخاصة بمنشئها وطرق معالجتها المعالجة الناجعة خصوصاً الانكلستوما والبلهارسيا اللذين أنشئ معهد خاص لعمل التجارب المتعلقة بمقاومتها فضلاً عن نشر الدعوة ضد هذه الأمراض بصفة مستمرة بكل طرق الأذاعة المعروفة الآن .

ولا يوجد برهان على تقدم المدينة وزيادة الرفاهية في بلد من البلاد أقطع من توفير المياه النقية الكافية للشرب وللإستعمال المنزلى ومنع تلوث المياه وتصريف الفضلات والعناية بالشوارع والطرق وصحة المساكن وتفتيش المساكولات وتنظيم الأسواق والإضاءة والنظافة العامة .

وقد قطعت مصر شوطاً كبيراً في هذه السبل إذ أن عدد المدن التى فيها أجهزة لترشيح المياه أصبح أربعين وعدد البلاد التى فيها آبار ارتوازية بلغ حتى الآن

ثلاثين وعدد سكان المدن الذين ينتفعون الآن بالمياه النقية يزيد قليلا عن ربع سكان القطر المصرى . أما أمهات المدن الموجود بها مجار عامة فهى حتى الآن تسعاً . وإدارة هذه الأجهزة علاوة على العناية بالنظافة العامة موكولة الى المجالس البلدية والمحلية والقروية التى توجد الآن فى معظم المدن والبلاد والقرى الكبيرة وليس من شك فى أن المساكن الآن أحسن حالا من التى وصفها المؤرخون وزائر القطر المصرى فى القرنين الأخيرين وقد مهدت شوارع المدن الكبيرة وعبدت طرق كثيرة وعمت الاضاءة بالكهرباء المدن والكثير من البلاد ونظمت أسواق كثيرة للبأكولات وعنى الآن بغذاء الانسان بما يلحقه للآم وهى حامل وهى والده وبما يلحق للتليذ بالمدارس عن التغذية الصحية وبما ينشر على الجمهور وما اتجهت اليه عناية ولادة الامور من المحافظة على نقاوة الطعام بالتشريع الخاص بذلك وبفتيش أما كن تخزينه وبيعه وتحضيره فلا يمكن الآن فتح محل لبيع المأكولات الا بترخيص بعد تنفيذ مواصفات صحية خاصة وبعد منح الترخيص يفش الأطباء ومعاونهم المتخرجون فى معهد خاص هذه الاماكن بحالة دورية لضمان سيرها على النظم الصحية .

وبسبب نشوء عدة صناعات بالقطر المصرى نبتت فكرة العناية بصحة العمال فابتدىء بسن تشريع لذلك وان كانت المصانع خاضعة للفتيش الصحى منذ عهد النهضة الحديثة بالشؤون الصحية العامة وقد ابتدىء أيضاً فى اقامة مساكن صحية للعمال بالاسكندرية والقاهرة ولا شك فى أن البلاد سائرة فى سبيل نهضة موفقة فى الشؤون الصناعية تستدعى عناية خاصة بالشؤون الصحية للعمال والمصانع .

نتائج الجهود الصحية والطبية

ان التقدم المطرد للطب والتقدم الاجتماعى للجنس البشرى مهذا السبيل لعدد جم من بنى الانسان لأن يحيا حياة طيبة ومثمرة وكانت نتيجة المساعى السابق إيضاها أن ازداد متوسط العمر وأن كثيراً من الأمراض زالت تقريباً من القطر المصرى والبعض قل كالعمى والملاريا ومضاعفات بعض الأمراض كالبهارسيا قلت لدرجة كبيرة فالبهارسيا الجراحية صارت الآن أقل ثمانى مرات مما كانت عليه فى

سنة ١٩٢٤ والحصيات البولية ثلاث مرات ونصف مرة والبواسير البولية انخفضت إلى ثلث ما كانت عليه في سنة ١٩٢٥

و بالاختصار قد تيسر بوضع أسس الحياة الصحية رفع مستوى صحة الأفراد بدرجة ملموسة وهبطت نسبة الوفيات الى عدد السكان نحو أربعين في المائة عما كانت عليه من خمسين سنة مضت وأصبح في متناول كل انسان من وقت طفولته التحصن ضد كثير من الأمراض كالجدري والدفتيريا كما أبعد عنه خطر العدوى من عدة أمراض أخرى . ولكن على رغم هذه الجهود بقيت معضلات صحية مصرية في حاجة الى الحل حتى يمكن مع التقدم الاجتماعى والصناعى المنتظر وتعميم التعليم الاجبارى أن تصل المدنية الى أرقى مستواها فى القطر المصرى . وهذه المسائل هى موضع العناية الآن وبعضها قد درس فعلا والبعض الآخر لا يزال فى طريق الدرس والمنتظر أن تحل جميع هذه المعضلات وقد أتينا على أهمها فى ما يأتى :—

١ — معالجة نقص التغذية فى بعض جهات القطر

٢ — معالجة مسألة إدمان المخدرات

٣ — العناية بالنسل باستئصال شأفة السموم وغيرها من العوامل التى تؤثر فيه بالوراثة وبذلك يقل عدد الأشخاص الذين لا فائدة منهم للبلد كضعاف العقول وغيرهم .

٤ — العمل على تقليل عدد ذوى العاهات وعلى توفير وسائل التعليم ووسائل كسب العيش للوجودين منهم

٥ — توفير المياه النقية لكل سكان القطر على السواء من حضر وريف .

٦ — تحسين حالة المساكن فى المدن والقرى — وبحل هذه المعضلة يرتفع مستوى الصحة العامة الى درجة عالية جداً لأن المسكن الغير الصحى يدعو الى ضعف بنية السكان واضعاف قوة مقاومتهم للأمراض فيكثر المرضى وذوو العاهات وترتفع نسبة الوفيات . والمسكن الردىء يدعو بطبيعته الى قذارة الساكن وقذارة ما يحيط به وما يتبع ذلك من مرض ونقص فى الكفاية .

٧ — مقاومة البلهارسيا والانكلستوما لا بالمعالجة والوسائل الصحية العامة فقط

بل بإبادة الديدان المسببة لها في مواطنها . والهمة مبذولة الى أقصى حد للوصول الى هذا الغرض الهام .

٨ - القضاء على الرمد الحبيبي باكتشاف جرثومته . والبحث قائم بكل همّة ونشاط

لحل هذه المعضلة التي استعصت على الحل منذ آلاف السنين

٩ - التصرف في الفضلات بتعميم المجارى في المدن وحل هذه المعضلة الهامة

بالنسبة للقرى .

ومتى وقفنا الى حل هذه المعضلات الصحية وقطعت البلاد شوطاً بعيداً في مضمار

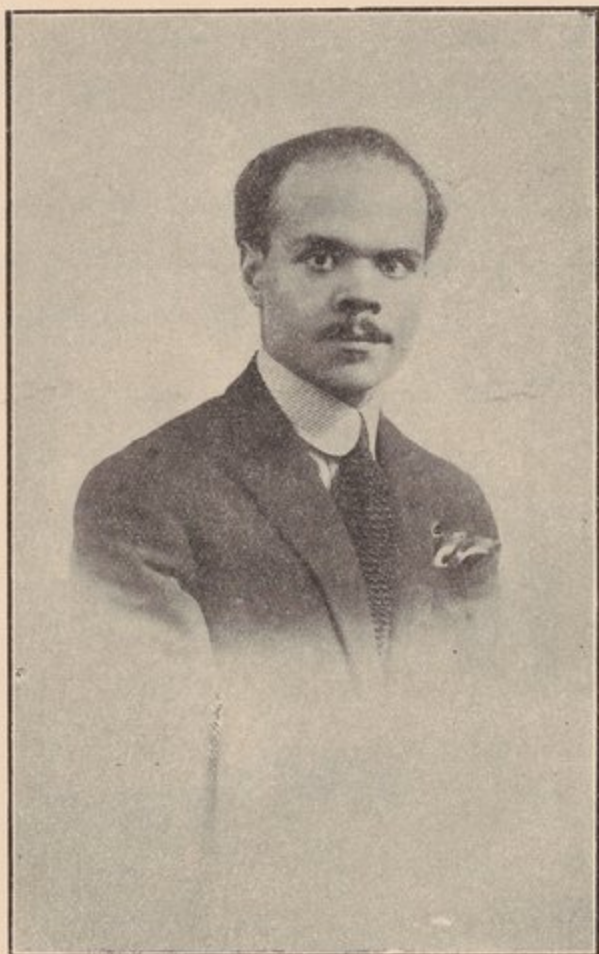
التقدم في مختلف نواحي المدنية تزدهر المدنية في مصر وتبلغ مثلها الأعلى فتعود الى البلاد

سيرتها الأولى وليس من شك في أن رفع مستوى الثقافة العامة بين الأهاليين يساعد كثيراً

على الوصول الى هذا الغرض .







حضرة الدكتور بنيامين بهمان

M. R. C. S. (Engl.) L R. C. P.

طبيب مستشفى الامراض العقلية بالعباسية

اوقات الفراغ والحياة المنزلية

لحضرة الدكتور بديامين برهان

هذا الموضوع عظيم الخطر لتناوله البحث في حياتنا الخلقية والاجتماعية وما تأثرت به هذه الحياة في مصر منذ فجر التاريخ

وان تاريخ مصر الحديث لن ينسى أبد الدهر ما للامريكان من عظيم الاثر في نهضتنا العلمية والاجتماعية . وانها لفرصة سعيدة تلك التي أتاحها لى قسم الخدمة العامة لأحدث اليكم عن بعض هذه الشؤون . وأخص منها بالذكر البحث في عيشتنا المنزلية وتحليل عاداتنا وتقاليدنا وخص أخلاقنا فخصاً يوضح بعض ما فينا من عيوب ونقائص قد يرى فيها البعض ما يؤلمه أو ما يمس عزتنا القومية ولكن ما سأذكره ليس مقصوداً علينا دون سوانا من سائر الأمم . وان أغفلت الكلام عما لنا من حسنات فليس لقلتها ولكن لأنها خارجة عن موضوع بحثي لأنى أبحث في تقويم المعوج واصلاح الفاسد

المصرى كما تعلمون وقاد الذهن يشهد له بذلك سبقه لمنافسيه من زملائه الغربيين في جامعاتهم ومع ذلك ترى الغربى متفوقاً على المصرى في مواجهة الحياة وأسبق منه في ميدان العمل

وهنا نسائل أنفسنا التي تطمح الى النهوض والكمال ما الذى قعد بها عن ادراك شأو الآخرين من الغربيين في مضمار الحياة ما دمننا نساوهم في قوة العقل والبدن ؟

فالجواب عن هذا السؤال هو بيان أدوائنا الاجتماعية والخلقية وتشخيصها تشخيصاً دقيقاً يكفل لنا خير وسيلة منتجة لوصف العلاج وهذا ما أحاول القيام به الليلة

ولا أريد فى مقالى هذا أن أسلك سبيل الذين يبالغون باللوم ويسرفون فى النقد المر بما يفضى الى تثبيط الهمم واضعاف العزائم ويؤدى الى عكس الغاية المرجوة

وللبرهان على صحة قولى هذا أضرب لكم مثل مريض بالنورستانيا استشار طبيبه فأخبره بأن مرضه وهمى وأن أعضاء جسمه كلها سليمة فليس اذن ما يسوغ شكواه . فترى

الفحص في هذه الحالة لم يتناول ما سبب عنده الوهم فيأخذ في علاجه الى أن يتم شفاؤه وانما تناول الأسباب الظاهرة فاكفى بقوله له انه غير مريض وينصحه ان يترك أفكاره السوداء فاذا كان هذا كل عمل الطبيب فلا ينتفع منه المريض شيئاً . لأن المريض في أغلب الأحيان يعرف أن داءه هذه الوسوس والاهوام ولكن ليس لديه من الوسائل ما يحرر نفسه من سلطانها والتخلص منها وما يزيد في ألم هذا المريض كثرة لوم اخوانه ومريديه على استسلامه الى أوهامه وهو ما يعادل قسوة أعدائه في تقديم اياه لضعف ارادته وهذا وذلك يدفع نفسه الباطنية للاستسلام الى أمراضه والتأدى في أوهامه كي يبرر موقفه المرضى حفظاً لكرامته في عيون الآخرين

وبمثل هذا النظام العقلي تتأثر نفسية كل فرد لو قسونا في نقده . وانا بهذا لا نساعده على اصلاح شأنه بل ندفعه الى طريق العناد والثبت بفكرته ومغالطة نفسه لكي يصونها من الاحساس بفكرة تحقير الغير له عن طريق اللوم والنقد . ومن هذا ترون أن اللوم والنقد التهمي ليسا طريقاً للاصلاح بل هما مجلبة للضرر الجسمي وبالأسف الشديد نراهما شائعين عندنا وكثيرا ما نرى الأب يتبعها مع ابنه والاستاذ مع تلميذه والرئيس مع مرؤوسيه وهذه عيوب فظيعة ليتهم يقلعون عنها لأنها ناشئة عن نقص في التربية وضعف في الأخلاق .

الشباب المصري ناهض وفيه روح حية ورغبة قوية تدفعه الى السير في طريق الرقي ولكنه يشعر بأن رجله أضعف من أن تحمله الى هذه الغاية بالسرعة التي يريد بها وهو لضعفه يتعثر في طريقه ويكون في حاجة لمن يأخذ بيده ويقلبه من عثراته برفق وتؤدة حتى يصل الى الغاية التي تتوق إليها نفسه المتقدمة حماسة للوصول الى الرقي والكمال . . . فهذه الرغبة الشريفة فيه تحتاج الى حسن الهداية واسداء النصيح والمعونة الصادقة . لا الى اللوم والنقد لضعفه الذي لم يكن هو نفسه سبباً فيه حتى تقسو عليه وهو في هذا أحوج ما يكون الى علاج هذا الضعف باللطف وطول الاناة

أما أطفال اليوم — شباب الغد — ورجال المستقبل فالرقابة لهم خير من العلاج ولكي تفهم من الضعف الذي نشعر به والنقص الذي نلوم أنفسنا عليه يجب علينا أولاً أن نحدد نوع هذا النقص ومنشأه

مؤهلات أخرى غير الذكاء ، للنجاح في الحياة . مثل الاعتداد بالذات والاعتماد

على النفس والصبر على العمل ، والمقدرة على التوفيق بين الرغبات وحقائق الكون الى غير ذلك من الصفات . وهذه نسميها الأخلاق وبمقدار متانتها في الشخص يتوقف نجاحه ، وبنسبة وجودها في الشعوب والأمم تكون عظمتها وهي ليست معدومة عندنا ولا هي كاملة عند غيرنا . على ان الغربيين يتمتعون منها بنصيب أوفر من نصيبنا . وضعفنا هو « نقص هذه المؤهلات فينا » . لكي نعرف أين وكيف تنمو الاخلاق فلندرس المنزل المنزل هو المعهد الوحيد الذي يقوم بتربية الفرد في السنوات الاولى من حياته وأهم سنى التربية هي الخمس سنوات الاولى من حياة الطفل وعليها يتوقف مستقبله ففيها تتكون نفسيته وأخلاقه التي تكون شخصيته كفرد عامل — وفي مقدور علماء النفس اليوم أن يبرهنوا للعالم أن معظم نقائص الفرد الخلقية ترجع الى سوء التصرف في تربيته كطفل ، وأن معظم ما في الانسان من قوة أو ضعف خلقى يرجع السبب فيه الى نوع تربيته المنزلية والى تأثير الوسط الذي كان يحيط به وهو طفل

فالبيت اذن له المنزلة الأولى في تربية الاخلاق والاخلاق تغرس في الطفولة — وهذه الفكرة على ما أظن جديدة لقراء اللغة العربية — وهي تخالف تماماً الفكرة السائدة عندنا فأننا كثير والساهل والتسامح في غلطات الطفل ولا نعلق أهمية كبيرة على ما يبدو منه من شذوذ في الأخلاق أو التصرفات باعتبار انه صغير لا يدرك وعند ما يكبر يفهم ويحسن بي في هذا المقام أن أذكر لكم بايجاز متحاشياً ذكر اصطلاحات فنية — بعض الحقائق المقررة في كيفية تكوين نفسية الطفل — الاساس الذي عليه يقوم بنیان أخلاقه

يولد الطفل وأول درس تلقيه عليه الطبيعة هو مواجهة حقائق العالم الذي يحيط به فترغمه على أن يوفق بين غرائزه وملذاته وبين الظروف القهرية التي تواجهه

فعند ما يولد ويصطدم بالعالم الجديد بما فيه من غوغاء وتغييرات جوية يتنبه لأن حياة الهدوء والسكينة التي عاشها كجنين قد انتهت ويبتدىء يشعر بحاجات كان في غنى عنها وهو في رحم أمه كضرورة التنفس وحاجته الى الأكل والتدفئة ويعود نفسه احتمال الغوغاء والأنوار الساطعة التي ترعبه . ثم يدرك بأنه في مواعيد أكله ونومه تحت رحمة النظام الذي ترتبه له والدته لا على حسب ارادته هو ، وان رغباته مع قلتها وسعى أهله في قضائها لا يستطيع نيلها كلها

وكما تقدمت به سنة كلما كثرت حاجاته وتقيدت حريته . فما كان يباح له في السنة الاولى من حياته يحظر عليه فيما بعد ، ومن سنة الى سنة تزداد المحظورات التي مهما يقاومها فلا بد له في النهاية من الرضوخ لمعظمها

محور العالم كما يراه الطفل هو « أنا » أى نفسه وذاته . ونفسيته الوحيدة هو أن يشبع نفسه من ملاذها ويقبها من الآلام والأوجاع . ففى نظره لا قيمة لقوانين الهيئة التي تحيط به ، وينتظر أن تتكيف لكي توافق مزاجه . ولكن أوامر والديه ومريه وسلطتهم عليه تمرنه تدريجياً على ملاحظة الحقيقة التي تخالف ذلك وهى أن سنة الكون تتطلب منه مراراً أن ينكر ذاته ويكبح بعض ملاذه ويتعود احتمال بعض الآلام .

هذا أمر لا يرغب فيه الطفل ولذلك تراه باستمرار يقاوم السلطة التي ترغمه على عمل يكرهه . وإنما فى مقاومته يرى انه بازاء الذين حوله أصغر حجماً وأضعف قوة فيدرك حقيقة أخرى وهى عجزه — عجزه حتى عن الكلام الذى به يعبر عن نفسه .

وهذا الشعور ، الشعور بالقلّة والعجز (inferiority) يؤلم نفسية الطفل . ومن طبعه الغريزى أن يسعى وراء القوة التي تمكنه من غلبة من هم أكبر وأقوى منه . ولا يمضى عليه وقت طويل حتى يلاحظ أن البكاء والعويل وسيلة تمكنه من التعبير عن بعض حاجاته ، ويجوز أن يستعمله سلاحاً يرغم به أهله على العمل بموجب ارادته . ومن ثم يتبادى فى بكائه وعويله لينفذ رغباته ويقاوم أوامر والديه ، وأولئك الذين ينزلون على ارادة الطفل اسكاناً لبكائه يفعلون ذلك لمجرد شفقتهم عليه لكثرة بكائه

وإذا لم يوفق الطفل فى تجربته الى أرغام أهله للنزول على ارادته اسكاناً لبكائه وأتبع فى تربيته طريقة نظامية حازمة فانه بسهولة يتمكن من تناسب الظروف التي تحيط به . وإذا استمرت هذه الخطة متبعة معه طول مدة طفولته فانها تربي فيه من صغره ملكة تكيف نفسه لتناسب مع كل الظروف . ومن هذا تتولد الشجاعة وعدم تهيّب المسؤولية والثقة بالنفس والاعتداد بالذات

أما اذا كان الطفل سيئ الحظ واستطاع التسلط على والديه بيكائه فيتهاونون فى أخذه بالحزم لطفولته . وإذا كان الوالدان ممن يتصورون أن استعمال الحزم والشدة فى تنظيم حياة الطفل وتربيته ارهاق وتعذيب له ، ويعتقدون أن الطفل صغير لا يدرك

فلا يجدون داعياً للاهتمام بتربيته في مثل هذا السن المبكر فانه ينشأ على فطرته ولا هم له إلا إشباع نفسه بملاذها وابعادها عن الآلام . فتنمو هذه الخصال معه ونرى آثارها السيئة في شبابه ورجولته إذ تقف حجر عثرة في سبيل نجاحه . ويحرم بذلك فرصة التمرين على تكييف نفسيته وملاذه لكي تناسب حالة الجو الذي يعيش فيه فينشأ قليل الثقة بنفسه وتنقصه قوة المثابرة على العمل

أما اذا أجبِر الطفل على النضال ضد نفسيته الخاملة ووفق في جعلها مناسبة للحقائق التي تواجهه فان النضال والمثابرة يصيران جزءاً من طباعه ، وتتولد فيه عقيدة راسخة في مقدرته . وهذه هي بذرة الثقة بالنفس وهذا هو ميعاد زرعها

قد أشرت الى شعور الطفل بعجزه وقلته (inferiority) عند مقارنته نفسه بمن حوله وتألمه من ذلك وسعيه للتخلص من تحكم والديه فيه ونجاحه أحياناً في تسلطه عليهما بسلاح البكاء . وعند ما يكبر هذا الطفل يصبح قادراً على القيام بأعمال لا تغضب والديه فقط بل تكون مؤذية ومضرة مثل اتلاف أشياء ثمينة أو تعريض نفسه وغيره للاخطار . ويرى والديه أنه لا بد من منعه مراعين في ذلك عدم اغضابه فيلجأون الى احدى وسيلتين ، إما اغراؤه بالوعود الخلابه أو اجباره بطريقة التخويف لينصاع لنصائحهم . فالاولى تكون بوعده بمكافأة حسنة اذا أطاع الامر وهذه وخيمة العاقبة لأنه كثيراً ما يكون الوالد غير جاد في وعده بل للاغراء فقط وليس عنده نية الوفاء بما وعد . فهذه علاوة على انها تعلم الطفل أنه ليس مرغماً في حياته على تأدية أى عمل الا اذا رغب فيه أو كوفي عليه فانها أيضاً تنبهه الى أن والديه لا يبران بوعدهما له وبهذا يلاحظ فهما الكذب فيخسران ما لهما عنده من كرامة وهيبة واحترام . والوسيلة الثانية وهي تخويفه بتسليط قوة جبارة لتعذيبه اذا هولم يطع الامر ولزيادة ارهابه كثيراً ما تستعمل اسماء قوات خفية لا وجود لها كالبعبع والعفريت . والخوف هو سلاح ينصاع له الطفل مرغماً لشعوره بقلته وعجزه عن صد الأذى عن نفسه

ولكى نرى في الفرد الشجاعة والثقة بالنفس التي تهيئه لمعاركة الحياة بنجاح علينا أن نخلصه في طفولته من شعور القلة والعجز الذي يستولى عليه . أما التماهى في تخويف الطفل لاختضاعه فهذا مما يولد فيه الرهبة ويثبت في نفسيته الشعور بالعجز وهذا الشعور يلزمه طول حياته ويحمله دائماً على التراجع والتهيب والهرب من كل جديد ، ومن

كان هذا شأنه فهو لا يرى في نفسه الكفاءة لمواجهة الحياة ولا المقدرة على حمل أعبائها. أرجو المعذرة اذا أطلت عليكم الكلام في شرح نظام تكوين أخلاق الفرد فأهميته لكشف الستار عن موطن الضعف الخلقى ومعرفة سبب وكيفية تكوينه التي بدونها لا نصل الى علاج مجد ، وعلاقته بموضوعي الليلة يضطراني لذلك . ولتمة هذا الشرح بقيت لي كلمة أقولها عن الشعور بالقلة والعجز في الطفل وآثارها في الرجولة .

الطفل في بداية حياته يعتمد اعتماداً كلياً على والديه ويخرج من هذه الحالة تدريجياً الى أن يكمل خلاصه منها ويتم له في رجولته استقلاله وقوة اعتماده الكلى على نفسه اذا أحسن التصرف في تربيته طفلاً وحدثاً . والحالة بالعكس اذا كان الوالدان من ضعاف القلوب الذين يبالغون في حماية طفلهم ويحوظونه بسياج من شدة الحرص فيمنعونه من محاولات الكثرة التي تمثل في نشاطه وحركته المستمرة ليختبر قوته . فتراها يمتنعان منها خوفاً عليه من أن يصاب ببعض رضوض جسمية ثم في حادثته يزبلان من طريقه أو يذلان له الصعاب التي تعترضه بدلاً من أن يتركاه يواجهها ويعالج التغلب عليها ولو ببعض المساعدة . والأم في معظم الاحيان هي التي تعمل هذا مدفوعة بشدة حنانها وكثرة محبتها غير عالمة بأن هذا النوع من المحبة والحنان هو ألد عدو له واكبر سبب في إبدائه وعجزه في رجولته ، إذ ينمى فيه الشعور بالقلة والعجز . وبذلك تحرمه فرصة التخلص منه في صغره . وهذا الشعور وان كان لا يضعف الذكاء لكن تظهر آثاره السيئة في ضعف الاخلاق

ليس ما يعيننا به الاجنبى اتهامه المصرى بالخنول والكسل ونقص الشجاعة الادبية وقلة الصراحة ؟ ضعف الارادة والخوف والهرب من المسؤولية وعدم المثابرة على العمل والرغبة في الانتقام ؟ فكركئيس يقال عنه انه محاب غير عادل - مرآش ومحب لذاته - تغلب عليه أنانيته فيضحى بمصلحة الغير والمصلحة العامة في سبيل مصالحته الشخصية . واذا كان حازماً يكون شديد القسوة على مرؤوسيه بغير داع . وكرؤوس يتهمونهم بالتملق والكذب والحسد ويرمونهم بكل النقائص .

وبعض هذه الصفات الممقوتة - كما اجتهدت أن أوضح الليلة - من آثار ونتائج اهمال تعويد نفسية الفرد على تسكين ذاتها لملاءمة حقائق الكون أو ارغامها على ذلك بطريقة التخويف . والبعض الآخر هو رد فعل للشعور بالقلة والعجز الذي اذا لم يستأصل في الصغر يبقى مستولياً على النفس طول حياتها فيؤلم كبرياتها

لا أقول أن هذه الصفات ليست فينا وإنما أقرر حقيقة ثابتة إذا قلت أنها توجد في كل أمة مهما كانت عظمتها ورقبها وهي تتفاوت نسبياً بين الأمم. فإني وإن كنت لا أنكر أن نسبة وجودها فينا هي أكثر مما في الأمم الغربية إلا أنني أعتقد أن تفشيها عندنا ليس بالدرجة التي يبالغ بها بعض الأجانب المغرضين أو الذين يجهلوننا أو بعض المصريين الذين يقارنون أخلاقنا بأخلاق بعض الأمم العريقة في المدنية التي كثيراً ما يجهلون حقيقتها. ثم يحكمون علينا حكماً قاسياً — هؤلاء اكتفى بأن أقول لهم أنه ليس من الانصاف أن تحكموا على الأحداث إذ ليست لهم حكمة الشيوخ وليس من العدل أن تقارنوا من تعرفونه جيداً بمن لا تعرفون منه الا ظاهره

وحيث أن للبيت الذي يربي الطفولة المنزلة الأولى في تربية الأخلاق وهي المؤهلات التي نحتاجها ونشدها فدعنا الآن نبحث المنزل

لا أبالغ في القول إذا قررت أنه لا توجد عندنا وحدة تقليدية يصح أن نطلق عليها « المنزل المصري » لئلا يؤدي لنا المعنى الذي نعنيه بقولنا « المنزل الانجليزي أو المنزل الفرنسي » بل حياتنا المنزلية والاجتماعية خليط غريب لا قياس له ولا وحدة فيه. فإذا أردت مثلاً تعريف « المنزل المصري » أراي مضطراً لتعريف أنواع شتى تختلف تبعاً لرب البيت سواء كان فلاحاً أو متعلماً قروياً أو متحضراً. خرج جامعات إنجلترا أو فرنسا أو خريج مدارسنا الأولية. فكل من هؤلاء له مزاج يختلف تمام الاختلاف عما عداه من مواطنيه وكذلك يختلف نظره إلى ماهية المنزل وطريقة تنظيمه له اختلافاً قلما تجد له مثيلاً في أمة أخرى. فوجود شكل محدود يدعي « المنزل المصري » معدوم وإن لانعدامه أسباباً طبيعية وتاريخية كما أن له آثاره السيئة

ما هو المنزل ؟ — المنزل هو بناء تسكنه العائلة جمع كثيراً من وسائل الراحة والتسلية وحوى الترغيبات التي تجذب أفرادها إليه فيقضون فيه أطول مدة ممكنة راغبين لا مرغبين ولطول عشتهم بعضهم لبعض تتوطد بينهم أواصر المحبة والاحترام المتبادلة والناشئة عن فهمهم بعضهم البعض فهماً حقيقياً فتنشأ بينهم رابطة متينة تجعلهم أبدأ يحنون إلى ذلك المنزل لما يحويه من ذكريات جميلة

هذه هي الفكرة الأساسية للمنزل والغرض الذي يبنى عليه وإن هو اختلف في شكله وفي تقاليده وكيفية العيش فيه باختلاف الأمم تبعاً لجو البلاد وذوق أهلها وطبائع شعوبها

واختلاف دياناتها . ولطبيعة أى بلاد تأثير كبير فى تكوين منزلها — فلو القينا مثلاً نظرة على الممالك الشمالية التى يشتد فيها البرد والصقوع ويكثر فيها الأمطار والضباب مما يزيد حاجات الفرد ويجعل كسب العيش فيها عنسراً . نرى جلياً كيف أن طبيعتها القاسية تضطر أهلها إلى تحصين أنفسهم فى منازل محكمة تحمىهم أذى التغيرات الجوية وترغمهم على المكث فيها معظم أوقات فراغهم ولهذا السبب يهتمون ببناء المنازل وتجميلها وتنظيمها ويبالغون فى أعدادها بكل وسائل الراحة . ويجهد أفراد كل عائلة أن يفهم كل منهم الآخر ليستطيعوا أن يعيشوا معاً فى سلام ووثام

أما بلادنا فبختلاف تمام الاختلاف عن ذلك فطبيعتها لم ترغم أهلها على تجمعهم فى مساكنهم حتى ينظموا لأنفسهم عيشة بيتية خاصة بهم يمكن تسميتها « المنزل المصرى » كما حدث فى البلاد الشمالية بل أن طبيعتها شجعتنا على عكس ذلك لأسباب كثيرة أخص منها بالذكر

(١) حرارة الجو فى التى جعلت السكان يفضلون العيشة الخلوية وحملتهم على قضاء معظم أوقات فراغهم خارج مساكنهم وفى الفضاء حيث النسيم العليل والهواء البارد (٢) سهولة أرض مصر ، وكونها بلداً زراعياً يروى بالفيضان الذى يغمر أرضها مدة طويلة من الزمن كل سنة حتم على سكانها بناء مساكنهم فى أراض مرتفعة انقاء غمرها بالفيضان النبلى السنوى . ولقلة الأراضى المرتفعة ارتفاعاً طبيعياً ولصعوبة رفع الأراضى المنخفضة بطريقة ردمها اجبر سكانها على تشييد مساكنهم فى مساحات صغيرة اقتصاداً فى الأرض مكثفين بالحد الأدنى الضرورى وحتى الى ما دون الضرورى فى أحيان كثيرة ومن يلقى نظرة عامة على قرانا يرى النتيجة ظاهرة فى زحامها وتلاصق بيوتها الصغيره وعششها التى تشبه خلايا النحل

(٣) افتقار البلاد الى المواد الأولية للبناء كالخشب والأحجار

فهذه الأسباب الطبيعية وفقر الأهالى كانت فيما مضى حائلاً كبيراً فى سبيل بنائهم منازل يمكن أعدادها بوسائل الراحة وصارفاهم عن اهتمامهم بتنظيمها وتجميلها نفلت من وسائل الراحة وأدوات التسلية الكافية التى تجذب أفراد العائلة إليها

وبجانب الأسباب الطبيعية توجد أسباب تاريخية واقتصادية تعاونت معها وشجعت على انعدام المنزل المصرى أذكر منها

(١) العقيدة الدينية — فلسفة قدماء المصريين الدينية قللت جداً من اهتمامهم بالحياة

الدنيا وصرفت عنايتهم الى الحياة الآخرة ووجهت كل قوتهم الى بناء قبورهم ومعابدهم لا الى التفكير في بناء منازلهم. حتى أننا إذا استثنينا حالة أو اثنتين لا نجد بين آثارهم الكثيرة المدهشة آثاراً لبيوتهم

(٢) الحالة الاقتصادية — المصريون كشعب لم يكونوا في أى زمن من الأزمان أغنياء بل اذا استئنت الملوك والأمراء والكهنة وبعض المقربين اليهم أيام الفراغة يمكننى القول إنهم كانوا دائماً فقراء على رغم شهرة البلاد في جميع العصور بثروتها العظيمة التي كانت بالأسف قاصرة على الحكام والمستعمرين

(٣) وقد يسألني البعض عن تأثير المستعمرين في بناء المنزل المصري ومنهم من اهتموا بمنازلهم كالرومان مثلاً فانا نرى ما كان أقل اختلاطهم بالأهالي ما عدا العرب . والعرب كما تعلمون قوم رحل لا يهتمون كثيراً ببناء المنازل

أيها السادة : هل بعد ملاحظة اجتماع هذه العوامل الطبيعية والتاريخية والاقتصادية تدهشون لعدم وجود منزل مصرى . طقس حار يدفع الناس الى العيشة الخلوية — فلة وجود أراض صالحة لبناء المنازل . عدم توفر مواد البناء في البلاد . فقر عظيم حال بينهم وبين استجلابها من الخارج . أليست كل هذه التأثيرات عوامل كافية تسبب انعدامه ؟ . هذا ما كانت عليه حالة منزلنا الى عهد قريب وما زالت الى اليوم على ما كانت عليه عند السواد الأعظم . وانى ارجىء الكلام عن المنزل المصرى الجديد ريثما أتحدث اليكم عن تأثيرات هذه الحالة التي دامت آلاف السنين في أخلاقنا .

من الطبيعي للرجل الذى يشغل طول نهاره في عمله أن يبحث في نهايته عما يسليه ويروض نفسه . كما أنه من الطبيعي أيضاً أن المنزل الذى يحوى أحب الناس إلى نفسه يكون أول ما يتجه اليه فكره لتحقيق هذه الأمنية ولكن للأسباب التي ذكرتها وهى التي جعلت منزله خلواً من أسباب التسلية والراحة التي يذندها أضطر الى البحث عنها خارج المنزل

ولما كانت واجبات المرأة من إعداد الطعام وحياسة الملابس وتربية الأطفال تحتم عليها المكث في المنزل على رغم سوء حاله نشأت عادة مكث المرأة في المنزل وخروج الرجل منه . وألف كل منهم هذه الحالة ونظموا اجتماعهم على هذا الأساس دون أن يلحظ الرجل أن في تصرفه هذا أى شذوذ ولا ترى المرأة فيها غضاضة على نفسها — وعادة كهذه

دامت عشرات القرون ولها مبرراتها ليس من الغريب أن نراها ثابتة في عقول الشعب ومتسلطة عليه وهذا هو الأساس الذي بنيت عليه حياتنا العائلية

الآن ابحث مدى تأثيرات هذه العادة السيئة فينا و يتناول بحثي العلاقات الآتية :

(١) علاقة الرجل بزوجته وعلاقة زوجته به

(٢) علاقة الوالدين بأبنائهم

(١) علاقة الرجل بزوجته وعلاقة زوجته به

لا حاجة لى أنؤكد لكم انى فى كلامى لا أقصد أن كل عائلتنا على النمط الذى اصفه وانما هو الشائع فى معظمها

الرجل الذى يصرف طول يومه فى عمله ومعظم أوقات فراغه يتسلى ويتسامر مع اخوانه خارج المنزل أو داخله بمعزل عن امرأته انما يقصر عيشته البيتية على نومه واكله. وعيشة هذا نظامها لا يتسنى معها للزوجين معايشة بعضهم البعض الوقت الكافى ليفهم كل منهما الآخر فهما يضمن لهما السعادة الزوجية كما يكفل لهما التعاون على المعيشة كشرىكين متساويين فى الحياة

بموجب هذا النظام تقيدت حرية المرأة وحجزت فى المنزل وتكونت فكرة الرجل عنها كزوجة الغرض منها أن تلد له اولاداً يحفظون احمه وتقوم بخدمتهم وخدمته هو ايضاً ونظرت هى اليه كزوج وانه هو الرئيس المتسلط عليها ومعينها وعائلها

واذا كانت هذه هى نظرة الزوجين بعضهما الى بعض أستغربون اذاً عندما ترون النفع المادى مقياس الزواج عندنا ، فالرجل يكفيه أن يعرف عن المرأة انها غنية وعلى قسط من الجمال ويكفى اهلها أن يعرفوا عنه انه ينتمى الى عائلة تتناسب مع مركزهم

(٢) علاقة الوالدين بأبنائهم

قلت فى أول موضوعى أن السنوات الأولى من حياة الطفل هى أهم سنى التربية وان المنزل هو المعهد الوحيد الذى يتعهدده والآن أقول أن الأم هى التى تقوم بالقسط الأول والأوفر من هذه التربية

والأم المصرية التي يهملها زوجها جرياً على العادة التي أشرت إليها تشعر بأنه ينقصها العطف الزوجي فتستعيض عنه بالعطف على طفلها. ولذلك تبالغ في حنانها وحرصها عليه وللدلالة على حبها له تنزل دائماً على ارادته التي كثيراً ما تنافي مصلحته

جاءتني ذات مرة سيدة متعلمة ومعها طفلها الرضيع وبمعدته التهاب حاد فأشرت عليها بعدم ارضاعه شارحاً لها أن الرضاعة قد تسكن ألم المعدة نوعاً ما لسخونة اللبن ولكن في الوقت نفسه تجهد المعدة المريضة فتزيد مرضها. وبعد يومين جاءتني ثانية وحالة طفلها أسوأ مما كانت قبلاً لاستمرارها على ارضاعه كلما بكى وكان جوابها لي على دهشتي أن قلبها الأموى لا يحتمل سماع صراخ وعويل طفلها المستمر وأن ليس لها غلظة القلب الكافية لتنصاع لنصيحتي. وبعبارة أخرى فضلت إيذاءه على احتياها عويله وبكائه. وهذا واحد من كثير مما يحدث كل يوم بأشكال مختلفة من إيذاء الأم لطفلها لوقاية نفسها من الألم النفساني متذرة بالحنان الأموى. فالأم المصرية التي تتحمل كل ألم جسماني وكل خسارة مادية في سبيل ابنها كثيراً ما تضحي به عن غير معرفة وبغير عمد تفادياً مما يؤلمها نفسانياً. فصبرها على سهر الليالي الطويلة ومقدرتها على خرماتها نفسها كل لذة في سبيل ابنها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نزولها على ارادته التي هي في الغالب ضارة به كي لا تراه يتألم وفي ألمه بالطبع ما يؤلمها إنما يدل كما ترون على أن هذا الحب أو هذا العطف غير مجرد من حب الذات وأثرة الأم لأنها بتصرفها هذا تضحي بمصلحة ابنها لترحم نفسها من الألم النفساني.

معذرة أيها السيدات والسادة لهذا القول الصريح فاني لا أقصد به اهانة الأمهات ولا الخط من كرامتهن. واني أعرف جيداً أنهن لا يعتمدن الأسادة إلى أطفالهن فتصرفهن هذا هو من نظام العقل الساهي أو العقل الباطني الذي لا يدركه العقل الواعي. وقد تعمدت التصريح به على الرغم مني فكافيه ايلام للنفس فيه أيضاً صلاحها وذلك للأسباب الآتية :-

(١) اذا أدركت المرأة المصرية التي اعتقد فيها النبل مقدار ما تحنيه على طفلها بهذا النوع من الحنان فإنها لاشك تقلع عن هذه العادة وتعود نفسها على احتمال الآلام النفسية أيضاً

(٢) أن هذا النوع من الحنان والعطف يتعارض مع ما يجب من الحزم والنظام لغرس أخلاق قوية متينة في الطفل

ما ذكرته الآن هو علاقة الأم بابنها كطفل وحدث وهي كما رأيتم مبنية الى حد ما على استعاضة عطف بعطف ومتأثرة بحب الذات أيضاً — وفيما يلي علاقتها به كشاب ورجل تؤكد لكم صدق هذه النظرية .

ترون دائماً أن الأم بحكم حنانها تحرص كل الحرص على أن يظل ابنها بجوارها حتى في شبابه ورجولته وفي هذا ما يعوق تقدمه ويقلل من اقدمه . وترون كذلك أنها تجتهد ما أمكن في تزويجه بجوارها لتحول دون استقلاله في عيشته الزوجية . وإذا رأت منه كثرة العطف على زوجته تكثر من لومه وتعنيفه بدافع الاثرة والغيرة وهذا كما لا يخفى يكدر صفاء العيشة الزوجية ويحول دون بناء البيت .

والآن أنتقل الى بحث علاقة الأب بابنه ... الأب كما رأينا في علاقته الزوجية إكتسب احترامه باستعمال سلطانه لا بطريق تبادل المحبة والتفاهم . وبنفس الوسيلة تراه يسعى لا كتساب محبة واحترام أولاده أيضاً .

وبهذه المناسبة أذكر لكم قصة قروى سمعته ينصح اخوانه بأن أحسن وسيلة يكتسب بها الأب احترام أولاده هو أن ينشئهم دون أن يكتر من رؤيتهم والأم الحكيمة هي التي تطعمهم مساء وترسلهم الى فراشهم قبل رجوع الأب من عمله وبهذه الطريقة يكبرون متهيئين ذلك الوالد اذا لم يعاشره طويلا .

وهذه القصة تدل على نوع التربية المبنى على الارهاب الذي يلجأ اليه الآباء لكسب احترام أبنائهم ولهذا يحجزون على حريتهم ويرغمونهم على الطاعة العمياء دون ابداء آرائهم حرة طليقة في حضرتهم . وبهذا يحرم الآباء من الاحترام الحقيقي الذي ينشأ عن تبادل المحبة والتفاهم والاحترام المبنى على الرغبة لا الرهبة .

الحزم غير القسوة وكثيرون من الآباء يخطئون الفرق بينهما فيستعملون القسوة عوضاً عن الحزم ... والحزم مطلوب في التربية لأنه ينشئ أخلاقاً متينة صلبة ويولد هبة واحتراماً بخلاف القسوة التي تبث روح الرهبة والخوف .

والحزم والنظام لا يتوفران في منزل فيه الأم تكثر من العطف والحنان والأب يتشدد ويقسو فيه . الأب يحظر أشياء والأم تبيحها . فيه الوالدان كالشريكين المخالفين لكل منهما طريقة في التربية تخالف الآخر مما يخلق في الطفل صفة التردد .

جو كهذا خال من الحزم والنظام فى التربية يحول بلا شك دون تعويد الطفل على التوفيق بين مزاجه وحقائق الكون ويعوق تخلصه من شعور القلة والعجز .
أرانى أسهبت فى وصف المنزل المصرى القديم وما اجتمع فيه من عوامل سيئة لا يزال بعضها قائماً فى المنزل الجديد الذى أتكلم عنه الآن .

المنزل المصرى الجديد

رأى الشعب المصرى فى نهوضه الحديث أن حالة منزله لا تتماشى مع رغباته ولا تصل به الى ما تنوق اليه نفسه الكبيرة فمن عهد قريب جداً فكر فى تغييره وتنظيمه على اساس يوافق هذه الروح الجديدة محاولاً أن يتخلص من الموانع الكثيرة التى أسلفت ذكرها وغيرها مما اذكر بعضها الآن .

سكان المدن وذوو اليسار من أهل القرى بدأوا بتشيد منازلهم هندسياً ومعمارياً فأتموها كما هو ظاهر للعيان على أجمل شكل شائق . ولكن داخلية المنزل الذى يتحتم فى أعداده تعاون المرأة والرجل لا يزال ينقصه الشكل الذى يؤهله لأن يؤدى الغرض المطلوب منه لما بينهما من فوارق وللتأثيرات الموروثة التى ما زالت متسلطة . والآن أحاول أن أبحث مدى تأثير كل منهما على حدة ، مبتدئاً بالمرأة لأن لها القسط الأوفر فى ذلك .

البت المصرية أهمل تعليمها الى زمن قريب جداً بخلاف الولد الذى سبقها فى ذلك بسنين عديدة . وما يؤسف له جداً أن تعليمها ابتداءً وهو باق فى معظم الحالات على منهج وبروجرام يختلف تمام الاختلاف عن منهج تعليم الولد .

مع اعتقادى فساد خطة التعليم عندنا . ارى انه ليس لهذا أثر كبير فى تقليل اعتزاز النشء بقوميته ولا تحقيرها فى عينيه بخلاف ما هو متبع فى طريقة تعليم البنت فى مدارس أجنبية مما اصف أثاره فيها الآن .

تبذل الأمم اهتمامها ببث روح العظمة القومية بتعليم النشء لغة البلاد وآدابها وتاريخها المجيد لترك فى نفوسهم أحسن الأثر يلازمهم طول حياتهم ويكسب اجتماعهم صبغة قومية . ولكن معظم المدارس الأجنبية التى نأتمنها على تربية بناتنا تسمى الينا جداً باهالها تعليمهن هذه المواد . ولست فى هذا منكراً جميلاً ولكننى أقرر الواقع الذى ينبغى أن يصلح

فمعظم هذه المدارس تعلم نباتا لغة وتاريخ دولة أجنبية ، مهمة كل الإهمال لغة وتاريخ بلادنا . وترية كهذه يضاف إليها بعض القشور من العلم يبتث في البنت روح التعاطف والازدراء لقوميتها ويكون حائلا بينها وبين البيئة التي نشأت فيها . ويترتب على هذا شعورها بأنها من قومية أضعف وأقل شأناً من قومية المدارس التي تعلمت فيها مما يؤلم عزة نفسها . وفي اعتقادي ان هذا من الأسباب المهمة التي تدفعها للبالغة في اهتمامها بالظواهر ... فلنكي تحمى نفسها من هذا الالم العميق الصامت تراها تسرف في لباسها وفي تجميل ما هو ظاهر للغريب من منزلها . كأنها بذلك تقول لمن تخاف أن ينظر إليها نظرة ازدراء انها لا تقل عنه شأناً .

فترى غرف الاستقبال مثلاً ، وغرف الطعام وكل ما هو معد في المنزل للاضافة يجهز بأجل الأثاث لينال إعجاب الضيف لا لراحة أهل المنزل التي يجب أن تكون الغرض الاساسي والاولى ... وللظهور بهذا المظهر تراه يحرمون أنفسهم وأطفالهم التمتع بها فيزدحمون في أصغر غرف المنزل وأقلها راحة وجمالاً كما هو مشاهد في معظم البيوت . فالتربية المنزلية كما أبنت لكم تشعر البنت بالقلة والعجز ، والمدارس الاجنبية التي تستطيع تقليل هذا الشعور أو تخليصها منه ترى معظمها يزيده تأكيداً في نفسها بتلقيها ما يثير إعجابها بما عليه النساء الآخر من التفوق عليها ، وما هن من تاريخ مجيد يضاف اليه جهلها بتاريخ بلادنا وما فيه من مجد . كل ذلك يجعلها تتصور انها من سلالة حقيرة وجنس ضعيف ... مع أن تعليمها تعليماً عملياً يقنعها بمقدرتها على القيام بأعمال لها قيمتها ، مما يخلق فيها شعور اليقين بالمقدرة ويوطد فيها الثقة بالنفس ويزيل منها الشك في كفايتها وصفة الضعف والتردد التي استولت عليها ... وما أشد إيلام النفس لاحساسها بهذا الشعور ! — شعور القلة والعجز الذي نرى أن حب الظهور هو رد فعل له وأثر من آثاره يحاول به المرء اخفائه حتى عن نفسه لو استطاع .

فالاهتمام بالظواهر هو في الحقيقة نتيجة لما نلاقيه من الفشل لا سبب من أسبابه وهو أيضاً نراه متمثلاً في اجتماعنا عموماً كما هو في حياتنا المنزلية . والاسراف فيه يحول دون التنبه الى الجوهر .

فهل بعد هذا نعجب لكثرة اختلاف منازلنا ؟ وقد نشأ كما رأيتم عن كثرة تقليدنا للظاهر من منازل الامم المختلفة .

وهل نلوم البنت المصرية على اندفاعها في حب الظهور ؟ وهل ندهش لاسرافها فيه مع ما نعلم من عزة نفسها وكبريائها ؟ .

حقاً انى ألتمس لها العذر . وأقدر فيها تلك الرغبة وذلك الذكاء الذى دفعها الى انشاء منزل اجتهدت ما أمكنها فى تحسينه وتنظيمه وادخال أنواع السرور والتسلية فيه ليكون شائقاً يجذب اليه زوجها ويغريه بطول المكث فيه . وخلقها لنفسها مكانة محترمة أرغمت الرجل على منحها بعض المساواة به اذن يجب على ناقدىها الذين لم يفهموها حق الفهم أن لا يتبادوا فى لومها بل أن يسعوا فى خلاصها من قيودها الثقيلة . وان ما لها من ذكاء وما فيها من رغبة لفيه كل الكفاية للنهوض بها الى مساواتها بخير نساء العالم .

الرجل

يجهتد الرجل مع الأسف الشديد أن يحمل المرأة تبعة انحطاط المنزل . فهو ينظر الى سعادة البيوت الأخرى هنا وفى البلاد الأجنبية فيغبط أصحابها عليها ويتمناها لنفسه ، ولكن حبه لذاته وعدم رغبته فى التضحية ، التى بدونها لا يمكن الوصول الى معيشة منزلية سعيدة ، يمنعانه من التعاون مع زوجته على تحقيق هذه الأمنية وتراه دائماً ينتحل لنفسه المعاذير لتبرير ما يلاقه من خيبة ، محملاً المرأة تبيجتها لتأخرها على ما يزعم . وهو بهذا يريد نتيجة ويهرب من معاوتها على الوصول اليها .

نسمع كثيرين من الشبان ينددون بطريقة الزواج فى مصر قائلين انها غير مبنية على التعارف والتفاهم المتبادلين . ولكن عند ما تعرض لهم هذه الفرصة تراهم فى نزاع نفسانى شديد تتقاسمهم إرادة الارتباط بمن يرونها توافقهم فى مزاجهم وتعاونهم على الحياة . وإرادة الحرية فى أن يعيشوا عيشة الاستهتار والملاذ خارج المنزل منغمسين فى لذاتهم . وتراهم آخر الامر يفضلون الإرادة الثانية لما فيها من حرية وحب المال والذات معاً . ومن هذا يتضح لنا أن الرغبة الحقيقية فى تكوين المنزل غير متأصلة فى نفوسهم ولذلك تراهم لا يعملون لها باخلاص حقيقى .

في أوقات الفراغ

لو تحدثت الى المصري عن أحسن وسيلة يقضى بها أوقات فراغه أجاك أحسن جواب لأنه ذكى ويحيد التفكير ولكنه يعجز عن تنفيذ فكرته إذ تعوزه المؤهلات الخلقية لتحقيقها . ولو استطاع أن يفعل كما يستطيع أن يفكر لأصبح خير رجال العالم .

وإذا ذكرتم أن نوع تربيته تركه ينشأ فيه جزء كبير من نفسية الطفولة الأولى التي تسعى وراء اللذة فقط ، دون تعويده التضحية التي تمكنه من تنظيم حياته وتكييفها بما حولها من حقائق الكون ، وذكرتم أيضاً أن نوع هذه التربية يشعر بالضعف والعجز الذى فى فطرته ويزيد عليه التخويف والارهاب ، فلا تستغربون إذن وجود هذا النقص الذى تنميه فيه طبيعة بلاده الهادئة بجوها الجميل وتربته الخصبه التى لا تجبره على الكفاح وطريقة تعليمه التى لا تساعد كثيراً على التخلص من هذا الشعور .

ومن كانت هذه نشأته فهل ينتظر منه الاطمئنان الى مقدراته والثوق بكفايته والاقدام على العمل ؟ . كلا لا ينتظر منه الا الشك والتردد والاحجام ويترتب على ذلك اتكاله على غيره فلا يبذل كبير جهد فى طلب العيش وبالأحرى لا يشغل أوقات فراغه . بل يسعى فى تحصيلها فى لهو ولعب لا يتطلب منه مجهوداً ولا تضحية هذه نقائص يؤلم الشاب المصرى أن تؤثر عنه فيجتهد فى اخفائها حتى عن نفسه ويعمل على التوفيق بين نشأته ورغبته فيحاول أن يهرب ما استطاع مما يذكره بعجزه وضعفه حماية لكبريائه . . . فتراه دائماً يهرب من منزله الى القهوات والملاهى لتنسيه التفكير فى نفسه وأهل بيته منقطعاً عن كل عمل منتج فى أوقات فراغه خشية الهزيمة التى يتهيب منها والتى لم يعود نفسه الشجاعة الكافية لمواجهتها .

هذا ضعف فى خلقه يقضى النظام العقلى إخفاء عما سواه حتى عن نفسه الواعية ابقاء على كرامته وعزة نفسه فتراه لاخفاء هذه الحقيقة المؤلمة يسرف فى كل شئ فى فرحه وحزنه . فى مدحه وذمه . فى غيرته وانتقامه . فى قسوته وضعفه . وتراه يبالغ ما استطاع فى تحميل نفسه . وتنسيق هندامه .

وبما يزيد الاسف أن شغله الشاغل فى أوقات فراغه ينصرف دائماً الى انتقاد والديه ،

وأولى الأمر ، ورجال حكومته لعدم إعدادهم له ما يضمن نجاحه كما يريد ويشتهي . ويلقى الذنب عليهم لما صادفه من فشل . وهذه أيضاً طريقة للهرب من الحقيقة تدل على أنه لا يختلف في رجولته عما كان عليه في طفولته . ففي هذه كان كل اعتماده على والديه وفي تلك تراه معتمداً عليهما أو على من يقوم مقامهما من أولى الأمر .

العلاج

كنت أود أن أعدد حسنات الشباب المصرى التى ساعدته على النهوض بهذه السرعة الغربية مما يدعو إلى الإعجاب ولكنى اقتصر على تعداد نقائصه لأننى أريد إصلاحها ما استطعت كما أسلفت القول فى صدر مقالى هذا . وذكرت أيضاً ان هذه النقائص لا تخصنا دون سوانا بل هى عامة فى جميع الشعوب لأنها وليدة فطرة الطفولة . وحيث ان الأمم العريقة فى المدنية تسعى لتخليص شعبها من مثل هذه النقائص بجميع الوسائل فنحن أحرى منها ببذل هذا السعى لأنها عندنا أكثر مما هى عندهم . وحاجتنا الى اصلاحها أشد من حاجتهم .

والآن يجب أن أقول كلمة عن علاج المشكلة الاجتماعية ذاكراً بإيجاز ما أراه مفيداً وضرورياً : —

(١) درس اخلاق الطفل لمعرفة أحسن طريقة مجدية لتربيته : هذا الموضوع الخطير طويل جداً ومتشعب الأطراف . فحبذا لو أنشئت جمعية تهتم له وتنشر عنه النصائح العملية للوالدين الذين يجهلون تمام الجهل ليعملوا بموجبها فى تربية أطفالهم

(٢) مساعدة الشباب على التخلص مما نشأ فيهم من عجز ونقص وذلك بأمرين أولاً — إدخال التحسين اللازم فى منهج تعليمهم مما يؤدى هذا الغرض ثانياً — إنشاء جمعية تبحث مواطن الضعف التى تركتها تربيتهم الأولى فى أنفسهم لتصل الى إيجاد أحسن الوسائل للتغلب عليها ثم تذيب معلوماتها على الوالدين والمعلمين والمربين الذين لا يعرفون عنها شيئاً كثيراً كي يهتدوا بها فى تمكين الشباب من التغلب عليها

٣ (تنظيم قانون للقهوات — وكلنا يعرف كثرة عددها عندنا وكم تغرى الرجال بالاعراض عن أعمالهم ومنازلهم . فلو أن قانوناً يحدد عددها لما رأيت هذه الكثرة من الرجال تلجأ اليها بل تراهم ينصرفون الى أعمالهم ويلجأون إلى منازلهم .

هذا الموضوع — جليل الخطر وهو أطول وأكثر تشعباً مما أطمع في الالمام به والاحاطة بأطرافه وكل ما أطمع فيه أن أكون قد وفقت الى إثارة الاهتمام بهذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة .





حضرة الآنسة مى

الفن والادب في حضارة مصر اليوم

لحاضرة الانسة مى

توطئة

ختم المرحوم الأستاذ كلبيان هيار المستشرق الفرنسى ، كتابه فى تاريخ «الادب العربى» ،
(١٩١٢) بقائمة للصحف والمجلات التى صدرت خلال القرن التاسع عشر — ونقول عرضاً ان تلك القائمة لا تخلو من الخطأ فى نسبة بعض الصحف الى غير أصحابها وفى التاريخ الذى عينته لصدور صحف غيرها . ثم عقب على كتابه الهام بكلمة بمجلة نقد فيها الادب العربى كما كان قبل ثلاثين عاماً وأشار الى بعض ما ينتظر منه فى المستقبل . فقال فيما قال :
« عرضنا فى الصفحات السابقة صورة لآداب شغل ازدهارها ونضوجها وانحطاطها
ثلاثة عشر قرناً ، منذ مطلع القرون الوسطى الى يومنا هذا . ثم أنسنا فى الجذع القديم
تجدداً بفعل الأفكار الحديثة وبفضل انتشارها ، ووجدنا أن طائفة من فروعها حملت
أزهاراً — فضلاً عن ذلك الغصن العارض الذى تطعم به ، أعنى الصحافة الدورية . فأى
مستقبل يتبأ لهذه الثقافة المتجددة ؟ أتجىء محض تقليد للعصور المدرسية (كلاسيك)
أم اللغة ، وقد أرغمت على التحول والتطور لترجم عن أفكار طريفة ، ستغنم من قى
التعبيرات ما يحرك رواكد المستودع القديم باعثاً فيه نسمة الحياة ؟

« نخيّل لأول وهلة ان أوساطاً للنشاط الأدبى كالقاهرة وبيروت ، لهى جذيرة باخراج
أدباء يتابعون الحركة التى بدأت على يد أسلافهم فى القرن التاسع عشر . . . وبأى الأدوار
تقوم اللغة ؟ أتحول وتنمو فتصبح أوفر وضوحاً وأقرب الى جماهير أنصاف المتعلمين
المتخرجين من المدارس الابتدائية ؟

« الجواب لمن بحث هذا الموضوع لا يستطيع أن يكون إلا نفيّاً ، لأننا لا نلحس فى

قطر من الأقطار ما يشبه تلك الحركة التي تناولت اللغة التركية إبان الثلاثين عاماً الماضية فخرتها من بيانها العتيق . ما فتئت اللغة العربية غارقة في الاستعارات القديمة وهي لا تستعمل بالتبع سوى جمهرة من التعبيرات التي لا يتأتى فهمها إلا لأهل الثقافة ... مما يحول دون اتصالها بالعامة لتحديثها بما يهملها من الشؤون . إن مقالة سياسية « تحترم نفسها » (كذا) لا يمكن أن تكتب بغير النثر المسجع . وبلاغتها التافهة العقيمة ، ومرادفاتها الرامية الى محاكاة مقامات الحريري إنما هي للقارئ المثقف أفكوهة ليس إلا... « أما ما نود أن تأخذه اللغة العربية في المستقبل فهو جلاء التعبير وبساطة الأسلوب . فإذا جاء يوم يحقق هذه الأمنية استطعنا التنبؤ بعهد جميل للآداب العربية . . اه

(١)

اللغة في دور التطور

نقلت هذه الفقرات لأنها تقرير لما كان واقعاً في ذلك الوقت . ولم يتفرد كاتبها بالنقد بل ساهمه فيه المستعربون من زملائه الأجانب وكان الألباء من أدبائنا أنفسهم أبعد إمعاناً في تبيان العيوب . وقد تعمدت نقلها لأنها تعين حقبة من الزمن نذكرها فلا نخجل . ففي ما يوازي الوقت الذي شهد فيه الأستاذ هيار اللغة التركية بالتقدم ، أى في ثلاثين عاماً لا غير ، تفلتت العربية من كثير من الحشو واللغو والتلظز والغلو البديعي والابهام الذي كان يشينها في دور الجمود . وهذا تقدم يذكر في نظر الباحث المنصف ، نظراً للوراثية اللغوية الباهظة التي ترهق أدباء هذه اللغة . في ثلاثين عاماً تطورت عندنا أفلام ، ونضجت أفلام ، ونشأت أفلام فكان همها جميعاً أن تعمل كل بوسائلها وفي بابها لتخلق أدباً جديداً . والاعترام أول مراتب النجاح . بيد أن النجاح في نواح هامة من البيان جاز مرتبة الاعترام الى دور الاتاج والتحقيق

ولما كان هذا البحث قاصراً على مصر قلت ان المقابلة ولو السطحية بين طائفة من المقالات نشرت إحداها قبل ثلاثين عاماً وتنشر الأخرى في هذه الأيام — تلك المقابلة كافية ليتضح أن أول ما يسترعى الانتباه في النشاط الفكري الجديد هو أسلوب الكتابة . لقد تجردت اللغة في كثير من الكتابات الحديثة ، مما كانت تخفى به افتقارها الى الفكر

الحى والعاطفة الحية . والسجع الذى كان أفكوهة للقارىء المثقف ، بات كبواقى الاطلاع المنزوية التى يجب أن تجد فى البحث عنها لتهدى اليها . . .

اول بواعث التطور

الثقافة الحديثة كانت أول بواعث هذا التطور . فهي التى نهبت الأدباء الى حالة العالم اليوم ، وعلى ضوئها رأوا ماضيهم المتنوع العظيمة ولحوا مستقبلهم كيف يمكن أن يكون . وهى التى لفتتهم الى إمكاناتهم وأفهمتهم أن لا وسيلة لاستغلال تلك الممكنات بغير النشاط والعمل . وهى التى قالت لهم ان الذى يكتفى بما هو فيه قد يكون مومياء نفيسة توحى الى العلماء الرغبة فى البحث والاستقصاء ، ولكنه لا يستطيع أن يزعم أنه العقل المولد والكائن الحى . وبالجمله كانت الثقافة الحديثة المقتبسة عن الغرب أول أدوات التعديل والاصلاح فى يد المستيقظين . واذا استيقظ امرؤ من سباته ظهر فى صوته وفى تعبيره ما ينم على يقظته من الفكر المنتظم والقول المنسجم والبيان المباشر مع إعراض عن اللغو والتفكك والغموض القمين بالذين يتكلمون فى نومهم . . . ان كلمة الحياة تختلف عن كلمة الموت

اللغة والصحافة

تجرد واندثار من الناحية الواحدة ، فى حين اللغة من الناحية الأخرى تزيد كل يوم رشاقة ومرونة وتوسعاً بما تضمه اليها من الكلمات والاسماء والتعبيرات المتطابقة وحاجتها . والصحافة التى كان الأستاذ هيار يتوسم فيها خيراً - قامت بنصيب وافر فى إحداث هذا الانقلاب . فقد تعددت الصحف وتعددت صفحاتها ، وتنوعت أبوابها وأغراضها فحفلت أعمدتها بالمباحث والموضوعات والآراء ، وانتظم تلقيها المتتابع لأخبار العالم وحوادثه العمرانية والسياسية والعلمية والفنية وغيرها سواء بواسطة التلغرافات العمومية والخصوصية ، أم برسائل مراسليها من الخارج ، أم بما ترى نقله عن صحف الشعوب الأخرى من المفيد والمفكك معاً . فاضطرت إلى اقتباس المفردات الجديدة أو تعريبها أو ابتكارها فى كل عدد من أعدادها تقريباً . وكان لها بطبيعتها أن تذيب وتكرر ما تبتكر

وتعرب وتقتبس وتصوغ فجاءت الفائدة مزدوجة : إذ أن المستحدث من الالفاظ والتعبيرات صار في متناول القارئ كل يوم ، إن هو أخطأه يوماً أو اسبوعاً أو عاماً تغلب عليه حتماً في النهاية فاحتل مكانه من تفكير القارئ ومن تعبيره . وتيسر كذلك لأهل الثقافة وعلماء اللغة مناقشة تلك الالفاظ والتعبيرات واستبدالها بخير منها في معناها ، إذا استطاعوا . والمجلات الشهرية التي كانت قد مهدت لذلك ساعدت هي والكتب الجديدة في تحقيق هذه الغاية . إلا أن القارئ هنا شأنه في سائر البلدان ، لا يتفرغ للكتاب والمجلة الشهرية إلا إذا كان من الاختصاصيين أو من هواة الثقافة ، في حين أن جميع الأيدي تتداول الصحيفة الأسبوعية وبخاصة الجريدة اليومية

والى الصحيفة اليومية يعود فضل تركيز اللغة في مستوى من البیان يرضى الخاصة — الخاصة غير المتحدقة — ويرفع إدراك العامة إلى أفق أوسع وأرقى . حتى ألف أحاديث الصحف ليس خريجو المدارس الابتدائية فحسب . بل ألفها حتى الجمهور الذي يفك الحرف ، يفهم منها شيئاً وتغيب عنه أشياء ، ويذهب طبعاً في اللحن والتكسير على هواه ، إلا أنه على كل حال يحذق أهم ما تبغى الصحيفة إيصاله اليه من الأنباء والمواحيات .

أثر الحركة القومية في اللغة

وليس لمؤرخ منصف أن يغضى عن أثر الحركة القومية في تقريب اللغة إلى أفهام العامة وفي إنالة الاسلوب الجديد ببساطة وحياة . فالحركة القومية التي تلت الحرب الكبرى هزت في مصر جميع النفوس ، وحفزت جميع القوى ، وجعلت الأمي كالمتعلم يتطلع الى مماشاة الحوادث في سيرها ليكون دوماً على أهبة للاشتراك مع بني وطنه في إعلان العاطفة الوطنية وتأييد المطالب القومية . والكتاب كالزعماء الراغبين في جمع القلوب حولهم ، كانوا يشعرون بوجوب التمشي على منهج لا يستعصى على أحد فيسبكون أقل ما يمكن من الافكار الجوهرية في أقل ما يمكن من الالفاظ البسيطة والصنع المؤثرة لتستقر في الضمير العام بلا غناء فيتخذها الصغير والكبير أنشودة للحماسة والاخلاص . ومن ثم ، أي منذ الحركة القومية . نشأت تلك العادة التي ما زالت شائعة في هذه الأيام ، وهي اجتماع برابرة الدار الواحدة في حلقة حول بواب الدار وأصحابه والمختلفين اليه ،

فيتولى أحدهم قراءة الجريدة والآخرون يصغون في اهتمام وانتباه . ولا ينفذ جمعهم الا بعد تبادل الآراء في ما يسمعون ويقرؤون .

وقامت المعارضة السياسية والخلافات الحزبية بدور فعال في تطور اللغة . لأن الأدباء والكتاب الذين اشتركوا بطبيعة الحال في النضال السياسي اتخذوا صحف أحزابهم منبراً لدعائهم ، وكلُّ يغى التفوق على مناهضيه في المناظرة اليومية التي لا تهدأ ولا ترحم . ومضوا يلتمسون أساليب حية سريعة ملتبة ، سخرت فيها البديهة الحاضرة وسعة الاطلاع وتنوع الحيلة وبراعة التعبير لاصابة المرمى . فتمخض كل ذلك عن بيان ليس هو ابن قرون وأجيال ، بل هو وليد يومه ومستوحى ساعته . وتلك المشاحنات الاليمية — على عديد مساوئها — كانت دافعة إلى تجنب الرواكد القديمة والاستسقاء من الينابيع الحية . وفي ذلك دليل آخر على انه في الامكان دائماً استخراج الخير من الشر بوجه من الوجوه

من الجدل السياسى الى البحث الأدبى

قد يقال ان مثل هذه المشاحنات لا تمت الى الأدب بصلة . صحيح . ولكن الاستعارات الجامدة والمهللات القديمة كانت في حاجة إلى هذه العاصفة الجبارة التي اكتسحت عجائتها في أعوام قلائل ما قد كان يقتضى لجرفه عمل جيل أو جيلين وبعد ، فمن ذا الذى ينكر أن النفس الفردية أو القومية إذا هي استغزت من ناحية واحدة فلا تلبث عوامل القفظة أن تمشى إلى سائر أنحائها ؟

اولئك الكتاب الذين شغلوا بالنضال السياسى في بادى الأمر ، انتبهوا فوراً الى أن موضوعهم الرئيسى يرتبط بشتييت الموضوعات ، حتى السلبية في الظاهر ، ارتباطاً وثيقاً . وبفس الروح الحية التي كانت تملئ مقالات المناقشة الحزبية أخذوا يعالجون الموضوعات الادبية والاجتماعية والفنية والفكرية مما يعلى المدارك ، ويفتح قوى الملاحظة ، ويصقل الفكر ويثقف الشخصية القومية من مختلف نواحيها . وتبدى لهم وللجمهور الذكى أن الكتابات التي كانت تعد بالأمس « خيالية » و « شعرية » إنما هي في الواقع دلائل على قفظة نفسية بعيدة لا بدت من الوصول إليها . في حين أن ما كان يحسب « بلاغة » و « فصاحة » صار لا يحسن إلا للعرض في متحف الآثار ...

وافتقار مصر إلى شركات الطبع والنشر بحيث أن الكاتب عند ما يشرع في تأليف كتاب عليه أن يفكر أيضاً في كيفية طبعه على نفقته الخاصة ثم في توزيع نسخه على المكاتب — هذه العقبة أيضاً كان لها أثرها في تنوع موضوعات الصحافة ، لأن الأديب والكاتب وجد في الصحيفة أضمن وسيلة لأذاعة فكره وترويجه دون خسارة مالية ودون عناء عقيم . وعليه فإن وجهاً من أهم وجوه تطور اللغة وتطور الأفكار بمصر تجده مدوناً في الصحيفة اليومية والمجلة الشهرية خلال الأعوام الأخيرة . وأجزم بأنه في هذه وتلك أظهر منه في المؤلفات الحديثة — وإن كان لهذه أهميتها الخطيرة وكان بعضها مجموعاً من مقالات ذات موضوعات متناسقة نشرت في الصحف

صحيح ، ولكن ...

تقرير تطور اللغة هو تقرير للواقع ، ولكنه لا يعنى أن كل من حمل قلباً يكتب بالأسلوب الذى وصفت . بل يعنى أن خطوة حاسمة تمت في هذا الباب وإن الوقت ضمير بإصلاح العيوب الباقية . إن أنصار القديم كثيرون جداً وهم على درجات : بعضهم يسرون في حركة التجديد بخذر ، وغيرهم يجارونها في اعتدال ، ويرى آخرون في هذا التجديد الانحطاط كله ولكنوا يندبون حظ اللغة العربية ويصفون لها المراثى شعراً ونثراً لولا أنهم ، لحسن الحظ ، موجودون يجددون بلاغتها القديمة ببلاغتهم ويحرصون على اللبيب الدهرى منكبين كل وقود حديث لتغذيته ! وأسلوب المجددين ليس كله من طراز واحد ، ومنهم من لا يفوز بالتخلص من الاستعارة القديمة وإن ابتكر هو استعارته فهى رجوع لأصداً غير جديدة . إنما يتسم المجددون بالسرعة والرشاقة والحساسية والفكر الملى . وإحكام التعبير إجمالاً . ويحرص أنصار القديم على هندسة الانشاء ومئاته ، وينسقون توازن الجمل وإيقاعها ويدققون في معان وأعراض إضافية لا يتسع لها صبر المجددين ولا وقتهم . والمعارك القلبية التى تنشب الوقت بعد الوقت بين هؤلاء وأولئك تأتى بالترتيب بعد المعارك الحزبية في الشدة والعنف . ومن الغرور أن نزع أن الأسلوب الجديد بلغ منتهى الكمال أو أنه خلص من شوائب الجدة نفسها ، ولكن نزعة الكتاب حرية بالاعجاب وعلام لا نقول أن كلا من الفريقين على حق في الوجود وعلى حق أيضاً في وجهة نظره ؟ فأناصار القديم — كأشباههم في كل أمة وكل زمن — يخفرون تراث الماضى

واقفين من أن الأدب المستحدث لن يأتي بخير منه ولا بما يدانيه . وموقفهم لا يخلو من الفائدة للمجددين لأنه يحملهم على تمحيص نزعتهم وتهذيبها ، وقد يفيد في إرهاف تلك النزعة وفي تعجلها أيضاً . وبخاصة لأنه لا يندر أن يستوحى المحافظون الأفكار الحديثة التي يقاومونها . أما أنصار الجديد فهم الذين يضيفون إلى السجل القديم فصولاً جديدة بلهجة جديدة ، وهم الذين يستأنفون تاريخ اللغة التي عبرت من قبل عدة أطوار خلال القرون الغابرة ، وفقاً لما كانت تتأثر به من ثقافة وتتصل به من حضارة . أترى أدب الاندلسيين هو هو أدب الأمويين بعينه ؟ أو لم يختلف أدب هؤلاء أنفسهم حقبة بعد حقبة في صفحة تاريخهم ؟

والى جانب أنصار القديم وأنصار الجديد طائفة من الكتاب والصحافيين والأدباء جمعت بين محاسن العهدين وهى فى الغالب تفوز بتحييد هؤلاء وأولئك — الا عندما يهاجمها فريق من ناحية اللغة وفريق آخر من ناحية الفكر . . .

(٢)

الأدب الحديث

ليست هى الألفاظ ولا الأسلوب ما يؤبه له فى مسألة اللغة الأدبية . للأسلوب قيمة فى نفسه من حيث هو صيغة فنية ، وما الألفاظ الا تفاصيل فى تلك الصيغة . ولكن الأهمية العظمى فى العقلية والنفسية التى تترجم عنها الألفاظ ويصورها الأسلوب . والعقلية والنفسية فى مصر الحديثة أخذتان فى التغير ، وما الأدب الجديد الا اعراب عنهما . فهو بجوهره قد شذ عن تعريف ابن خلدون القائل ان « المقصود منه (الأدب) عند أهل اللسان ثمرته وهى الاجادة فى فنّ المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم . . . » . الاجادة على أساليب العرب ومناحيهم ؟ هذا ما لا يريده الأدب الحديث لأن مثل هذه الاجادة تخلق الأدب الراوى والأدب المقلد ، لا الاديب المنتج المبدع . وليس هذا الاباء ليعنى الطعن فى أساليب العرب ومناحيهم . بل بالعكس ترى أن أدباء اليوم يعنون كل العناية بدراسة تاريخ الادب وبتحليل شخصيات قدماء الادباء والشعراء وبحث التأثيرات التى أحاطت بهم فى بيئتهم فأوحت اليهم . وقد صدرت كتب عدة فى هذا الباب ، وعولجت شخصيات الشعراء والنثرين وما زالت تعالج فى المحاضرات العامة

وفي مقالات الصحف اليومية وفصول المجلات الشهرية بدراسة وحذق لم نعهدهما من قبل ولكن الأدباء يفهمون تلك الآثار على حقيقتها . يرونها حسنة في ذاتها لتوافقها والوقت الذي كتبت فيه ، لتصويرها العصر الذي أوحاها ، لكونها قطعة حية من الفكر الذي أملاها والشخصية التي رسمت ذاتها فيها . أما إذا قام اليوم فرد يكتب بتلك اللهجة وينتحل تلك العقلية فهو بذلك معنن عاجز عن مجازاة السلف في استعداده للحياة التي هو ابنها ، وفي تلقى التأثيرات الخاصة المحيطة به لتكوين شخصيته وفقاً لعصره .

وقيمة هؤلاء الأدباء الجدد في كونهم حقاً أبناء العصر الذي ولدوا فيه . وأى عصر مدهش هو ، يصطدم فيه حولهم الماضي الذي ما زال حياً في بيئتهم ، بالحاضر القائم والمستقبل المهاجم . في كل بلد من بلدان العالم إجحاف من هذه المفاجئات العلية والاجتماعية والفكرية العاملة على تكييف الأقوام تكييفاً لا يعلم أحد مداه ، مع أن تلك البلدان كان التطور فيها متتابعاً متسقاً جيلاً بعد جيل . أما في مصر فقد بلغ الإجحاف أشده لاستيقاظ الجيل الجديد وقد باغتت فكره ثقافة مليئة زاهرة مكتسحة . فهو يدرك كل ما ينخره إن لم يأخذ بأسبابها ، ولكنه لا يستطيع أن يأخذ بالسرعة التي يبتغيها لأنه من الناحية الواحدة عليه أن يكافح جميع العقبات الداخلية والخارجية القائمة في سبيله ، وهو من الناحية الأخرى لا يريد أن يفقد شخصيته في انتحال الحضارة الغربية بخدافيرها . بل يريد أن يقتبس منها ما يوافق طبيعته وموقفه بين الشعوب ويريد أن «يمصر» ما يقتبسه قدر المستطاع . فلئن وجد الجيل الجديد في يقظته شيئاً كثيراً من بهجة الحياة فهو يجد كذلك أن نصيبه من الحيرة والاضطراب والقلق المسؤولية أكبر . يشعر بالأجنحة تصطفق على كتفيه ولكنه يشعر بالقيود مثقلة يديه وقدميه . ومن مجموع هذه الإدراكات والاحساسات تتكون شخصيته الأدبية الجديدة . وهي فوق ذلك شخصية ذات عزم وشجاعة وأقدام ، غير راضية عما هي فيه ، ساخطة من نتائجها الأدبية تشكو أبداً جمود الحركة الفكرية وترجعها إلى شتى الأسباب . وهذه الشكوى أدل ما تكون على ما يصطخب في النفوس من عديد الرغبات والنزعات

وقد أطلع الأدب عن الموضوعات الكلامية وخاض ميدان الحياة القومية يكتشفها ويحللها وينقدتها مشيراً إلى وسائل التجديد والإصلاح في الثقافة والتعليم والاجتماع والاقتصاد وتحرير المرأة وتحرير الرجل أيضاً . الأديب يشعر مع قومه ويتكلم عنهم ، يستوحىهم ويملي عليهم ، يأخذ منهم ويعطيهم ، يتلقى منهم صامتاً الفيض والخصب ويمدهم في

كتاباته بالخصب والفيض . ينظر في حاجتهم وأملهم وفرحهم وعيهم وأملهم فيستلهم حبة قلبه وبمجموعة مطالعته واختباراته ليدلهم على وسائل النهوض . إنه لأدب شائق متحمس حار غيور . وعندى ان بينا هذا المجهود يكون شخصية الأديب ويمكنه من استغلال قدرته وانماها فهو كذلك يقود القارئ إلى استكشاف نفسه ويبعث فيه الشوق إلى استغلال قدرته الشخصية ، ويعينه على تكوين شخصيته الخاصة . وهكذا بفضل الأدب الجديد تتنوع الشخصيات في المجموع ، بدلا من أن تكون كلها على غرار واحد شأنها في الأمم التي هي في حالة البداوة والفطرة . ويخيل الى أن هذه الخدمة هي من أهم ما يقوم به الأدب الحديث

(٣)

نظرة عجيلى فى أقسام الأدب

الأدب الحديث فى جوهره أصبح الآن فى مصر منه فى كثير من البلدان الأخرى حيث شغلوا بمشاحنات لا طائل تحتها حول ما يسمونه المذاهب الأدبية . فلا رومنتيكية عندنا ، ولا رمزية ، ولا مستقبلية ، ولا غيرها . الخصومات تدور حول الجديد والقديم بما سبق ذكره ، وإن نشطت الخصومات فى التطرف تناولت موضوعاً طارئاً أسماه الأدب المستور والأدب المكشوف . وفى ماعدا ذلك فالنزعة العامة واحدة رغم التفاصيل الثانوية القليلة

الشعر والنثر

الأدب النثرى يسبق الأدب الشعرى بمراحل . الصعوبة التجديد فى الشعر العربى ؟ لست أدرى . ولكنى أدرى أن كثيراً جداً من القصائد التى تنعتها كسلا أو بجمالة بالعصماء قد كان يمكن أن تنظم فى أى عصر من العصور الغابرة . وما زالت قصائد والمدح ، شائعة عندنا . وإذا استثنينا فئة صغيرة من الشعراء المطبوعين الذين يستوحون موضوعات جديدة ويطلقونها فى نفس جديد ولو فى صيغة قديمة فى الغالب — فيمكننا أن نقول بأننا لا نلمح فى الشعر الحد الحاسم الجلى الذى نراه فى النثر . ولئن انضجت الحركة

القومية عدة مواهب شعرية فانها لم تخلق شاعراً واحداً تفرد بحجروته الفنى فأرسل الصيحة التى تغزو القلوب وتفتح النفوس فتحاً مبيناً .

فنحن فى هذا والشعوب الاخرى سواء ، لاتنا لا نعرف شاعراً واحداً جباراً خلقته الحرب فى أية لغة من اللغات . بل القحط الشعرى يبدو فى كل مكان . وقد يكون هذا راجعاً الى روح العصر الذى نعيش فيه ، وقد يكون النثر الفنى صيغة أوفق لاختبارنا الشعرية فى هذه الايام

وانما هناك ملاحظة لها أهميتها الاجتماعية ، وهى أن الشعراء يخاطبون المرأة فى قصائدهم بضمير المؤنث ، وقد كانوا من قبل يستعملون فى مخاطبتها الضمير المذكور . وقد أطلع كبار الشعراء عن الاساليب المألوفة فى المدح والمفاخرة ، ولكن قصائد الرثاء تجري أنهاراً كلها غمض امرؤ عينيه ليمضى الى بارية . ولما كان الموت على رقاب العباد ... !

أما النثر فهو الذى يبدو فيه الخصب والتنوع والثروة والحياة ، وخلالها ترسم الشخصيات الادبية ، وهو الرسالة الادبية العالية التى تبدع ابداعاً فى هذا الطور الحاضر . ولا أظن أن اللغة العربية فى أى عصر من العصور السالفة عرفت مثل هذا التنوع الذى نشهده اليوم . فالموضوعات الادبية والسياسية والاجتماعية والقانونية والعلمية والتهدئية والفنية والتاريخية شئ مألوف يقع تحت أنظارنا كل يوم ، ومنها ما يضاهاى أحسن ما يكتب فى صحف الغرب دقة وإحكاماً فى رشاقة ولباقة . والمقالة تفوز بالجائزة — لو كان هناك مسابقة — بين سائر أقسام الادب . ويجارى فن المقالة فن الخطابة والمحاضرة فهو اليوم فى مصر أرقى ما يكون ، بل قد يبدو لك تدرجه عاماً بعد عام من حسن الى أحسن . ومن دواعى السرور أن المرأة أيضاً تعلى المنبر وتخطب فى الجماهير الغفيرة فلا تكون أقل تأثيراً من أمهر الخطباء وأشهرهم ، حتى فى موضوعات عصية . والمسئلة والمسيحية فى هذا سواء . وهناك الكتب المترجمة والمؤلفات العديدة فى كل فن وخبر ، تبحث فى الاجتماع والتاريخ والادب والفلسفة والاخلاق والعلوم الفنية . وغيرها وصف جميل للرحلات والاسفار ووصف لعادات الشعوب واخلاقها ووسائل تقدمها ، وغيرها ذكريات شجية وترجمة عن حالات نفسية . وغيرها يبتكر أدباً للاطفال يستوحيه المؤلفون من قصص الشرق القديمة وأحاديث رحاليه ، أو يقتبسونه عن آداب الغرب ... والرواية كذلك تحصى هنا وهناك ، ولكن فن الرواية يتطلب وقتاً آخر

للتضوج . لأن الرواية تخلق عالماً تاماً مستقلاً في ذاته له خصائصه وسيكولوجيته وجوه ونزعاته وفكرته الخاصة ووجوده المتصل بمحيطه المنفصل عنه في آن واحد . فهو يتطلب من العزلة والسكون ما لا قبل لأدبائنا به في هذا الوقت لانهما كهم في عدة موضوعات في آن واحد ، وعند ما ننظر الى كثرة ما ينهب وقتهم من المشاغل نعجب كيف استطاعوا أن يؤلفوا هذه الروايات على قلتها ونعجب من وفرة ما ينتجون . أما القصة الصغيرة فقد تقدمت بالعدد أختها الكبيرة . وقد قصر بعض الكتاب

نشاطهم عليها فنجحوا خصوصاً في القصة الوصفية وستليها حتماً القصة السيكولوجية ولا مندوحة عن أن يجاهد الأدباء في وضع الرواية العصرية لوصف هذه العادات وتسجيل هذه التقاليد في مجتمع هو سائر بطبيعة الحال نحو العادات الأوروبية . فالحجاب يتناثر شيء منه كل يوم ، ووجوده وحى كبير للاديب المستعد لتلقى هذا النوع من الوحي . وهذا الفن الروائي لو هو وجد بمصر يصبح فريداً في بابه بين صنوف الروايات العصرية بسبب هذا الحجاب نفسه وبسبب جميع الحوادث السيكولوجية التي تخلقها في النفس صعوبة اللقاء بين المحبين — ما دام الحب هو « الحبكة » التي لا تقوم لرواية قائمة بدونها ، مع ما يستفزه من خفايا الطوية ويعلنه من غامض الأسرار

كذلك نفتقر الى النقد وإن كان ما يكتب في النقد غير قليل . ولكن أكثره إما يرمى إلى المجاملة والثناء واما يبغى الطعن والتحقيق . ويندرجداً البحث النقدي الزيه الدال على تمام استيعاب الناقد لموضوعه وعلى اكتمال نضج شخصيته من نواح شتى . والغريب أن نفس الكتاب الذين يجيدون في نقد كاتب غربي وتحليل شخصيته يكونون أقل اجادة وبخاصة أقل اصابة عندما يبحثون شخصية أدبية مصرية حديثة . وعندى أن الناقد البارع روائي على نوع ما ، وأن الرواية والنقد ان هما تحاذيا اليوم في تخلفهما فسيكونان كذلك متحاذيين في تقدمهما . لأن الكثير من خصائص الناقد السيكولوجية هي نفس خصائص مؤلف الرواية

الأدب الشعبي أو أدب العامة

في مصر أدب يجب أن لا يهمل ، هو أدب العامة الذي ندر من عني به من الأدباء ، مع انه قادر على اخراج جنى خصب طلى لواهتم كل كاتب بحكايات مديريته واقلية

فدون ما يقتناشده الشعب الساذج في حفلات الأعراس والمآتم ، وما ترويه الرواة عن أبطال القرون الغابرة . غير أن فرعاً من ذلك الأدب في ازدهار ، أعنى الزجل ، الشعر العامي الجميل الذي يفصح عن الروح المصرية برشاقة وطلاوة وباللهجة المصرية لهجة التخاطب العادي والمحادثة اليومية . وقد تألفت حديثاً ، رابطة الزجالين ، قرب عدة جماعات أخرى أدبية وثقافية — أخذ الله ييدهم جميعاً !

إن لكل إقليم بيانه الأدبي المروى الذي يترجم عن الروح القديم في أساطير وأناشيد باللغات العامية ، وحكايات تضمنت اعتقادات سرية مقبلة عن أعماق الدهور ، وذكريات حب وحنان وتضحية وتفجع ، ونفثات شعرية ذات سحر مستغرب حضان . ألحان الشعب وأساطيره وحكاياته تعبر عن خلقه المقيم وصبره واحتماله وتحدث عن عبقرية الفطرية وعن آماله وأحلامه . ومن الخسارة الفادحة أن تهمل تلك الآثار وتلك الألحان لأنها صائرة شيئاً فشيئاً إلى النسيان والفناء

(٤)

الفن

الأدب النثرى أرقى الفنون جميعاً وأنضجها وإن كان بعض الفنون أوسع رواجاً في الجمهور وأقرب إلى تذوق العامة . وهاك ترتيب الفنون بموجب رقيها وتقدمها :

١ — التمثيل ، ٢ — النحت والرسم والتصوير ، ٣ — الموسيقى

التمثيل

هذا أظهر الفنون في مصر تقدماً . وقد برزت فيه شخصيات موهوبة عرفت أن تكسب الأدوار التي تمثلها روعة وتنوعاً واستطاعت أن تبعث فيها نفحة حيوية غنية . والتمثيل يرتبط بالأدب وبالتأليف المسرحي وبالحركة الفكرية والاجتماعية ويتطور اللغة . فطلق الممثلين والممثلات فصيح بالاجمال ، وأوضاعهم المسرحية في تقدم محسوس . وقد ترجمت إلى العربية روايات من غرر الأدب المسرحي في العالم فجاء بعضها متطابقاً

والأصل الذي نقلت عنه ، و مصر ، غيرها تمصيراً ليتفق وذوق الجمهور ، ومسوخ غيرها مسخاً . وقد عني جماعة من المؤلفين بوضع روايات باللغة العربية فنجح بعضها نجاحاً عظيماً ، وكان للرحوم شوقي بك الفضل في استحياء موضوعات قديمة من تاريخ مصر وتاريخ العرب وصوغها في روايات مسرحية شعرية ونثرية . ويمكن القول ان التأليف المسرحي الآن في حالة التكون . والنقاد المسرحيون أبرع في ملاحظاتهم وانتقاداتهم من نقاد الكتب الحديثة .

وقام في الأعوام الأخيرة التمثيل السينمائي يسابق التمثيل المسرحي وهم الممثلون في المسرح الذين يسابقون أنفسهم على الشاشة الفضية : فما أشق هذه الجهود وما أكبر هذا الاقدام ! وهم يعنون في ادخال آثار مصر الفرعونية أو آثار الاسلام بمصر وغيرها — في كل رواية سينمائية تقريباً وصف العادات والتقاليد خلال تلك المناظر المتعاقبة ، ولكن الى الآن لم نر رواية واحدة مستكملة النضج السيكلوجي والفني . يبدو أنه يمكن البت في أن التمثيل السينمائي المصري لن يقف عند هذا الحد

النحت والرسم والتصوير

باستثناء فرائد فنية وموسيقية سبقت التقدم المسرحي من حيث كمال الصنعة ونضوج الفكرة — يمكن ترتيب المنتوجات في هذه الفنون الثلاثة بعد الفن المسرحي وقبل الفن الموسيقي . في المعارض السنوية الرسمية كما في المعارض الجزئية العديدة تستطيع أن تهتدي الى شخصيات فنية هي على ثقة من وحيها ومن مقدرتها في اتقان الصنعة معاً ، فترى أنها تتقدم عاماً بعد عام في احكام الصلة بين وحيها وبين افصاحها عنه

وعدد المشتغلين بهذه الفنون كل سنة في تزايد وليس التقدم ليبدو في الكمية وحدها بل في الكيفية أيضاً . يشهد بذلك الذين زاروا أول معرض أقيم من هذا النوع قبل ١٤ عاماً ، فهم يزورون معارض اليوم فيسبحون الله ولا يبطرون ! ولئن كان الفن الى الآن يستوحى الصناعة الأوربية والفكرة الأوربية فالفنانون يميلون الى اخراج موضوعات مصرية . وعلام لا تنطق يوماً الوراثة القديمة الكامنة في فنانى هذه البلاد فيبتكرون فناً حديثاً هو غير فن الغرب ؟

الموسيقى

الموسيقى الوترية أرق من الموسيقى الصوتية . فن العازفين من يعزف بفطرتهم الموسيقية وبسليقته الطروبة . ومنهم من يتبع الأساليب الحديثة التي روجها نادى الموسيقى الشرقى من ضبط الألحان بالنوتة وتوقيعها على أصول الثقافة الموسيقية فى الغرب ، وهو تجديد لم يعهد من قبل فى تعلم الموسيقى العربية

ويتسنى لك أن تسمع من بعض « التخت » أو جوقات الموسيقى الوترية أو من أفراد الضاربين على مختلف الآلات — عزفاً هو فى منتهى الجودة والاتقان . لولا أن بمجموعة الألحان تستمر غالباً على وتيرة واحدة ، وليس من الميسور أن تميز الفرق بين القطعة وأختها ، فكهن يتشابهن فيما يبدنن مما يثير الملل عند الملم بالموسيقى الغربية الذى ألف فيها التنوع والتفنن والتلوين الى مدى لا يحد

أما أقرب الفنون الى الجمهور الكبير من مختلف المراتب فهو الموسيقى الصوتية ، والناس على اجتماعات الطرب والانشاد أشد اقبالا منهم على أية حفلة فنية أخرى ، ويرون فى الحفلات والسهرات قصصاً وجفافاً إن لم يشجها الغناء ويلقى فى جوها عاطفة الشجن الشرقى التى لا توصف . وانما ترتكن الموسيقى الغنائية فى مصر على صوت المغنى أكثر من ارتكانها على فن الغناء . وهنا أصوات جميلة حنونة مؤثرة ، إلا ان أحسن ما نشده فى نظرى هو الادوار القديمة بألحانها القديمة بما فيها المواويل والقصائد الغزلية . وأكثر ما يسمونه « تجديداً » فى الغناء خير له أن لا يكون . لأن بعضه مقتبس عن الموسيقى الغربية التى لا تعتبر من الفن فى شئ بل هى من النوع التافه (musiquette) ، والبعض الآخر تطويل وتبسط وإعادة وتكرار . ما زالوا يمدون فى الآهات وقتاً طويلاً جداً ويعيدون « يا ليلي يا عيني » فى تبسط وتراخ يستحيل معه الصبر لأعصاب تنظمت للطرب المحكم . بيد أن الجمهور يحب ذلك التطويل المخدر للأعصاب ويستلذه ، والمنشدون يماشون ذوق الجمهور ولكنهم لا يشفقون فيه العاطفة الفنية ولا مقدرة لهم على ازدياد تلك العاطفة وانهاضها من ثقافتها الدهرى . وعلى ذلك ما زال العاشق فى الأغاني يسهر الليل مناجياً النجوم بموضوع حسرتة وجواه ،

وما زال قلبه يذوب وروحته تكتوى بنار الغرام والمحجوب— ما أقساه ! — لا يرحم المقيم المسكين ! والعذول — لحاه الله ! — ما زال واقفاً بالمرصاة يريد الايقاع بالعاشقين !

والمغنون يحملون نفوسهم فوق طاقتها لأن كلا منهم يأبى الا ان يكون منشداً وملاحناً في آن واحد ، وهو أمر لا يتفق مع قانون تقسيم العمل ولا مع الموهبة الفنية . فالانشاد شيء والتلحين شيء آخر ، وقد يكون الملحن صاحب صوت غير حسن وغير قابل للتوقيع المطرب . ولم يشذ عن هذه القاعدة من كبار الموسيقيين في الغرب الا النفر اليسير

ولكن ما لا ينكر هو الجهود العظيمة التي يبذلها أهل الفن . وان لم يسد الى الآن شيء يصح أن يسمى تجديداً بمعنى التقدم في نظر الناقد الخبير فذلك راجع الى صعوبة هذا التجديد في موسيقى لا قائمة لها الا بالنغم فقط ولا تقبل طبيعتها التطرق الى فن اصطحاب الأنغام الذي قطعت فيه موسيقى الغرب شأواً بعيداً . ومهما ضاعفت الآلات في الاركسترة أو ضاعفت الأصوات في النشيد فأنت لا تكون الا مقوياً النغم الواحد ومفخمه . وهذا مشكل كبير لا حل له الا بتنوع النغم تنوعاً بارعاً ينزع عنه ما يرافقه عادة من التراخي والملل على أن يبقى له التكهة الساحرة ذات العوارض الخفية الدقيقة التي تحتفظ للموسيقى الشرقية بطبيعتها الخاصة . ثم يجب الاكثار من الأناشيد الحماسية في موضوعات مشوقة تستولى على قلب الجمهور وتعلمه التجاوز عن الموضوعات الغرامية الكثيرة الى ما لا صلة له بالعشق والغرام والدلال والنوح

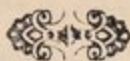
الخلاصة

الخلاصة ان الحركة الأدبية والفنية في مصر شيء ذو وجود محسوس ، في بعض نواحيه تقدم وفي بعض نواحيه تأخر وهو في نواحيه الأخرى بين بين . غير أن النشاط لا يمكن إنكاره .

والصورة التي رسمتها هنا مطابقة للواقع في تقديرى وأنا لم أعتبر في الأدب والفن الا كونهما تعبير عن الروح الجديدة الناجمة عن اليقظة القومية ، هذا التعبير الفني والأدبي الذي هو من أدل الدلائل على ثقافة قوم وحضارتهم وعلى مبلغ ما اكتمل من تكون مجتمعهم . والفن والأدب يدلان على أن المجتمع الجديد هو فعلاً في حالة التكون . وهذه

الحركة سائرة الى الامام بلا ريب بفضل انتشار التعليم وتنوع الشخصيات والاحتكاك المتتابع بالحضارة الغربية والاشتراك اقتصادياً وفنياً وأدياً وسياسياً وعلمياً في جميع المشاكل الطارئة على العالم

عند ما نقول قديم يفهم من هذه الكلمة عهد الفراعنة ثم عهد الاسلام ، وعند ما نقول جديد يفهم الحضارة الغربية بوجه عام . ولكن الموضوع في نظري أبعد مدى واكثر ارتباطاً . إذ ليس من بلد كمصر هبطته جميع الشعوب وضربت فيه جميع الحضارات وانتشرت فيه جميع الثقافات واختلطت دماؤه بجميع الدماء . فمن العناصر الفرعونية الى العناصر المكدونية الى اللاتينية فالأغريقية ، فالعربية بتنوعها العديدة ، فالتركية وما كان ينضم تحت لوائها من العناصر العثمانية الكثيرة ، الى عناصر أوروبا الجديدة كلها تقريباً الى غير ذلك مما يحصى ولا يحصى — جميع هذه العناصر تتمخض الآن وتصر في الشخصية المصرية الكبرى . والمصريون الذين زواجوا خلال تاريخهم الطويل شتى الشعوب ، ما زالوا اليوم يزواجون الشعوب الغربية وهذا الامر — على ما يستوجه من الانتقاد في بعض الوجوه — يصب الدماء الشتيتة في دم هذا البلد القديم . فهنا العالم كله في حالة التمسك ، وقد عرف دائماً لمصر السحر في تحويل ما يقبل عليها الى جزء منها دون أن تفقد فيه شخصيتها الصحيحة . وفي هذه الثروة الداخلة من الوجهة الأدبية والحسية معاً ما يمكن من تكوين شخصية رحبية الجوانب ، متعددة النواحي ، غنية نديلة لا نبالغ في القول انها تستطيع أن تلتج نوعاً خاصاً من الثقافة تقف حيال الثقافة العالمية فلا تتضاءل وترجمان هذه الثقافة المرجوة هو اللغة العربية . ويخطئ الذي يتطلب التجديد في هذه اللغة إن هو أراد منها أن تصبح نسخة من أى اللغات الغربية . إن هذه اللغة تمثل عقلية خاصة في وسعها أن تحاذى العقليات الغربية وتفاهم واياها وتأخذ منها وتعطيها ، ولكنها ليست هي ولا يمكن أن تكون . لأنها — وفي هذا أهميتها — مظهر آخر من الحضارة العمرانية وناحية أخرى من النفس الانسانية



الدين وأثره في حضارة مصر الحديثة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ علي عبد الرازق

ليس في الدنيا حضارة نعرفها قامت دون أن يكون للدين فيها شأن كبير أو صغير ، ولا أمة عاشت دون أن يكون لها نوع ما من الدين أيضاً . والحضارة المصرية بنوع خاص تقوم منذ العصور الأولى على الدين وتتصل به اتصالاً وثيقاً بل أن بعض الباحثين الحديثين في تاريخ الأديان يميل إلى أن مصر هي مصدر النظام الديني في العالم . والأمة المصرية بنوع خاص أمة دينة منذ عرفها التاريخ . فقد تحدث هيرودوت عن المصريين وذكر أنهم يتميزون بأنهم أمة دينة ولعل تلك الخلطة التي عرفها هيرودوت للمصريين قديماً لا تزال فيهم إلى اليوم ولا يزال المصريون كما كانوا أمة دينة . ولعل الحضارة المصرية الحديثة لا تزال تقوم كالحضارة القديمة على الدين وتتصل به اتصالاً وثيقاً . والفرق الوحيد أن دين الحضارة المصرية القديمة كان دين ميثولوجيا وأساطير . أما الحضارة المصرية الحديثة فدينها الاسلام والاسلام هو دين مصر وركن حضارتها منذ فجر الاسلام ، لم تتردد مصر في قبوله ولم تتخذ بدله ديناً .

من أجل ذلك يكون لا بد للباحث في حضارة مصر الحديثة من درس العنصر الديني فيها ، إذ هو أقدم العناصر في تاريخ مصر وأهمها ، ويكون الباحث في حضارة مصر الحديثة باحثاً بالضرورة عن حضارة مصرية اسلامية . وبما كانت الحضارة المصرية الحديثة متصلة بالحضارة المصرية القديمة ودينها إلى حد ما وبالحضارة الأوروبية الحديثة ودينها كذلك ، وربما تكون متأثرة بأديان ومبادئ أخرى ولكنها على كل حال ترجع في آخر أمرها اسلامية وتخلص مصرية لا ينبغي أن تكون إلا كذلك ولا أن تعتبر إلا أنها حضارة مصرية اسلامية .

ولسنا نريد فيما نتولى من البحث أن نعرض إلا لما يخص جانب الحضارة المصرية من وجهة النظر الاسلامية ، فاما وجهة نظر الأديان الأخرى فغيرنا أقدر على بحثها وأولى به

والذى نقصد اليه من درس الحياة الدينية فى مصر يقع فى ثلاثة مباحث

- ١ - هل الحياة الدينية تتغير فى مصر وتتطور أم لا .
- ٢ - وإذا كانت تتطور وتتغير فما هى الأسباب التى تؤثر فى ذلك
- ٣ - ما هى طبيعة هذه التغيرات ومدى أثرها ومقدار خطرها

(١) اما أن الحياة الدينية فى مصر قد اصبحت بتغير كثير فى أغلب نواحيها فذلك ما لا ميساغ للشك فيه . وإذا نظرنا الى حالة المدن الكبرى فى مصر لبحث الحياة الدينية فيها وجدنا مظاهر التغير واضحة ، ووجدنا فرقاً واسعاً بين المناهج الدينية وانظمة الحياة فى جيلنا الحاضر وجيلنا الماضى القريب .

كان آباؤنا منذ ثلاثين عاماً أو نحوها يعتبرون الجلوس فى القهوات شيئاً لا يليق بالكرامة ولا يناسب الوقار الدينى ، وكان شيوخ الأزهر الى عصر قريب يبتشون العيون رصداً ليقبضوا على كل طالب يجلس فى القهوة ويقدموه للعقاب ولقد عرفت من آباؤنا من كانوا يتعففون حتى عن غشيان الفنادق وان كانت محتمة ، ويعسدون ذلك عملاً يزرى بالمروءة ، كما نعتبر نحن الجلوس فى الخمار مثلاً عملاً يزرى بالمروءة وسمعتهم وهم اذا ذكروا أوتيل شبرد وهو الذى تعرفون بخامة ورقياً قالوا عنه خمارة شبت . وكانت التيارات فى نظرهم مفسدة لا يغشاها الا أرباب الخاق المريب ولا يشتغل فيها الا ذوو المقام الوضيع . ومن أجل ذلك وضعوا من قدر المرحوم الشيخ سلامه حجازى وأخملوا ذكره ، وكذلك فعلوا مع أهل الموسيقى والغناء أمثال عبده الحولى والشيخ يوسف المنىلاوى أما الرقص فقد كان أثمهم عندهم أكبر من كل خطيئة . لذلك كانوا يجنبون مجالسهم أن يذكر فيها اسمه ويصونون ألسنتهم عن أن تجرى بذكره

أولئك هم الآباء . أما الابناء فامرهم غنى عن البيان . وسألتوا بهم ان شئتم دور السينما والتياترات وصلات الرقص والغناء . أو سألتوا بهم قهاوى الازبكية وعماد الدين أو سألتوا بهم حافظ بك ابراهيم اذ يقول :

أفى الازبكية مثنوى البنين وبين المساجد مثنوى الآب

تلك حال تصدق على الحياة الدينية فى مدائن القطر الكبرى كمصر والاسكندرية . ولكن الباحث يخطئ كثيراً اذا هو وقف يبحثه عند النظر الى هذه المظاهر التى يجدها

في الأمصار الكبرى دون أن ينظر الى ما في الريف والقرى فان الفرق بين الحياتين كبير. فالحياة في المدن صناعية من طبيعتها الحركة المضطربة والتطور السريع . والحياة في الريف زراعية من طبيعتها الهدوء والبطء . لذلك كانت المدن تمثل في أغلب احوالها غلاة الاحرار بينما يمثل الريف في أغلب أحواله غلاة المحافظين

والواقع أن حياة الريف الدينية لم تبلغ من التغير ذلك المبلغ الذي تشاهدونه في المدن حتى لقد يحسب بعض الباحثين أن حياة الريف جامدة لم تتغير ولكن ذلك من خطأ الرأي فالحياة الدينية في الريف على ما فيها من بطء وهدوء قد أصابها التغير وحاتت بها سنة التطور

ومن التغير الذي يبدو هيئاً وهو عند الريفيين عظيم انهم رضوا أن يحولوا بعض الساعات الكبرى في مساجدهم من ساعات عربية الى ساعات افرنجية بعد أن رفضوا ذلك وقاموه زمناً طويلاً وفي كثير من القرى قد رضى أهلها أن يبطلوا تلك البدعة التي درج عليها المؤذنون قروناً عديدة بدعة الصلاة والتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم عقب الأذان وكذلك بطلت في أغلب الأرياف تلك المواسم التي كانت تقام لذكرى موالد الأولياء والصالحين ومن الملاحظ أيضاً أن اعتقاد الريفيين في مشائخ الطرق والأولياء قد أصبح أدنى الى الاعتدال والتهديب من بعد ان كان الناس يتعلقون بهم تعلق العبادة ويتخذونهم وسيلة لشفاء المرضى وقضاء الحاجات . ولعل أظهر ما أصاب الحياة في الريف من تغير هو أن أحاديث العفاريات وقصصهم قد تلاشت أو كادت تلاشي .

لا نريد أن نمضي في سرد ما أصاب الحياة الدينية في المدن والقرى من تغير فأنت احصاء ذلك عسير ، ولقد يكون الذي ضربنا لكم من الأمثلة كافياً ليدلكم على ما أردنا أن نصل بكم اليه من أن الحياة الدينية في مصر تتطور وتتغير .

(٢) وننتقل الآن الى البحث الثاني في أسباب هذه التغيرات ومناشئها . ولا أمل لنا في أن نصل بكم إلى حصر تلك الاسباب والمناشئ حصرأ جامعاً مانعاً يرضاه فن المنطق ، فأن ذلك مطلب عسير . ولكننا نستطيع أن نحاول ذلك على وجه تقريبي لا يخلو من تساهل ولكنه ربما كان قريباً من الصواب .

ومهما تنوعت واختلفت تلك الأسباب والمناشئ فقد يمكن أن نردها كلها أو غالبها إلى سبب أساسي واحد ، ذلك هو أن مصر بجميع مقومات الحياة فيها تتقلب اليوم في سلسلة من التحول والانتقال وتسير في تطورها سيراً حثيثاً

تعلبون أن مصر بطبيعتها أقرب مراكز الاتصال بين الشرق والغرب، وأنها في نظر الأمم الغربية باب الشرق ولا بد لهم أن ينفذوا من ذلك الباب إذا هم اتجهوا شرقاً، وهي في نظر الأمم الشرقية باب الغرب ولا بد لهم أن ينفذوا منه إذا هم اتجهوا غرباً، وتعلبون أن الفلك الدوار قد نقل إلى سماء الغرب كوكب القوة والسلطان من بعد أن أطلعه في الشرق حيناً، وإن الأيام التي يداولها الله بين الناس قد جعلت الدولة للغربيين وكانت من قبل للشرقيين، فعند الغربيين اليوم المال والعلم والقوة، وعندهم الحضارة الغالبة، وهم يولون وجوههم شطر الشرق كما ينظر القوى الطامع إلى الضعيف يريد أن يغزوه ليبسط عليه سلطانه ويستعمر أرضه ويستغل ثمره، وهم بذلك يولون وجوههم شطر مصر لأنها أقرب حصون الشرق إلى الغرب، ومن بسط عليها يده فقد دنت بلاد الشرق من قبضته. والشرقيون يولون اليوم وجوههم شطر الغرب لأن الضعيف ينظر إلى القوى دائماً، ولأن المغلوب كما يقول ابن خلدون مولع باتباع الغالب، وهم بذلك يولون وجوههم شطر مصر، لأن خطر هذا الغزو الغربي قد روعهم فاتجهوا بأنظارهم صوب مصر أقرب حصونهم إلى بلاد الغزاة وأهمها

فصر كما ترون ملتقى نظر الشرقيين والغربيين، وميدان النضال بينهما، وبذلك أصبحت مركزاً من أهم مراكز النهضة الشرقية الحديثة، وخصوصاً بين الأمم الإسلامية، وبنوع أخص بين الشعوب العربية حتى قال الناس عنها حقاً أو باطلاً إنها زعيمة البلاد الشرقية وحاملة لواء الحضارة فيها.

ومصر من قبل أن تتعرض لغزو الحضارة الأوروبية الحديثة كانت أبداً وثيقة الاتصال بالغرب وواسطة ارتباطه بالشرق. فقد اتصلت منذ العصور القديمة باليونان والرومان. ويظن بعض الباحثين أنها قد اتصلت بغيرهم من شعوب أوروبا الشمالية، وما برحت الحياة المصرية منذ القدم تتأثر بالحضارات الأخرى من أمم الشرق والغرب وتتطور دائماً، ولكن تطورها كان في أغلب أحواله تطوراً هادئاً رقيقاً. فأما حين تعرضت لغزو الحضارة الأوروبية الحديثة — تلك الحضارة التي يقوم تاريخها على الثورات العنيفة والانقلابات الحادة، والتي نبتت أصولها في مجارى الدم وعلى هام الشهداء — حين تعرضت مصر لغزو تلك الحضارة أخذ التطور فيها يسير سيراً حثيثاً عنيفاً كان في رأى بعض الباحثين ثورة وانقلاباً

ففى خلال جيلين اثنين أو ثلاثة أخذت المدارس تنتشر فى أنحاء القطر ، فقل عدد
الأميين ، وازاد العلم انتشاراً ، وكثرت الجرائد ، وتداولها القراء فى نواحي القطر . وتمكنت
العلائق بين المصريين وبين الحضارة الأوربية بما استحدث العلم من وسائل قربت على
الناس ما بعد من المسافات والأزمان ، فسهلت المواصلات الدولية ، وتيسر الانتقال فى
البر والبحر والفضاء وتخطب الناس بالتلغراف والتليفون ، وتعارف القريب والبعيد
بالقوتوغرافية والتصوير ، وتقارب ما كان بعيداً بين التفكير المصرى والأوروبى ، وكان
ذلك كله مما ساعد على انتشار نوع جديد من الادب والثقافة ، فظهرت فى مصر بوادر
حضارة قوية جديدة . ونشأ جيل مصرى حديث ينعم من وسائل المدنية والرفه بما لم ينعم
به الاولون ، ويأخذ من أسباب العلم والتهديب بنصيب لم يتوفر من قبل للمصريين .

نشأت مع هذا الجيل الجديد وتلك الحضارة الحديثة ظروف وتطورات اجتماعية كان
لا بد أن تتأثر بهما الحياة الدينية فى مصر وقد تأثرت بهما الحياة فعلاً ، فكان من ذلك
ما رأيتم من الخلاف الشديد بيننا وبين أجدادنا فى مظاهر الحياة الدينية ومناهجها وكان
من أثر ذلك أن أصبح المصريون يتناجون اليوم ويتجادلون فى الغاء الاوقاف ، وترجمة
القرآن الى اللغات الأجنبية ، ولبس البرنيطة ، وتقييد الطلاق ، ومنع تعدد الزوجات ،
وغير ذلك مما يسميه أصحابه اصلاحاً دينياً . ولقد أصدرت الحكومة المصرية قانوناً يمنع
الزواج قبل سن السادسة عشرة ، من بعد أن كان الزواج فى كل سن سنة من سنن المسلمين ،
وكان نصف هذا الدين .

جرت مصر منذ العصور الاولى على أن يكون الحكم فيها شرعياً ، يرجع الى أحكام
الاسلام والاوزاع الاسلامية ، وكان المصريون يفزعون من أن يحتكموا الى غير قوانين
الاسلام . لان الحكم بغير ما أنزل الله كفر صريح فى القرآن . ولكن القوانين قد
أصبحت فى مصر تؤخذ أحياناً من قوانين أوروبا ولا يرى المصريون حرجاً فى أن
يحتكموا اليها ولا أن يخضعوا لها وافقت الفقه الاسلامى أم لم توافقه . ومن قبل ذلك
استطاع الحديوى اسماعيل باشا أن يضرب على المصريين قانون نابليون شريعة لازمة
ويأخذهم بأحكامها أخذاً . وما كان ذلك كله الا خضوعاً لما أسلفنا من حكم الظروف
الاجتماعية والتطورات التى نشأت مع الحضارة الجديدة والجيل الجديد

نشأت أيضاً مع الحضارة الجديدة والجيل الجديد فى مصر ظروف وتطورات فى

الحياة الاقتصادية تأثرت بها الحياة الدينية أيضاً . ولا شك في أن النظام الاقتصادي في أى شعب من الشعوب مؤثر كبير في دينه وفي خلقه .

الاسلام شديد وصرح في تحريم الربا ومحاربة المراهين . والمصريون يمتقون الربا والمراهين ممقاً شديداً ، لان المصريين مسلمون متدينون ولان في طبيعتهم كأمة زراعية أن يتساهلوا في تبادل المنافع وتقارض المال . وكان الربا الذى يكرهونه منذ أقدم العصور شاملاً لجميع أنواع الربا ، فلما أخذوا بأسباب الحضارة الحديثة كثرت مطالبهم ، ودفعتهم ضرورات الحياة الى التماس المال ، فأنشئت بينهم البنوك وصناديق التوفير وشركات التأمين على الحياة وغيرها ، وما لبث المصريون أن أقبلوا عليها . وتعاملوا على شروطها ، ورأينا يومئذ علماء الدين يبحثون في أن الربا المعتدل حرام أم حلال وفي أن استرباح المال في صناديق التوفير حرام أم حلال وفي أن التأمين على الحياة حرام أم حلال .

كانت المحاكم الشرعية اذا ثبت لها ان مسلماً استدان من بعض البنوك لم تقبل له شهادة ، ولم تقره ناظراً على وقف ولا في ولاية ، أما اليوم فقد تبدلت هذه الآلية وانعكست .

ومن بعض ما تشهدون من أثر الحالة الاقتصادية في الحياة الدينية أن عدد الحجاج المصريين نقص في هذا العام نقصاً كبيراً ، وأهم سبب لذلك هو الضيق المالى الذى يعاينه القطر في هذا العام . وربما كان من أثر الحالة الاقتصادية أيضاً ما تلاحظون من خروج النساء الى ميدان العمل ، تضطرهن حاجات الحياة الى التوظف ومزاولة الحرف والصنائع ، وقد استتبع ذلك انتشار السفور ، وقلة احتجاب النساء عن مجالس الرجال ، وكان ذلك مما سهل عليهم أن يجتمعوا معاً في المدارس والحفلات في دور السينما والسيارات ، مع انكم تذكرون ما لقيته دعوة المرحوم قاسم امين الى تحرير المرأة منذ ثلاثين عاماً تقريباً . بقى بعد هذين العاملين الاجتماعى والاقتصادى عامل آخر ، هو أيضاً من أهم عوامل التغير الدينى في مصر ، وهو العامل السياسى

نشأت مع الحياة الجديدة في مصر ومع الجيل الجديد ظروف سياسية جديدة مست الحياة الدينية وأثرت فيها

والسياسة والدين كما تعلمون عنصران متلازمان ، يعتمد كلاهما على صاحبه كل الاعتماد . وذلك ان رجال الدين في جميع الأمم والعصور يطلبون الحكم ، ويريدون أن يكون يدهم زمام الناس يأمرهم فيهم وينهون ، ويحرمون عليهم ويحللون ، فاذا لم يستطيعوا أن يكونوا

هم أنفسهم ولاية الامر وأرباب السلطان التجأوا الى رجال الحكم السياسى، يستمدون منهم القوة، ويتخذونهم وسيلة الى الحكم. والحكام السياسيون من الجهة الأخرى يريدون دائماً أن يكون لهم على قلوب الرعية سلطان دينى، يثبت لهم الحكم ويمكن لهم من رقاب الأمة، وهم لذلك ينتحلون لأنفسهم صفات وخصائص دينية تجعلهم من رجال الدين وتفيض عليهم قداسة دينية وحصانة دينية، لذلك كانوا يزعمون أنهم ينوبون فى الحكم عن الله جل شأنه، وأنهم حماة الدين وحاملوا لوائه، وكانوا يتخذون علماء الدين وأجباره ورهبانه وسيلة الى ما يريدون. وعلى هذا الأساس كانت الخلافة فى بلاد الاسلام سلطة يؤيدها شيخ الاسلام وتجمع بين الحكم فى شئون الدنيا والدين، وكان الخليفة اماماً دينياً وسياسياً معاً، وكذلك كان شأن المسيحية فى بلاد الغرب، فلا يكاد يقوم فيها حاكم سياسى لا يعتمد على تأييد الكنيسة، ولا تقوم كنيسة لا تعتمد على الحكم السياسى والسلطان.

وعلى هذا الأساس أيضاً أرادت القوة السياسية من قديم الزمان أن تحدث لها فى مصر قوة دينية تؤيدها وتعاضدها فأنشأت الجامع الأزهر، وأسبغت عليه اسم الدين، وعلى أهله برزاً دينياً، وما برح الأزهر منذ يومئذ ربيب السياسة وآلة الحكم السياسيين وسندهم.

والحكومات التى تعتمد على قوة الدين وقوة السياسة معاً لا تكون الا مطلقة غير محدودة السلطان ولا خاضعة لرقيب. وهذه الحكومات المطلقة عرضة دائماً لأن تستبد وتطغى. لذلك لبثت البشرية ترزح تحت سلطان هذا الحكم المطلق، الذى يزاوج الدين بالسياسة، وتلقى من تألب الحكام الدينيين والسياسيين شر ألوان العذاب، الى أن ثارت أوروبا تلك الثورة العنيفة الدامية فى وجه ذلك النوع من الحكم، فقوضت أركانه وهدمت قواعده، بما فرقت بين الدين والسياسة أولاً، وبما قللت من سلطان كل منهما ثانياً، ونشرت حضارة أوروبا الحديثة بين الناس مبادئ حرية الانسان وحرية الفكر والديمقراطية والحكم النيابى وأمثالها. فلما اتصلت مصر بأوروبا ذلك الاتصال الذى ذكرنا أخذ المصريون ينجحون الى هذه المبادئ ويعملون لها. وانكم لتعرفون أن المصريين منذ حكم اسماعيل باشا أو قبله يعملون على تحديد سلطة الحكومة، وضبط نظام الحكم على قواعد

الحياة النيابية والدستورية ، ولا يزالون الى اليوم يجاهدون في سبيل ذلك جهاد المؤمن بحقه ، المصمم على الدفاع عنه

تأثرت الحياة الدينية في مصر بهذا التطور السياسي ، فبعد أن كان مشايخ الطرق مثلاً يحكمون في أتباعهم حكماً دينياً نافذاً قوياً تزلزل من النفوس سلطانهم ، وتمرد التمدين المصري الحديث حتى على هذا التحكم الروحي . وبعد أن كان خليفة المسلمين في استانبول يجمع السلطين الدينية والمدنية ، وبعد أن كان المصريون يرعونه رعاية الاحترام والتقديس ، أخذوا يجادلون في حقه ، ويتسكؤون في الخضوع له ، ثم يخرجون عليه وينكشون بيعته ، ثم ينكرون الخلافة من أصلها ويقولون انها ليست من الدين . وبعد أن كان لعلماء الأزهر نوع من السلطان في مصر ضعف مقامهم ، وتلاشى سلطانهم . وخلص المصريون أوكادوا من ربة التحكم الديني . ولعلمهم على وشك أن يخلصوا أيضاً من ربة التحكم السياسي واستبداد الحكام السياسيين

نكتفي بهذا القدر في بحث الأسباب والعوامل التي تؤثر في الحياة الدينية في مصر (٣) وننتقل الى البحث الثالث الأخير

أدر كنتم مما سبق ذكره أن كثيراً من جوانب الحياة الدينية ومظاهرها قد أصابه التغير وأن ذلك قد تغلغل الى تقاليدنا وآدابنا وعقائدنا والى حياة الفرد والجماعة والى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . فهل نحن اذن ازاء تطور بعيد الأثر وشديد الخطر ؟ وهل ينبغي أن يجزع من عواقب هذه الحالة الاسلام والمسلمون ؟ الأمر يحتاج الى بحث وتدير . ويجب أن نعرف قبل ذلك هل بلغ من تغير الحال الدينية في مصر وتطورها أن تأثر عدد المسلمين أم لا ؟ وأن ضعف في المصريين الشعور الديني أم لا ؟

أما عن عدد المسلمين فان الاحصاءات الرسمية تدلنا على أن نسبة المسلمين في مصر الى غيرهم مطردة الزيادة ، كما أن عدد المسلمين في العالم مطرد الزيادة . اذن فنستطيع أن نقول أن أثر التطور الديني الحديث في عدد المسلمين أثر إن لم يكن محموداً فانه غير مكروه . بقي الشعور الديني ، فهل تأثر في مصر ، وهل ضعفت الروح الدينية في المصريين ؟ لقد يبدو للنظر الى بعض الظواهر أن شيئاً من الوهن والفتور قد دب الى عواطف المصريين الدينية . فان من الملاحظ أن بعض الطبقات في مصر أصبحت تتراخي جهازاً

في اقامة الشعائر الدينية وتظاهر بالمعاصي، ولكن الذي يحقق النظر ويمعن في البحث يرى أن هذا الذي يبدو تراخياً في الدين وإهمالاً لشعائره ليس في حقيقة الأمر ناشئاً من تزلزل في العقيدة، ولا فتور في العاطفة، ولا ضعف في الروح، وإنما منشؤه ضعف في الخلق وفتور في الشعور بمعنى الفضيلة

وإنما يتهاون المصريون في دينهم ويتظاهرون بالانحراف عنه لأن الخلق المصري نفسه قد أصيب بالضعف والانحلال من كل النواحي : ضعف في الخلق الاجتماعي، وضعف في الخلق السياسي، وضعف في الخلق الديني . ولقد يكون المصري الذي يتجاهر بالفجور الديني مؤمناً صادق الإيمان، ودينياً مخلصاً لدينه، ولكن يغلبه على إيمانه ودينه شقاوته وضعف نفسه وخلقته . وذلك كما تجدون اليوم بعض المصريين يجاهرون أمتهم بالفجور السياسي، وقد يكون فيهم من يؤمن في أعماق نفسه بأن للسياسة خلقاً وفيها فضيلة ولكن يغلبه على خلق السياسة وفضيلتها شقاوته وضعف نفسه

فالتهاون الديني في حقيقة أمره ظاهرة خلقية ينبغي أن يستقل بالبحث فيها علماء الاخلاق قبل علماء الدين . يدلكم على هذا أنه كلما ظهرت في مصر حادثة قد تمس مواطن الاحساس الديني وتهيج مشاعره رأيت من أولئك المتهاونين في دينهم المتجاهرين بالخروج عليه من يكونون أسرع الناس الى الحفيظة، وأشدهم غيرة على دينهم والتهاوبا

وتلك حالة نفسانية مفهومة . فأنكم تجدون بعض الذين أصيبوا بعادة التدخين وعجزوا عن مقاومته من أشد الناس تحمسا للدعاية الى أبطال التدخين وأصدقهم إيماناً بضرره وأمضاهم عزماً في محاربته . وكذلك يكون بين أهل الفساد والضلal دعاء للاخلاق والفضيلة صادقون .

اذن فلعل هذه التغيرات التي أصابت الحياة الدينية في مصر وقصصنا عليكم أمثلة منها ليست الا حواشي وأعراضاً لم تتصل بجوهر الاسلام ولم تؤثر في أركانه وقواعده . ولعلنا نستطيع أن نقول ان العاطفة الدينية في مصر لا تزال سليمة نامية، وأن الشعور الديني لا يزال حياً قوياً

سيقولون ما بالك تغاضى عن دعوة الاتحاد الديني التي قامت تنشر جناحين في سماء مصر، وتنفت سبومها في قلوب المصريين، وترفع علم الزندقة فوق دور العلم وبين المتعلمين والعامه . وما بال تلك الصيحات المنزعجة وهذه الجموع الهائجة ضد الاتحاد والملحدون ؟

طبعي أن يكون في مصر ملاحدة أو زنادقة أو منافقون، يعلنون الايمان

ويسرون الكفر. لأن ديناً من الأديان وأمة من الأمم وعصرًا من العصور لا تخلو من هؤلاء. وعصر النبوة نفسه لم يخل منهم، لأن الله لم يرد أن يجعل في هذه الدنيا خيراً محضاً لا ينبت في جوانبه الشر، ولا إيماناً شاملاً لا يقوم حوله كفر.

ولقد نبتت في أحضان الحضارة الحديثة نزعات خبيثة إلى الألحاد، وسرت في ركبها دعوة منكرة إلى المادية، وقد كان للألحاد والمادية في تاريخ الحضارة الأوروبية الحديثة وتطورها شأن مذكور. أما في مصر فأن شأن الألحاد والمادية لا يكاد يكون مذكوراً، ومقام الألحاد في مصر اليوم يوشك أن يكون مقامه من قديم الزمان، وما زالت مصر كما كانت من قبل لا يقوم فيها ملحد ولا ترتفع فيها دعوة الألحاد إلا في الحين بعد الحين وفي الجيل بعد الجيل، ولم تتكشف حضارة مصر الحديثة عن قوة جديدة للألحاد ولانشاط حادث للملحدين.

إذن فما بال أولئك الصائحين يملأون الأرض صراخاً وعويلاً ويفزعون من هول الألحاد وخطر الملحدين؟

الامر بين. هناك كما عرفت تطور حديث في الحياة الدينية، وهناك نزعة نائرة ضد ما كان لرجال الدين وعلمائه من قوة وسلطان، وهناك نزعة قوية ضد الحكم المطلق الذي يعتمد على سلطان الدين. وهناك رجال يناصرون تلك النزعات الحرة الخالصة للدين وللوطن وهناك في مقابلة هذا نزعات قديمة إلى التحكم الديني والسياسي، وهناك رجال يناصرون هذه النزعات. والحرب التي تسمعون حديثها ليست كما يزعمون حرباً بين الألحاد والإيمان، ولكنها الحرب بين الدعوة الحديثة إلى التجديد والانقاذ والدعوة البالية إلى الجمود والاضمحلال، بين الحياة والموت، بين أولئك الذين يدفعون إلى الأمام مصر ودين مصر والذين يريدون أن يدفعوا إلى الوراء مصر ودين مصر.

سيقول آخرون: أين أنت من حركات التبشير المسيحي وما فيها من خطر على الإسلام والمسلمين؟ وأين أنت مما تصيب به الناس من فتنة في دينهم وضلال عن سواء السبيل؟ يخيل إلى من ينظر إلى معاهد التبشير في مصر وضخامتها، وإلى نشاط المبشرين وما يقتربون في سبيل الدعوة إلى المسيحية من خير وشر، ومعروف ومنكر، أن وراء الآكمة خطراً خفياً، وأن بين الضلوع داء دويماً، ويخيل لمن يسمع حيناً بعد حين أن المبشرين قد فتنوا طفلاً أو خادعوا فتاة أن الأمر جلل، وأن الإسلام منهم على خطر.

ولكن الذى ينظر من وراء هذه الظواهر الخادعة الى الوقائع الثابتة ، والذى يستنطق الأرقام ويستمع إلى صوت الحقائق يجد أولئك المبشرين أقل شأناً من أن يصلوا بكيدهم الى حى الإسلام ، أو ينالوا من المسلمين منالاً فالإسلام دين قد صهرته الحوادث ، وتقلبت عليه الفتن ، وعصرته التجارب ، وقارعه سيوف القوة والبغى ، وحاربه الدسائس بشر أنواعها ، والفتن بكل أصنافها ، منذ أجيال وأجيال ، فخلص من خلال ذلك كله سليماً قوياً ، لم تلحق به شبهة ، ولم تعلق به وشمة ، ولن تبلغ جهود المبشرين وان تعاظمت . ولا حيلهم وان دقت ، ما بلغت من قبل تلك الغوائل التى أرادت أن تقف فى طريق الإسلام فداسها الإسلام بأقدامه وحطمها تحطيماً ، ومضى فى طريقه إلى الأمام قدماً

ولقد مضى على المبشرين فى مصر عشرات من السنين لم يألوا جهداً ولم يتعففوا عن وسيلة من وسائل الدعاية ثم أتم هؤلاء ترون ان الإسلام لا يزال قوياً وان البركة لا تزال فى المسلمين

ان خطر المبشرين سياسى وخلقى أكثر مما هو دينى . وان مصيبة المصريين بالتبشير والمبشرين ان تنال دينهم بأكثر مما تجنى على وجودهم السياسى وعلى أخلاقهم . من الملاحظ أن بين التبشير المسيحى والتبشير السياسى علاقة لا ينبغي أن يغفل عنها الباحث ، وقد يكون التبشير المسيحى فى خفى أمره آلة من آلات الغزو السياسى والاستعمار ، وقد يكون الغزو السياسى آلة من آلات التبشير المسيحى ، وسواء كان هذا أم ذاك فالعلاقة بين المبشرين والمستعمرين كالعلاقة التى كانت فى قديم الزمان بين رجال الدين والسياسة ، وهى التى حدثنا كم عنها آنفاً

يدلكم على ذلك أن سلطان التبشير المسيحى يشتد ويقوى ، ونشاط المبشرين يتزايد كلما كانت الأمة ضعيفة وكانت ميداناً للنشاط السياسى والمطامع السياسية ، هنالك يديض المبشرون ويفرخون تحت أجنحة الدسائس الاستعمارية وفى كنف القوة السياسية ، ذلك شأنهم فى أواسط افريقية وشرقها مثلاً وفى مراكز الجزائر ، وعلى نسبة ما يكون للأمة من قوة واستقلال يكون ضعف المبشرين وانكماشهم . فإذا ما بلغت الأمة كمال قوتها واستقلالها وجدت سلطان التبشير متلاشياً ، وحركة المبشرين خاملة ، كما فى تركيا وأفغان وبلاد العرب إذا فالتبشير المسيحى مرض سياسى وخلقى . وعلى رجال السياسة والأخلاق فينا أن يبحثوا فى طريق الخلاص منه

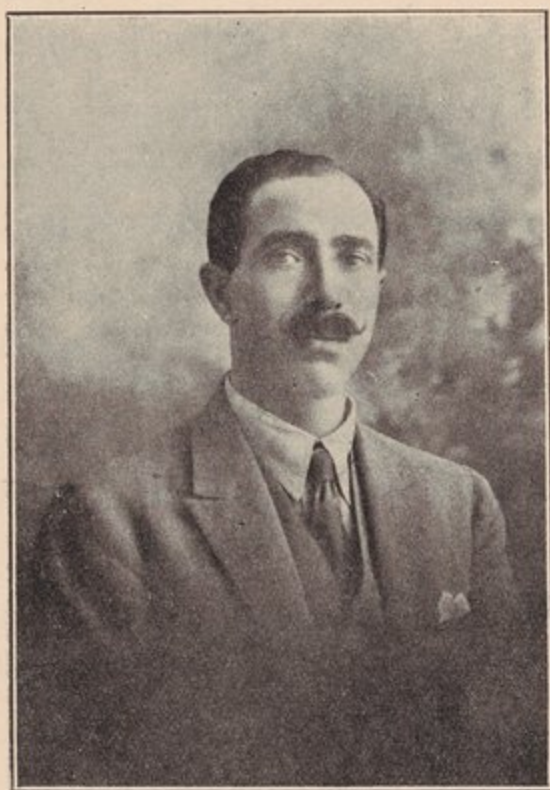
النتيجة التي تخلص لنا مما سبق أن الحضارة الحديثة في مصر قد أثرت في حياتها الدينية، وأن تلك الآثار كثيرة الشعب وواسعة الفروع، ولكنها على كثرتها وتشعبها لم تصب جوهر الإسلام بسوء ولا عرضته لمكروه، بل لعلها قد أنقذته من كثير كان يشوبه، وخلصته من علل كانت تنتابه، وهيأته لأن يسير في طريق الكمال سيراً حثيثاً

ان الحضارة الحديثة، على ما يشوبها من مادية وإلحاد، وما يعيبها من نقائص خلقية وغير خلقية، لتخطو بالبشرية خطوة جديدة تقربها مما أعدت له البشرية من رقي وجمال، وتقرب العقل الأنساني الى ما نبغى له من إطلاق الفكر وحرية البحث وراء العلم الصحيح خالصاً من ضغط الاستبداد وتقاليده الجاهل والجهود وان الحضارة الحديثة إذ تحاول ذلك لتساير الاسلام الصحيح نحو الغاية التي يعمل لها، وتنشر المبادئ التي يريد أن ينشرها

من كان يظن أن الاسلام هو أن تبقى المرأة محجبة، وأن يبقى الحكم السياسي مطلقاً، وأن يكون رجال يزعمون أنهم يتحكمون باسم الدين في عقول الناس وعاداتهم وشئونهم، وأن تبقى العقول جامدة، والنفوس خاضعة، والأذهان متحجرة، من كان يظن أن الاسلام بين جذران الأزهر، وبين اللحى والعمائم فان الحضارة الحديثة في مصر ستقضي على دينهم الذي يزعمون، وتجتثه أصولاً وفروعاً

ومن كان يظن أن الاسلام دين الفكر الحر والحكم العادل والعلم الصحيح، ودين الحرية والمساواة فان الحضارة الحديثة في مصر تهيم المستقبل القريب باسم لدين الفكر الحر، ودين الحكم العادل، ودين العلم الصحيح، ودين الحرية والمساواة، دين الاسلام.





حضرة صاحب العزة الدكتور محمد حسين هيكل بك
مدير جريدة السياسة

الرأى العام كأداة للرقابة الاجتماعية

لحاضرة صامب العزة الزكنور محمد مسين هيكى بك

لئن كنت صحفياً وكنت بذلك خاضعاً فى الحديث عن الصحافة لاعتبارات ذاتية قد يكون لها فى حكمى على الموضوع الذى أعالج الآن أثر، فأنى سأقف من بحى هذا موثقاً موضوعياً الى غاية ما أطيق وسأكون من الصحافة والصحفيين فى اتصالحهم بالرأى العام وفى تعبيرهم عنه حكماً عدلاً غير متأثر بعملى الصحفى ولا ناظر إلا للحقائق الواقعة كما هى، أو على الأقل كما أراها، ذلك لأننى أعتقد أن توخى الحقيقة لذاتها ومحاولة تصويرها فى أدق صورها أكفل بتوجيه الرأى العام وجهة صحيحة، أكفل بأن يؤدى الغرض من هذه المحاضرات التى لا يقصد بها الدعوة الى رأى معين ولا التبشير برسالة معينة، وإنما يراد به التصوير الصحيح لتطور الحضارة المصرية من بعد الحرب.

أوضحت المقدمة التى وضعها جناب مستر كيلاند لهذا الكتاب أن الغرض منه بيان تفاعل العوامل التى تتأثر بها حضارات الأمم جميعاً: المسكان - والعمل - والناس. وقد سبق الشئ الكثير القيم من هذا فيما سبق من هذا الكتاب. وقد رأى القارىء الأطوار التى مرت بها الزراعة والصناعة والتجارة والصحة العامة والتعليم والتشريع والدين فى هذه الآونة الأخيرة فى مصر. وها أنا الآن بدورى أوضح ما كان لاتجاه الرأى العام من أثر فى هذه التطورات وما كان من أثره فى هذا الطور الأخير من أطوار حضارتنا كما أحاول فى نفس الوقت الذى أتحدث فيه عن الرأى العام كأداة للرقابة الاجتماعية أن أقارن بينه فى أداء هذه المهمة وبين الحكومة كأداة للرقابة الاجتماعية هى الأخرى وكيف أدى وتؤدى هذه المهمة مقارنة سريعة بطبيعة الحال تاركاً لحاضرة المحاضر الذى يختم هذه السلسلة أن يبين من جانبه رسالة الحكومة فى الرقابة الاجتماعية بالايضاح الذى يكفله له استئثار محاضراته بهذا البيان.

وما دام حديثنا عن الرأى العام وعن الصحافة وعن مهمتهما فى الرقابة الاجتماعية وعن أثرهما فى حضارة مصر اليوم محدوداً فيما كان من ذلك بعد الحرب فيجب أن نقف

وقفة قصيرة عند غداة الحرب وأن نجعل النظر برهة فيما قبلها وما بعدها لنقدر الانقلاب الحقيقي الذي أحدثته في شؤون مصر كلها بمقدار ما أحدثت في الأمم التي كانت جبهات حرب تصلي من الزيران ومن الغازات ما لم تعرف مصر. وليس في ذلك شيء من العجب. صحيح أن مصر لم تكن جبهة حرب إلا أياماً معدودات عند هجوم الأتراك على قناة السويس في فبراير سنة ١٩١٥ هجوماً لم يعرف المصريون عنه شيئاً معيناً دقيقاً إلا بعد حدوثه بزمان غير قليل. لكن مصر كانت طوال سني الحرب الأربع ميدان حرب لا يقل نشاطاً ولا يقل عسكرية ولا يقل طلعة ولا قلقاً عن ميادين الغرب في فرنسا والشرق في روسيا وعن الدردنيل وسائر الجبهات التي عرفنا خلال هذه السنوات الأربع الملتبته الدامية. وخلال هذه السنوات الأربع كان الرأي العام المصري متوتراً أشد التوتر رغم أنه كان حيساً في أغلال الحكم العرفي القاسية، وكان له من الطلعة عن الحرب وأخبارها ما لا يقل عن لهم في جبهات ميادينها العديدون من الأهل والأبناء. ومصدر اللهفة والقلق تلك الحال غير العادية التي كانت تكتنف مصر يومئذ إذ كانت مستودع جنود الحلفاء يجيئون إليها وقيمون فيها عشرات الألوف ومئات الألوف من جنسيات مختلفة: الإنكليزي والفرنساوي والهندي والاسترالي والنيوزيلاندي وما شئت من مختلف الأجناس والألوان والملل، كما كانت مخزن تموين الحلفاء في ميادين الشرق تأخذ السلطة العسكرية منها الغلال ومواد الوقود ودواب الحمل مما يتصل بطبقات المجتمع كله من أصغر فلاح فيه إلى أكبر أغنيائه وسراته. أضف إلى هذا عاملاً جعلها أشد قلقاً من الأمم المحاربة نفسها. كانت تلك الأمم كلها تجاهد في سبيل النصر لتأخذ من مغائم الحرب بنصيب. أما مصر فلم تكن تعرف أي مصير قدر لها، سواء انتصر الحلفاء أو انتصرت دول الوسط. وأشد الناس يومئذ تفاؤلاً كان أحد رجلين: رجل يثق بوعود انكلترا التي سبقت إعلانها الحماية على مصر والتي كانت تعتبر الحماية والحكم العرفي ضرورات للحرب تزول متى انتهت الحرب بنصر الحلفاء، ورجل يظن أن النصر إذا تم للامان وحلفائهم الأتراك جلت انكلترا عن مصر وعادت رابطة التبعية التي بينها وبين تركيا رابطة اسمية لا تقيد من سيادتها ومن حريتها في شيء. وكلا هذين المتفائلين لم يكن يعبر عن موجة الرأي العام المصري لأن هذه الموجة كانت مضغوطة لا تنفخ عنها الصحافة ولا يتنفس عنها حديث أو خطاب سياسي، وكانت بسبب ضغطها لا تدري أيان يكون اتجاهها المستقبل.

وأعلنت أمريكا على لسان رئيس جمهوريتها يومئذ الدكتور وودرو ولسن شروط

الهدنة ومن بينها حق الشعوب في تقرير مصيرها فلم يترك ذلك في الرأي العام المصرى الأثر العميق الذى ترتب عليه من بعد ، لأن هذا الرأي العام كثيراً ما سمع الوعود تقطع ولا تنفذ ، والحق والعدل يشاد باسمهما في الخطب السياسية ثم اذا من ورائهما أسباب الهلاك والدمار تؤيدهما في صف من صفوف الانسانية لتقضى عليها قضاء وحشياً لا شئ من الحق ولا من العدل فيه في الصف الآخر . وقف الرأي العام أمام نظرية تقرير المصير مرتاباً في مبلغ ما تطوى عليه إلى أن تقدم سبعة رجال هم الذين تألفت منهم النواة الأولى للمطالبة باستقلال مصر يريدون أن يكون لمصر حق تقرير مصيرها . تقدموا يؤيدهم وزارة مصر في ذلك الظرف لأنها ولأنهم شعروا بشئ من المسؤولية عن ما وقع في بدء الحرب حين أعلنت انكثرتا الحماية على مصر فعليهم لذلك شئ من التبعة في اقتضاء ماقطعته انكثرتا لهم من الوعود في المفاوضات التي سبقت إعلان الحماية الانكليزية على مصر .

لسنا بصدد رواية تاريخ مصر السياسى في هذه المحاضرة . لكن هذا التاريخ كان له من الأثر على اتجاه الرأي العام المصرى في السنين التي عقيت الحرب سواء في توجيه مصير مصر السياسى أو في رقابة الرأي العام لأفكار البلاد الاجتماعية مالا يمكن إغفاله . ومن هذه الناحية الأخيرة وحدها نرانا مضطرين لنقف أحياناً وقفات قصيرة نصل فيها بين هذا التاريخ وبين حياة البلاد الاجتماعية . وقف إلى الرأي العام متردداً إزاء هذا التوجيه السياسى الذى وجهه له أولئك المصريون السبعة بتأييد الوزارة القائمة يومئذ وان نظر الناس بأشد العطف الى هذا التوجيه عطفاً كان مظهره هذا الانفجار الفجائى الذى حدث حين اعتقلت السلطة العسكرية أربعة من هؤلاء الدعاة للاستقلال . يومئذ أخذ الرأي العام اتجاهه ، لا بازاء مصير مصر السياسى وحده ، ولكن بازاء مصائرنا الاجتماعية كذلك . فقد كان هذا الرأي العام قبل الحرب مقسماً بين المحافظة والحرية ، بين العمل المباشر السريع والسعى التدريجى المستمر ، بين الرجعية المعتصمة باسم تقاليد الدين أحياناً وباسم الوطنية أخرى ، وحرية الرأي والعمل المستندة الى الدعوة الاسلامية الحرة والدعوة التي تسايرها . بين تحرير المرأة وحجابها ، بين استقلال مصر الاقتصادى وسياسة الباب المفتوح في التجارة . بين الرجعة التقليدية الى أدب العرب القديم والدعوة الى التجديد دعوة كانت تبلغ من التطرف أحياناً الى حد القول باتخاذ اللغة العامية لغة الكتابة والأدب . بين عوامل وآراء متشعبة قد يدهش ابن اليوم أن يعلم أن بعض

متناقضاتها كانت تعتبر في نظر البعض وحدة متسقة برغم تضاربها وتناقضها . ولن أطمع في أن أفصل اليوم شيئاً من هذا رغم جدارته بالتبويب والتفصيل ، فتبويه وتفصيله يحتاج الى دراسة طويلة والى عشرات المحاضرات لا إلى محاضرة أو محاضرتين أو عشر .

هذا التباين في الميول والآراء الاجتماعية ما لبث أن اختفى تحت سلطان الموجة القوية التيار التي أدت الى انفجار الرأي العام في سنة ١٩١٩ . ويرجع اختفاء التباين في الميول والآراء الاجتماعية الى سببين : أولهما الفكرة القومية التي اقتضت أن يقف الناس جميعاً من مختلف الطوائف صفاً واحداً في النضال . فكل وقف القسيس الى جانب الشيخ وكل وقف المعمم الى جانب الأفندي ، وقف المتعلم الى جانب الأمي وشعر الكل بروح من التسامح الخالص بأزاء بعضهم البعض تسامحاً لا بد منه لأمكان الوحدة والتعاون . والناس جميعاً يذكرون ذلك اليوم الذي خرجت فيه سيدات مصر وأوانسها من أكرم العائلات مظاهرات احتجاجاً على ما أصاب الحرية من عدوان وكيف وقف في وجههن الجند الانكليز ، وكيف كن مثال كرامة وعزيمة . والناس جميعاً يذكرون كيف كان المسلم والمسيحي يدخل الأول كنيسة الثاني والثاني مسجد الأول . لو أن شيئاً من ذلك وقع في غير هذا الظرف لشار الرأي العام به ولا اعتبره جنابة لا يمكن السكوت عليها . لكن روح التسامح التي سادت الجميع يومئذ جعلت من هذه الأعمال في نظر الرأي العام مظاهر إخلاص للوطن وتضحية قومية جديرة بالاعجاب والتقدير . بل اندفع الرأي العام الى أكثر من هذا . اندفع الى اعتبار هذه الأعمال مثلاً صالحة جديرة بالاحترام والتقليد .

السبب الثاني لاختفاء التباين في الميول والآراء الاجتماعية يرجع الى موجة علمية جرفت الأمم كلها ، موجة التحلل من كل القيود والتقاليد والنهل من الحرية بنصيب كان يعتبر قبل الحرب تحطياً حدود الحرية الى حماة الرذيلة أو على الأقل الى حدود الإباحة . كل قيد كان غداة الحرب ممقوتاً مردوفاً . اختلطت في النفوس صور الخير والشر والكمال والنقص واضطربت أمام البصائر حدود الصفات والأعمال وأصبح قانون العقوبات المقياس الخلقى الذي لا جناح على من يظل عند احترامه في أن يستمتع بكل ما لا تتناوله حدوده وعقوباته . وكانت هذه الموجة يومئذ طبيعية لأن الناس رأوا الموت ورأوا النفي والتشريد والتعذيب خلال سنوات الحرب الأربع رأى العين فاستهانوا بالحياة والقوا بأنفسهم في حمايتها وكانهم ما يزالون يحسبون أنفسهم لا يعرف الواحد منهم إن كان قد

قدر له أن يبقى إلى الغد فهو لا يرض على نفسه اليوم بمسرة ولا بلهو ولا بشهوة من الشبهوات . وطبعى ما دام ذلك هو قدره الأمور في شأن نفسه أن يكون هو كذلك قدره الأمور في شأن غيره . لذلك عمت العالم غداة الحرب موجة فوضى خلقية نظر إليها الرأى العام كأنها الصورة الطبيعية للحياة . ليس الناس كانوا إلى أمس يموتون أو تصيبهم العاهات أو العلل بلا حساب ، فليأخذوا من الحياة ما شاؤوا بلا حساب كذلك . وبديهي عند تمكن هذه الحالة من النفوس أن تختفى الفوارق في الميول والآراء وأن يصل كل انسان بازاء غيره إلى غاية حدود التسامح وأن يحسب كل رأى سائغاً وكل عمل مقبولاً . واقتربت بالحرب حالة اقتصادية أيدت هذا التحلل من القيود واعاتهته . تلك حالة الرخاء الاستثنائية التي رأتها مصر ورآها العالم بعد الحرب بأشهر ، في ذلك الظرف بيع قطار القطن بأربعين وخمسة وأربعين جنياً وضوعفت مرتبات الموظفين وأجور العمال والفلاحين وأصبح ورق النقد لعبة في الأيدي ، واستطاع كل انسان أن يسد جميع مطالب أهوائه ، وخيل للناس أن لم يبق للثروة حدود فلم تبق أمامهم للاخلاق حدود ولا للتفكير حدود ولا لشيء من الأشياء أو لاعتبار من الاعتبارات في هذا العالم حدود . انمحت كلمة المستحيل من النفوس كلها لا من النفوس التي تسمو فوق حدود العظمة الطبيعية فتقول ما قال نابليون : كلمة المستحيل ليست في قاموسى ، أصبح كل فرد نابليون وكل فرد ركفلر وكل فرد فيما بينه وبين نفسه العلم الفرد في عوالم الكون كلها ، فليفعل إذن كل ما يشاء على شريطة البقاء في حدود القومية المصرية والحركة الاستقلالية التي حدث انفجار مارس سنة ١٩١٩ مؤيداً لها .

في رعاية هذا الرأى العام وتشجيعه وفي ظل رقابته بدأت صور النشاط الاجتماعى تظهر يدفع إليها أفراد يؤمنون بها . فالرأى العام لا يخلق الظواهر الاجتماعية وإنما يرعاها ويؤيدها أو يحاربها حتى يقضى عليها . والأفراد هم الذين يخلقون هذه الظواهر . ففي رعاية الرأى العام وتياره الجارف أول النهضة وبعد هدنة الحرب قامت حركة العمال ناشطة يغذيها جماعة ممن يؤمنون بمبادئ التعاون ونظام النقابات . وكانت لحركة العمال هذه مظاهر سمعتم عنها في المحاضرات السابقة ما لست بحاجة إلى العود للكلام عنه . وفي رعاية هذا الرأى العام بدأ النشاط النسوى في العطف على الفقير والطفل قوياً مثابراً حتى رأينا اليوم من ثمراته تلك الدار الفخمة التي أقامها الاتحاد النسائى . وفي رعاية هذا الرأى العام بدأ الفن المصرى يأخذ المسكنة اللائقة به . وفي رعايته بدأت نهضة الأدب القومى

تأخذ اتجاهها قوياً واضحاً لا تقف في سبيله عقبة من العقبات . وليقدر الانسان قوة هذا
الرأى العام في رعاية هذه النهضة الاجتماعية المختلفة النواحي والتي لم نشر منها هنا الا الى
قليل نذكر ما كان من حماسة الرأى العام لتمثال نهضة مصر . لو أن هذا التمثال كان قبل
الحرب لوجد من يقوم في وجهه باسم الدين أو باسم آخر . لكن قوة التيار يومئذ جعلت
الأصوات جميعاً ترتفع مجبذة وتعضد الفن ورجال الفن وتدفع بالفنون الجميلة الى نهضة
ظلت قوية زمناً غير قليل

وكما جرف تيار الرأى العام الرجعية وجعل الحرية المطلقة لا يقيد منها غير الاعتبار
القومى كذلك جرف الصحافة ودفع بها جميعاً لمناصرة النهضة الاجتماعية التي كان يريها
كما دفع بها لمناصرة الآراء السياسية التي كان ينادى بها . وانك لياخذك العجب اليوم اذا
حاولت أن تقارن بين صحافة سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٢١ وبين هذه الصحافة نفسها فيما
تلا ذلك من السنين . خضعت الصحافة الى تيار الرأى العام يومئذ وجعلت تغذيه وتقويه
وتمد له في أسباب سلطانه وسيادته . ولوان الزعماء السياسيين الذين كانت البلاد تنظر
اليهم يومئذ بملء الثقة أتاحت الظروف لهم أن يولوا النهضات الاجتماعية ما هي جدرة
به من رعاية لاستمرت مظاهر النشاط الاجتماعى ولرأينا في مصر اليوم من آثارها
أضعاف ما نرى . لكن هؤلاء الزعماء القوا أنفسهم بأزاء قوى سياسية اضطرتهم الى أن
يحصروا نشاطهم في الميدان السياسى وأن يتركوا الميدان الاجتماعى يغذى نفسه بمقدار
ما يستطيع الافراد الذين وجهوا جهودهم لتمامه وقوته . بل انصرف هؤلاء الافراد هم
الآخرون الى نواح من النشاط السياسى كما حاولت القوى السياسية المختلفة أن تستغل هذا
النشاط الاجتماعى لفائدتها . ونشأت على مر السنين عن ذلك نتيجة الطبيعية : فتور الرأى
العام بازاء مظاهر النشاط الاجتماعى بمقدار انقسامه تحت ضغط القوى السياسية المختلفة
وترجع العلة في هذا الى الوضع السياسى الخاص الذى تخضع مصر لأحكامه والذى
لا يوجد له نظير في غيرها من الأمم . ففى الأمم الأخرى يقوم النضال عادة بين فكرتين
تؤيد كل واحدة منهما قوة أو مجموع من القوى وينحاز الرأى العام بوزنه الى ناحية أو
الى الأخرى ، هاتان الفكرتان تدوران جميعاً حول النظام الذى يجب أن يجرى عليه
الحكم في البلاد . أهو يجرى على اعتبار أن الحكومة قوة مستقلة عن الأمة متحكمة فيها
بدعوى العمل لخيرها كما يتحكم الأب في ابنه والوصى في القصر الذين يكونون تحت
وصايته واذن فهذه الحكومة تستمد سلطانها من قوة اكبر هي قوة الفتح أو الغلب أو

هو السلطان الدينى الذى يجعلها خليفة الله فى الأرض والوكيل عنه على عباده . أم هو
يجرى على اعتبار أن الحكومة وكيل عن الأمة خاضع فى تصرف شؤونها لسلطان رأيها
العام . وبعبارة أكثر إيجازاً وتحديدأ : أهو يجرى على طريقة استبدادية أو توتوقراطية أم
هو يجرى على طريقة نيابية ديمقراطية . وقد انتهت الفكرة الديمقراطية بالتغلب حتى فى
البلاد الخاضعة لنوع من الاستبداد الدكتاتورى لأن الدكتاتور الذى يقوم فى العصر
الحاضر يزعم دائماً أن الشعب راض عنه وان لم يتمكن من إظهار علائمه هذا الرضى
بصورة حرة لأسباب خاصة . ومن أجل هذا قيل أن الصحافة سلطة رابعة الى جانب
السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية لأن الصحافة تعبر عن اتجاه الرأى العام وتنطق
باسانه . ولما كان الرأى العام هو السلطة العليا التى تستمد السلطات جميعاً منها وجودها
كانت الصحافة هى التى ترشد تلك السلطات وتوجهها وكانت لها من القوة ما أتاح
للسنيور موسوليني أن يقول فى أول عهد حكم الفاشست فى ايطاليا : انه قدير على
الاستغناء بالصحافة عن البرلمان . فى الأمم الديمقراطية التى غلب فيها حكم الشعب
وأصبح الرأى العام مصدر السلطات أصبحت الحكومة أداة اجتماعية خاضعة لرغائبه
تعمل فى حدود رضاه ، ولا بقاء للوزارة التى تهيم عليها ما لم تكن حائزة لهذا الرضاء .
وفى مصر يقال اليوم وقيل قبل اليوم أن هذا المبدأ هو الذى يجرى عليه الحكم
كذلك . وفى دستور مصر أن مصدر السلطات كلها الأمة . والطبعى الذى يقره
العقل أن هذا معناه أن نظام الحكم فى مصر استقر على صورة معينة كاملة أو ناقصة
ولكن مسلم بها من جميع المقيمين فى البلاد ، مسلم معها بأن للامة ولرأيها العام السلطان
الآتم فى الأمور جميعاً . وقد ظن أن الأمر كذلك يوم كانت هذه الفورة التى أشرنا اليها
وفى بعض السنين التى تلتها . لكن الزمن أثبت أن الواقع غير هذا وأنه اذا لم يكن الحكم
فى مصر يجرى على قاعدة أو توتوقراطية استبدادية مطردة فإنه يخضع لعوامل كثيرة لا يخضع
لها فى غير مصر من البلاد . فهناك الاحتلال الانكليزى وهناك الامتيازات الأجنبية
وهناك الأجانب المقيمون فى مصر ، وهناك السلطان المالى الأجنبى ، وهذه كلها قوى إذا
القت بوزنها فى ناحية أو فى الأخرى ، ناحية الأوتوقراطية أو ناحية الديموقراطية أفسدت
ميل الرأى العام المصرى الصحيح لايهما وجعلته سريعاً الى القلق والى الاضطراب وعدم
الثقة بقوة سلطانه . وقد أبدت تلك القوى فى تلك السنوات الأولى عطفأ ظاهراً على

الديمقراطية المصرية. لكنها من بعد ذلك جعلت ترجيح كفة وترجح أخرى حسبما تقضى به عليها المصالح التي تمثلها.

كان لهذا الظرف نتائجها الطبيعية. بدأ التباين الذي كان قبل الحرب بين الميول والآراء يعود الى الظهور وأن في صور مختلفة. واستغلت تلك القوى ومن ناصرها من المصريين هذا التباين بتشجيع أضعف الميول وأشدّها عجزاً. والقت في روع ذوى الميول الرجعية ما شجعهم على البروز الى ميدان الحياة بعد أن كانوا قد اختفوا منه أو كادوا يختفون إلى غير عودة. وهى في هذا قد لجأت الى سياسة مادية مكشوفة. فهذه الطائفة من الناس كانت تعيش عيشاً ضيقاً ولا تمكنها ملكاتها ولا مواهبها من كسب مشجع على الاستمرار في صفوف الطائفة. فلنزد في كسبها المادى لتكون في قبضة يدنا نوجهها كما نشاء. وهذه الطائفة قسم من الرأى العام كان قد بدأ يندمج في عناصره الصالحة ويأخذ من قوتها بأسباب قوته. لكن هذا الاستغلال أعادها الى مثل موقفها الأول والى مثل آرائها الأولى. فلتقف اذن حجر عثرة في سبيل الرقى الاجتماعى ولتحاول أن تخاق حول المنشآت الاجتماعية الحديثة التي آزرها الرأى العام جواً فليداً ان لم يستطع القضاء عليها قلل من قوة نشاطها واندفاعها. ولم تقف هذه السياسة المادية عند ذوى الميول الرجعية. بل امتدت إلى طوائف العمال الذين وعدوا منذ سنوات ماضية باصدار تشريع ينظم حالهم ثم لم يصدر هذا التشريع بعد ووقف الأمر عند ارضاء زعماء العمال في صور مختلفة من الرضاء. وامتدت كذلك الى الشبيبة والى طلبة المدارس والى الموظفين والى كل من أمكن أن تمتد اليه ومن عهد فيه أن يكون ذا أثر عند التفكير في تحويل دفة الرأى العام إلى ناحية أو الى أخرى تحويلا ان لم يوجهه توجيهها إيجابيا أو سلبيا فإنه يقفه مدعنا لكل أمر واقع يحل بمصر مهما بلغ من انكاره لهذا الأمر الواقع في أعماق نفسه

إذا وصل الرأى العام الى هذه الحال من التشعب والتمزق ضعفت قوته على الرقابة الاجتماعية رقابة تشجع ما يحسبه نافعاً وتقف في سبيل ما يعتقده ضاراً، ومن المستطاع ملافاة حظ عظيم من هذه الحال لو أن الزعماء الذين يثق بهم الشعب وقفوا من الشؤون الاجتماعية موقفاً مستقلاً عن نشاطهم السياسى فلم يأبوا أن يشجعوا ما يرونه جديراً بالتشجيع ولو كان المحرك له من خصومهم أو يقفوا في وجه ما يخشون نتائجها الاجتماعية البعيدة أو القريبة ولو كان المحرك له من أنصارهم. وأخشى أن أقول ان هؤلاء الزعماء

لم تمكنهم الظروف من القيام بهذا الواجب على وجه يوازن مجهود تلك القوى التي تخرج بالرأى العام عن الطريق الطبيعى الذى كان يسير فيه لو أنه كان فى ظروف عادية كالتى تواجه الرأى العام فى غير مصر من الأمم . قد يكون لهؤلاء الزعماء من العذر أن مقاومة تأثير هذه القوى فى مراقبة الرأى العام لشؤون مصر الاجتماعية غير ممكن حتى ترد هذه القوى الى أقرب الميادين للحياة الطبيعية . وهذه حجة لها من غير شك قيمتها ووزنها . لكننا نعتقد ان حسن توجيه الرأى العام فى الشؤون الاجتماعية من شأنه أن يزيده قوة فى الناحية السياسية لأنه إذ ذاك يلبس ما تعطل هذه القوى من تطور حضارة مصر الى الحد الذى يجب أن تصل اليه فيكون منها على حذر ويكون أقل خضوعا لها ، ثم يكون فى نفس الوقت بمنجاة من أن يقع تحت تأثير المصريين الذين يعاونون هذه القوى المعطلة حرصا على مطالبهم العاجلة وبسبب اسراع اليأس الى نفوسهم من الناحية السياسية . وهذا رأى أراه من ناحيتى وجيها وأعتقد أنه ينطوى على جانب من الحق عظيم .

وإذا كان لنا أن نبسدى بشأن الزعماء مثل هذه الملاحظة فانا يجب كذلك أن نوجهها للصحافة . فقد طغت الوجهة السياسية عليها طغيانا جعلها تقف من الشؤون الاجتماعية عند التسجيل ورواية الأخبار ولا تأخذ فى التوجيه الاجتماعى بالنصيب الواجب أن تأخذ به . وكثيراً ما فكرت أنا كصحفى فى هذا وفى الواجب على أن أقوم به . لكننا معشر الصحفيين نرى الجمهور منصرفاً الى الناحية السياسية انصرفاً يجعله يمر على ماسواها من غير أن يأبه لها أو يعنى بها ، بل من غير أن يقرأ ما يكتب فيها . ثم أحسنا معشر الصحفيين نجد الميدان السياسى أسلس فى الكتابة قياداً كما أنا فى شغلنا بهذه التقلبات السياسية العنيفة المتصلة التى كانت مصر مسرحاً لها منذ سنة ١٩١٩ لم يقف أحدنا عند مسألة من المسائل الزمن الكافى الذى يسمح له بتقليبها وتمحيصها والوصول الى الأيمان بها إيماناً لا سبيل معه الى أن تصرفنا أحداث السياسة أو غير أحداث السياسة عنها . ثم أن السياسة دخلت فى مصر فى كل شئ . واخضعت لسلطانها كل شئ . وكل طائفة من الطوائف حتى من لا صلة لعملهم قط بالحياة السياسية . اخضعت رجال الدين والمعلمين وطلبة المدارس والعمال والعمد والفلاحين والموظفين ورجال المهن الحرة من أطباء ومحامين فصرت اذا رفعت صوتك بدعوة اجتماعية من أى نوع كان ، لم يكن تقدير المصلحة العامة وحده هو الذى توزن به الأشياء ، بل كانت الاعتبارات السياسية هى صاحبة الحكم الأول والاخير فى

الأمر . ولم ينس احد الحركة التي قامت منذ بضع سنين لأحلال القبعة محل الطربوش كغطاء للرأس وقرار جمعية الأطباء بما في ذلك من الفائدة ثم تداخل السياسيين في الأمر وتقدم رجال الدين للفتوى في أمر القبعة والطربوش ، ورجال الوطنية للقول فيما اذا كان الطربوش شعاراً قومياً أم لم يكن . يومئذ وقف الرأى العام ووقفنا نحن الصحفيين في حيرة لم يكن مصدرها أن الطربوش خير من القبعة أو أن القبعة خير من الطربوش وانما كان مصدرها ما اذا كان الأخذ برأى دون آخر ينصر حزبا سياسياً على حزب آخر أو على الأقل يكون له شئ من التأثير بالفائدة أو بالمضرة على ما لحزب أو لآخر من السلطان

على أن الأخذ والرد والجذب والشد وهذه الهزات العنيفة المتوالية التي شهد الرأى العام المصرى المستنير ، ان كانت قد ترتب عليها شئ من فتوره بازاء الشؤون الاجتماعية ، فهي قد أثمرت عنده من قوة الملاحظة والنقد أضعاف ما كان له قبل الحرب وفي اعقابها ، كما أنها جعلته يعتبر الحرية في مظاهرها الصحيحة مقياس الحكم على ما للأشياء من فائدة . الحرية يتمتع بها الغنى والفقير والقوى والضعيف . وبهذا المقياس أصبح ما يمكن لهذه الحرية من المنشآت والنظريات موضع تأييده وعنايته كما أصبح ما يضعف منها موضع اعراضه أو ازدراؤه أو قلقه

قد تكون احداث السياسة التي أشرنا اليها جعلته لا يبدى من الحرارة في التأيد وفي الإنكار بازاء الشؤون الاجتماعية ما يقوم الرأى العام به في بلاد لا تخضع الى الأقدار التي تخضع لها مصر . لكن هذه الظاهرة الصالحة ، ظاهرة قوة الملاحظة والنقد عنده تبشر المستقبل بأحسن الثمرات . ذلك بأن الموقف السياسى لا بدله من أن يصل الى نوع من الاستقرار على صورة من الصور في زمن طويل أو قصير . وعندها تعود الشؤون الاجتماعية لتأخذ مكاتها الأولى من عناية الناس واهتمامهم . ويومئذ يكون ما أفاده الرأى العام المصرى من ملاحظة ونقد جديراً بأن يجعل رقابته الشؤون الاجتماعية كفيلة بأن تدفع الصالح من هذه الشؤون الى الامام وأن تقف في وجه الضار منها بما يبعد عن الجماعة أذاه . ويومئذ تؤدى الصحافة على وجه صالح مهمتها في الرقابة الاجتماعية بما يجعلها مستقلة في ذلك عن احداث السياسة استقلالاً يسمح لها بأن تعير هذه المهمة السامية أعظم عناية .





حضرة صاحب العزة احمد بك صفوت
رئيس محكمة شبين الكوم الاهلية

التنظيم الاجتماعي بواسطة الحكومة

لحضرة صاحب العزة احمد بك صفوت

اختص كل موضوع من الموضوعات السابقة بتنظيم حالة اجتماعية معينة كالصحة العامة والتسليّة والتجارة والعمل والعمال .

اما هذا الموضوع فيعم سائر الأحوال الاجتماعية لمعرفة مدى إمكان تنظيمها بواسطة ادارة الحكومة والى أى حد تقوم الحكومة بها .

ولا يخفى أن ادارة الحكومة لا يجوز لها أن تتعرض للمسائل الاجتماعية الا عند الحاجة القصوى وعند عجز الأفراد عن تنظيمها بأنفسهم ، لقلة مواردهم أو لضعف الابتكار والتنظيم عندهم .

وسأبدأ ببيان معنى التنظيم الاجتماعى ثم بتحديد اختصاص الحكومة فيه ثم ببيان المدى الذى يتسع اليه هذا الاختصاص فى الوقت الحاضر .

ومراعاة لضيق المقام سأختصر وأتجاوز عن التعاريف والاصطلاحات العلية اكثفاء بتقرير الواقع .

معنى التنظيم الاجتماعى

تفرض الحياة الاجتماعية على الانسان واجبات لا بد من مراعاتها وتقوم إما على الآداب morals والتقاليد traditions وإما على القانون ، ولزيادة الأيضاح أضرب مثلاً مقابلاً أرقى بلد فى التنظيم الاجتماعى ببلدنا واجعل المقابلة بين الأفراد وبين الجمعيات.

فبين الأفراد تقابل حياة عمدة من أعيان الريف يقيم في القاهرة بحياة رجل أمريكي هو جناب المحترم المستر كلياند رئيس قسم الخدمة العامة . فلنقابل بينهما في حياتهما اليومية في العمل وفي التسلية وفي تنظيم أوقات الطعام وفي آداب المائدة وفي المقابلات ولتصورهما معاً يسامران في حفلة سيدة مهذبة . ولا حاجة بي الى تصوير كل منهما لكم في هذه الحالات .

وفما بين الجمعيات أقارن الجامعة الامريكية تقوم بها جمعية بالجامعة المصرية الأميرية قام بها أفراد وعجزوا عنها وتقوم بها الحكومة . وأقارن نقاباتهم ومصارفهم التي بلغت ذروة التنظيم والاحتكار ، فكل صناعة أو تجارة تكاد تكون محتكرة بين شركات منضمة بعضها إلى بعض في مجلس واحد trust ، بنقاباتنا ومصارفنا وعصباتهم بعصباتنا .

فالتنظيم الاجتماعي يزداد كلما تحضرت الأمم وازدحم السكان ويقبل جداً كلما بعدنا توغلاً في بدء الحياة الاجتماعية . ولذلك هو أظهر في المدن منه في قرى الريف . وأساسه المحافظة على صحة الفرد وتحسين طرق معيشته وتوفير الرغد والهناء له . إنما اذا أراد الفرد القيام بكل شيء لنفسه عجز . لذلك تقوم الحكومة به لمصلحة الجميع فتكون أقل تكاليف وأكثر إنتاجاً

ولكى ندرك ذلك حسبنا أن نقابل التنظيم الاجتماعي في المدن بالتنظيم الاجتماعي في الأرياف . فسكان شارع قصر العيني يستيقظون صباحاً فيجدون عمالاً كنسوا الشارع أمام منازلهم . وسبق ان غرسوا لهم فيه أشجاراً تحملهم وتظللهم . ويجدون تراماً ينقلهم والماء والنور والتليفون متوفرة في منازلهم . ومواسير تحتها تنظفها لا يعلمون متى ركبت ولا أين تنتهى . والمدارس قريبة لأولادهم من روضة الأطفال الى الجامعة الى قسم الخدمة العامة . ويجدون بوليساً يعمل لراحتهم ليلاً ونهاراً . ويجدون أنواع المستشفيات قريبة منهم من قصر العيني الى العباسية . وأنواع التسلية الرياضية نهاراً والنفسية ليلاً على قيد خطوات منهم . والفقراء يجدون مطاعم الشعب والعيادات المجانية قريبة اليهم .

فشوارع قصر العيني اكثر الأحياء تمدناً وتنظيماً اجتماعياً . أما ساكن قرى الريف فيكنس بنفسه أمام منزله . ويوقد بنفسه النار ليلاً في منزله . ولا يجد سائر الأشياء

التي يتمتع بها ساكن قصر العيني . فهذا هو التنظيم الاجتماعي في مظهره الفعلي بعضه يقوم به الحكومة وبعضه يقوم به الأفراد بالتعاون فيما بينهم .

التنظيمات الاجتماعية التي تقوم بها الحكومة في مصر

ليست التنظيمات الاجتماعية واجبة أصلاً على الحكومة وهي لا تقوم بها إلا عند عجز الأفراد عن القيام بها لأنفسهم إما لعدم توافر رأس المال عندهم وأما لفقد قوة الابتكار لديهم أو ابتغاء المصلحة العامة من قبل الحكومة .

وأحسن مثل يوضح ذلك تاريخ نشوء الجامعة المصرية فقد فكر فيها أفراد أنشأوها وعجزوا عن القيام بها لما تحتاج اليه من مال وبجهود مستمر فقامت بها الحكومة . والجامعة الأمريكية قام بها أفراد قادرون . وفي الأمم الراقية الغنية يقوم الأفراد بكثير من أعمال البر وتنظيم أحوال الفقراء بإنشاء ملاجئ ومدارس ومطاعم ومستشفيات لهم ونقابات لترقية سائر أحوالهم

والواجبات الحكومية الأساسية التي لا تقوم حكومة بدونها هي حفظ الأمن في الداخل والخارج بالبوليس والجيش وضمان الحقوق بالحاكم وحماية الضرائب للاتفاق منها . والدليل على أن هذه هي الواجبات الأساسية أنها هي كل ما قامت به الحكومات القديمة وهي كل ما يقوم به رؤساء القبائل وهي الواجبات الوحيدة التي تقوم بها الآن الحكومة في قرى الريف فلا يعرف سكانها من فضل للحكومة عليهم إلا حفظ الأمن بطريقة غير كافية وضمان الحقوق بطرق معقدة متعبة ثم جباية الضرائب . أما سائر التنظيمات الاجتماعية التي ينعم بها ساكنو شارع قصر العيني فهم منها محرومون .

وفيما عدا هذه الواجبات الأساسية نرى الحكومات الآن تقوم بأعمال كثيرة جداً لم تقم بها الحكومات في العصور الماضية . نراها مثلاً تقوم بإدارة البريد ولم يكن البريد واجباً على الحكومات القديمة فكل شخص كان يرسل بريده على يد رسول . وتراها تقوم بإدارة السكك الحديدية وإدارة التليفونات وكان ذلك قبلاً في أيدي شركات . ونراها تقوم في بعض المدن الكبرى بالإنارة وترشيح المياه وبيعها للاهالي .

وهذه الأعمال جميعها فيها وجهة اقتصادية لأن الحكومة تبيع منها جميعها وتقوم بإدائها لأنها أعمال تنعم سائر الناس ولا يمكن إلا أن تقوم بها هيئة واحدة تحتكرها

وتكسب منها لأن أكثر الناس يشتركون في الانتفاع بها فبدلاً من أن تحتكرها شركة تحتكرها الحكومة وتستغلها .

وهناك أعمال أخرى عامة غير رابحة تتولاها الحكومة وتنفق عليها مالا كثيراً وهي ليست من واجباتها كإدارة التعليم بسائر أنواعه من رياض الأطفال والتعليم الإلزامي والتعليم الصناعي والتجاري إلى الجامعة الأميرية والازهرية . ولم يكن التعليم من واجبات الحكومة قبلاً . وكالعناية بالصحة العامة التي لها في مصر وكالة وزارة وفي كثير من البلاد لها وزارة مستقلة .

هذه الأعمال بنوعها من تجارية وغير تجارية هي أعمال عامة نافعة تقوم بها الحكومة لأنها تمس كل الناس أو أغلبهم ولذلك تسمى بالأعمال ذات المنفعة العامة *œuvres d'utilité publique* وقد مثلت عليها لتيياز نوعها وهي متعددة

فقد أصبح من واجب جميع الحكومات تناول كل المشاريع ذات المنفعة العامة من مد الطرق وشق الترع وإقامة المعارض وتنظيم الموانئ وأسواق الحاصلات، والعمل على تنمية جميع الموارد من زراعية وصناعية، ومكافحة الآفات والأمراض البشرية والحيوانية والنباتية .

ونراها تقوم بنوع آخر كمطاعم الشعب وملاجئ العجزة ومستشفيات مجانية وصندوق التوفير ومساكن للعمال ومنع تشغيل الأحداث في المحالج وإنشاء لجنة للتوفيق بين العمال وأرباب العمل . ومقاومة البطالة وتنظيم أحوال العمال على وجه العموم وإنشاء النقابات الزراعية . وهذا النوع الأخير من الأعمال لا ربح منه ويحتاج إلى نفقات كبيرة ولا يعم كل السكان بل يخص فريقاً أو طائفة هي طائفة العمال أو صغار الزراع . أو على العموم يمس الفقراء من الأهالي .

والحكومة تقوم به تحسيناً ل حالهم وترقية لهم من الوجهة الصحية أو المالية أو الاجتماعية وهذا ما يطلق عليه التنظيم الاجتماعي الحقيقي . والحكومات جميعها تقوم به للأسباب الآتية : -

- (١) عجز الفقراء عن مقاومة ضغط الحالة الاجتماعية لضعف مواردهم وجهلهم .
- (٢) أن تركهم عرضة للحاجة وتناجها الوخيمة يؤدي إلى انتشار الإضراب والأفكار الثورية ويضعف قوة الانتاج فيهم .

(٣) ان تفشى الامراض فيهم يؤدي الى أخطار عامة لأن الأمراض لا تقف عند حدود منازلهم بل تعداها الى منازل الأغنياء .

(٤) ان في ترقية أحوالهم على العموم رفع مستوى الأمة العام لأنهم من الأمة بمثابة القاعدة من الهرم فاذا ارتفعت القاعدة وقويت وتحملت ازداد البناء متانة وصلابة وجمالاً . وقد بلغت عناية بعض الدول الاوربية بأحوال الفقراء حد التدليل والرفاهية فللعاطلين في انكلترا اعانة وكان بعضهم يستغنى بها عن السعي للعمل ويتنزه في باريس أيام نزول قيمة الفرنك . وللعامل تأمين ضد الامراض . ولهم أطباء يعالجونهم بنصيب من هذا التأمين . ولهم تأمين ضد الشيخوخة فمن شاخ منهم يتناول معاشاً . فضلاً عن تحديد ساعات العمل وقص الأجر .

وقد كانت العناية بالفقراء آخر القرن الماضي تعتبر فرضاً دينياً على الأغنياء . وكان هذا الفرض يؤدي في بعض الأوساط تأدية تامة . ومثل ذلك شرعت الزكاة وجعل الاحسان من وجوه البر والثواب . وكان الاحسان الى القرن الماضي كافياً للقيام بهذه الوظيفة الاجتماعية . وظيفة معاونة الفقير وتحسين حاله . فلما ازدحم السكان وتنوع توزيع الثروة واشتدت حاجة الفقراء شعر بالضرر العام الناتج من تركهم عالة على عاطفة الاحسان واتضح أنه من مصلحة الأمة كلها أن تترقى معيشة الفقير فيبعد عنه شبح العدم مشبح الأمراض . فتحول القيام بذلك من فرض كفاية يقوم به الأغنياء من تلقاء أنفسهم الى واجب اجتماعي تقوم به الدول وتجي من أجله الضرائب .

ولن أقصر بحثي على التنظيم الاجتماعي للفقراء بل سأتناول ذكر الاعمال ذات المنفعة العامة أيضاً لأنها نوع آخر من التنظيم الاجتماعي العام لكل السكان .

ولكى نميز بين التنظيم العام وبين التنظيم الاجتماعي أى بين الاعمال ذات المنفعة العامة للجميع وبين أعمال البر بالفقراء والعناية بهم نركن الى مقياس لا يحظى . فالاعمال التي يستفيد منها الأغنياء وينتفعون بها هي أعمال ذات منفعة عامة وهي تنظيم عام والاعمال التي لا ينتفعون منها هي التنظيم الاجتماعي الحقيقي الخاص بعامة الشعب

فالأغنياء أمثال البداروى عاشور وأمين فكرى طوموم ينتفعون بالطرق والمدارس وقد ينتفعون بمضخات اطفاء الحريق وبمجموعات الاسعاف لكنهم لن ينتفعوا أبداً بصندوق التوفير والمستشفيات العامة ومساكن العمال ومطاعم الشعب .

والآن ما الذى تعمله الحكومة المصرية من هذه الناحية

تعمل الحكومة المصرية على التنظيم والاصلاح فى ثلاث نواح معاً :-

(١) تعمل من الوجهة الاقتصادية لترقية موارد البلاد والافراد .

(٢) تعمل من الوجهة الصحية لتحسين الصحة ومنع الأمراض .

(٣) تعمل من الوجهة الاجتماعية لترقية الحالة عموماً بالتعليم وبتحسين أحوال المعيشة على وجه العموم .

(١) الوجهة الاقتصادية

تعمل الحكومة على ترقية وتحسين الحالة الاقتصادية بمجهود كبير جداً لا يشعر به إلا الذين يسهم مباشرة من الزراعة والصناع والتجار والعمال . وقد زادت جهدها اضعافاً فى السنتين الأخيرتين بسبب الأزمة المالية وأظهرت نفسها حكومة قوية عاملة منظمة يحاكى جهدها جهد اكبر حكومات العالم تفكيراً وتنظيماً وتنفيذاً .

وبدأت سياسة الحكومة الاقتصادية الإيجابية من سنى الحرب حيث شعر بحاجة مصر الى التجهز محلياً من المصنوعات بقدر الامكان فشكلت سنة ١٩١٦ لجنة لبحث موارد مصر الصناعية وكيفية استثمارها وكانت برئاسة دولة اسماعيل صدق باشا فنشرت تقريرها وما زال هذا التقرير أساس السياسة الاقتصادية فى مصر . وبناء عليه انشئت مصلحة التجارة والصناعة . وقد بدأت بعض الصناعات تنتشر كالغزل والنسيج والدباغة وعمل السجاد وبعضها تنشأ كالزجاج والصباغة وتنظيم الصادرات وأسواق المحاصيل حتى أسواق الفاكه والخضروات وانشئت النقابات الزراعية وأدخل النور والماء المرشح فى كثير من المدن .

وقد كللت هذه الجهود بأعمال عظيمة تمت فى السنتين الماضيتين منها انشاء بنك التسليف الزراعى ، يقرض الزراع على المحاصيل فلا يلجأون الى المرابين ييترون أموالهم . ومشروع التسليف العقارى لمنع نزع ملكية الاطيان المرهونة بدفع قسط عنها للبصارف الاجنبية . ومشروع التسليف الصناعى لاقرض الصناع على آلاتهم

وتوصلت الى إنشاء محل للجزارة لتحديد سعر اللحوم أقبل الناس عليه ووقفوا امامه صفوفاً، والى تحديد أسعار المبيعات بالقطاعي، ثم انها تعمل لتحسين الانتاج الزراعي بجميع الطرق منها انتخاب البذور والتقاوى وتحسين انتاج المواشى والدواجن وانشاء مصانع نموذجية للالبان والجبنه والزبدة ويكفى رؤية مزرعة الجميزة بالسنترة وحقول التجارب الكثيرة بها لمعرفة مدى هذا المجهود الذي ستظهر نتائجه بعد بضع سنين.

(٢) من الوجهة الصحية

كذلك بمجهود الحكومة من حيث الصحة العامة والافاق عليها. ويكفي القاء نظرة على مصلحة الصحة سنة ١٩٣٠ لمعرفة مبلغ هذا الجهد ومداه. يبدأ بالتعاون الدولي ضد الاوبئة والامراض الوافدة، ويشمل مكافحة جميع الامراض، والمباحثات العلمية في المكروبات والجراثيم لاستئصالها.

فهناك مصلحة الصحة البحرية والمحاجر لحماية القطر من الاوبئة التي تفد من الخارج فتراقب كل قادم وتتبعه حتى يثبت لها انه غير مصاب بامراض وبائية. ثم انها تكافح جميع الامراض المتوطنة والوافدة وأهمها الرمد والانكليستوما والبلهارسيا والسل وسائر الامراض المعدية.

وفي هذا السيل عممت مستشفيات الرمد، بعضها ثابت وبعضها متنقل ويبلغ عددها ٤٦ وبلغ عدد المعالجين مجاناً سنة ١٩٣٠ - ٤٣٥٠٠٠٦٢ أى نحو ٣٠ في ٪ من السكان ولزيادة العناية بمرضى الريف أنشئ في بعض المستشفيات مأوى يسكنه المريض ويبيت فيه اذا كان من بلدة بعيدة

وكذلك مستشفيات البلهارسيا والانكليستوما بلغت ٥٧ وعدد المرضى ٧٤٨٠٠٨٢ كلهم يعالجون مجاناً ومستشفيات للامراض السرية عددها ١٧ عولج فيها نحو ٤٠٠٠٠٠ مريض وفي كل العواصم وبعض المراكز والقرى مستشفيات عامة عددها ٧٤ فيها ٦٤٩٥ سريراً وعدد الذين عولجوا بها سنة ١٩٣٠ نحو ٤٠٢٥٥٠٩٣٧ أى ٣٠ ٪. وهناك فرع خاص يعنى بالأمومة والطفولة له مستوصفات خاصة، واحد في كل مديرية تقريباً كما في مصر واسكندرية وأسيوط مستوصفات خيرية فيها تلد الفقيرات ويعالج

الأطفال والوالدات، و يوزع اللبن مجاناً وبلغ عدد الوالدات فيها ٢٢,٢٨٧ وعدد الأطفال الذين عولجوا ٢٧٧,٠٦٠

وآخر هذه الاعمال، وهو لا يقل عنها أهمية، انشاء ٩١٤ مرحاضاً صحياً في قريتين بجهة بلبيس على سبيل التجربة لفحص نتائج علاج البلهارسيا والانكلستوما والاعمال الصحية في زيادة مستمرة. ففي ميزانية السنة القادمة ٢٧٤,٠٠٠ جنيه للمنشآت الجديدة.

وكذلك تقوم المصلحة بنشر الدعوة الصحية على طريقة مبتكرة بعرض أشرطة سينمائية في المدارس وعلى الخفراء وعلى الناس عموماً في الموالد الأربعة النبوى والزيني والحسيني والأحمدي، وفي هذه القاعة وفي الجمعية الجغرافية وعندها الآن ٣٨ شريطاً ومن أهم ما يسعى اليه تعقيم المرضى بعقولهم حتى لا يخلفوا نسلًا ضعيفاً

(٣) الوجهة الاجتماعية

تختص الوجهة الاجتماعية بتحسين حال الفقراء من الناحية العلمية والخلقية بتثقيفهم بمبادئ القراءة والكتابة بالتعليم الإلزامي الذي تعمل الحكومة على نشره تدريجياً حتى يعم سائر الناس وبمدارس ليلية فترتفع غشاوة الأمية فيقرأون بأنفسهم كلام الله المنزل ثم النشرات الصحية ويمكنهم المحافظة على حقوقهم فيمضون على السندات بدل أن يصموا بأختامهم ثم ينكرون

وكذلك من ناحية تنظيم العمل فالحكومة جادة في بحث حالة البطالة وحالة العمل لتنظيمه وتقرير يوم للراحة وتحديد ساعات العمل والحد الأدنى للأجور ومنع تشغيل طبقات من العمال في أعمال لا تناسبهم سناً أو خلقاً كمنع تشغيل النساء في الأعمال الشاقة الليلية^(١) كما منعت تشغيل الأحداث^(٢) والقاصرات في البارات^(٣)

(١) جريدة الاهرام في ١٩ مايو سنة ١٩٣٢

(٢) قانون نمرة ٤ سنة ١٩٠٩

(٣) قانون نمرة ١ سنة ١٩٠٤

ثم انها تسعى فى بناء مساكن نموذجية صحية للعمال وأقامت فعلا أبنية واسعة بجهة السيدة زينب الا أنها جاءت أرقى من حالة العمال فسكنها غيرهم . وتسعى الآن لجنة بوزارة المالية فى تنظيم بناء مساكن لهم مكان تل زينب وراء السيدة زينب . وأنشأت لهم مطاعم عامة رخيصة ، أربعة فى القاهرة وواحداً فى كل عاصمة تقريباً ، وصندوق التوفير فى البريد تقبل فيه الودائع من خمسة قروش ، وآمنت صغار الزراع على أرضهم فحرمتم نزع ملكية ما دون الخمسة أفدنة .

ثم ان الحكومة تعين جميع الملاجىء التى تقوم بها الجمعيات الخيرية ومن أهمها ملجأ العميان والصم والبكم .

وعملت مضخات أطفال الحريق وجمعيات الاسعاف فى سائر العواصم وبعض المراكز . واشتركت فى مؤتمر العمل الدولى بجنيف سنة ١٩٣٢ وأثبت عنها معالى نغرى باشا .

وتقوم بتنظيم مصايف لأولاد الفقراء لتصريف ثلاثة آلاف منهم كل سنة مجاناً وتقوم بذلك لجنة من الأعيان برئاسة محافظ القاهرة وعناية دولة صدق باشا ورعاية جلالة الملك .

وشرعت فى إيواء العجزة المتسولين توطئة لمنع التسول وتقوم بذلك لجنة برئاسة محافظ القاهرة ورعاية دولة رئيس الوزراء .

والمحاكم تقبل دعاوى الفقراء بدون دفع رسوم

ومن آخر وألطف ما قامت به تنظيم طائفة الصعايدة بالاسكندرية وانشاء ناد لهم يحسم الخلافات بينهم بطريقة ودية وكانت تودى الى الانتقام بالقتل ، وقد قرأت بالجرائد أن هذه السلطة نفسها تسعى الى تنظيم طائفة الفتوات والخدمة والبوابين النوبيين .

فهذا مجهود الحكومة وهو كبير مستمر ومتسع وشديد ، ولا أقول أن أعمالها نحو الفقراء وسعت كل شىء فنحن فى بدئها ، ولا نهاية الا بالقضاء على الفقر وإيجاد التوازن بين الثروة وعدد السكان . ولا تزال أعمالنا قاصرة عن أن تشمل جميع الفقراء وتتناول كل حاجاتهم . انما لا يمكن أن يقال ان الحكومة مقصرة نحوهم . ولا يظن أن ذلك

إحسان بل هو واجب اجتماعي نشعر به ويجب أن نقوم به لأن الأمة جسم واحد الفقراء أعضاء فيه وما دام عضو ضعيفاً أو عاجزاً فالجسم كله ضعيف عليل .

فالدولة قيمة أو وصية على الشعب تعمل لمصلحته ما يعجز الأفراد عن عمله لأنفسهم بأنفسهم إما للضعف الابتكار فيهم ولجهلهم وإما لعجزهم مالياً . أما الطبقات المتوسطة فيمكنها دائماً أن تنظم أحوالها بنفسها وهم يعملون . لذلك فالموظفون مثلاً وهم الطبقة المتوسطة ذات الدخل الثابت بدأوا ينشئون نقابات تعاونية لسد جميع حاجاتهم .

وقد شرع في أكثر وأغلب الأعمال التي عدتها في عهد الحكومات الوطنية أى من سنة ١٩٢٢ الى الآن وكلها في عهد جلالة الملك بوجيه ورعايته .

هذا ما تم في عشر سنين وهو حقاً بمجهود يجب أن نذكره بالحمد والشكر





الاستاذ سبابا حبشي
المحامى

علاقات مصر الدولية

لخضرة الاستاذ ساما مېشى

(١)

تناولت الموضوعات السابقة البحث عن العوامل الداخلية التي أثرت في تكوين مجتمعا المصرى بحالته الراهنة سواء اختصت هذه العوامل بالمكان الذى وضعتنا فيه الطبيعة أم بالبيئة البشرية التي نحن منها أم بنشاطنا فى الأخذ بأسباب الحياة .

وقد بقى عنصر هام من العناصر المؤثرة فى نشوئنا الاجتماعى — ليس داخليا بما بيننا أو حولنا وإنما هو خارجى عنا — وهذا العنصر هو علاقات بلادنا بالدول الأخرى وسأتناول فى بحثى أولا أهمية العلاقات الدولية كعنصر من العناصر المؤثرة فى نشوء المجتمع وأهمية علاقات مصر الدولية على الخصوص . ثم أثر علاقات مصر الدولية فى تاريخها القديم .

وانتقل منه إلى بيان أثر علاقات مصر الدولية فى تاريخها الحديث وفى أحوالها الاجتماعية الحاضرة .

وفى هذا القسم الأساسى من موضوعى احتاج على الخصوص الى طول اناة القارىء وسعة صدره لصعوبة البحث ودقته .

أما صعوبته فلأن مهمتى ليست مهمة المؤرخ الذى يتولى سرد الحوادث واستنباط ما بينها من علاقات وإنما هى مهمة الباحث الاجتماعى الذى يتوخى دراسة الأثر الذى تنتجه الحوادث فى أحوال المجتمع وفى مجرى نشوئه .

أما دفته فلأن الموضوع شائك قد يضع الباحث بين عاملين — حبه لوطنه وحرصه على كرامته وحبه للعلم وحرصه على أن يتوخى الحقيقة المجردة فى بحثه .

على أننى اعتقد أن عاطفة حب الوطن وعاطفة حب الحق لا تنافر بينهما لأن الوطن يخدم بالحق لا بالأهواء ويعتز بمواجهة الواقع لا بالأوهام .

ثم أن البحث الذى نقوم به بحث اجتماعى وليس بحثا تاريخيا — غير أن التاريخ يقدم المادة التى يبنى عليها الاجتماع مباحثه .

لهذا لا تتعرض للحوادث إلا بالقدر الذى يستدعيه الحال لبيان أثرها فى نشوء
أحوال مجتمعتنا المصرى مادياً وأدبياً .

إذا راجعنا تاريخ بلادنا الحديث تبين أن أهم الحوادث التى وقعت فيه بالنسبة الى
علاقاتنا الدولية ما يأتى -

أولاً - الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) وحكم محمد على باشا .

ثانياً - حفر قناة السويس .

ثالثاً - المنافسة الإنجليزية الفرنسية وتغلب النفوذ الانجليزى فى آخر الأمر وتقهقر
النفوذ الفرنسى أمامه .

رابعاً - علاقاتنا بالدول الأخرى ونظام الامتيازات الأجنبية والقضاء المختلط وقد
تطلع ببصرنا إلى المستقبل لنحاول أن نتكهن بما يخبئه القدر لبلادنا
العزيزة فى خاتمة هذا الموضوع .

(٢)

أهمية العلاقات الدولية كعنصر من العناصر المؤثرة فى نشوء المجتمع
وأهمية علاقات مصر الدولية على الخصوص .

الأمم والدول لا تعيش الواحدة منها بمعزل عن الأخرى ولكنها تلتقى فى الحرب
والسلم وتتصل بعضها ببعض بعلاقات الأخذ والعطاء والتجارة والسياحة والصداقة والمودة
والتحالف أو تنقطع علاقاتها فتلتقى فى الحرب والعدوان والغدر والغزو .

وكما ازدادت المواصلات سرعة ازدادت الصلات توثقاً وقرب تحقيق ذلك الحلم
الذى ينسجه خيال الحالمين من محبى خير البشرية حول جنيفاً مقر عصبة الأمم ،
وهو ان يدرك الجميع أن الدول ، وأن تعددت واختلفت وتباينت فى انظمتها وأغراضها
وسياستها ، هي أعضاء فى جسم واحد هو الإنسانية تتضامن فى الخير والشر وفى
الآلم والصحة وتعاون على تحقيق الغرض الأسمى وهو السلام والرفاهية والسعادة للعالم
الإنسانى أجمع . وقد كانت بعض الأمم فى الماضى تباهى بأنها فى عزلة عن المشاكل الدولية
فكانت انجلترا تعتز بوحدها Splendid isolation وكانت أمريكا تحرص على مذهب

Monroe Doctrine منرو

أما الآن فليس من المستطاع أن تتجاهل دولة ما يجرى عند الأخرى أو ان لا تتأثر

به. لقد كانت المسافة بين البلد الواحد والبلد الآخر تقاس في الماضي بالسنة للسريع المجتهد. أما الآن فتكفي سحابة نهار وظلمة ليل للانتقال بالمركب الهوائية من قارة إلى قارة ولعبور المحيط من بر إلى بر. وقد سمعنا مؤخرا كيف اجتاز منطاد جراف زبلن في يوم وبعض يوم القارة الأوروبية ووصل إلى اقصى آسيا الشرقية، فأصبح ذلك الشعار الذي كانت تنبأه به بعض الممالك (اسبانيا) وهو *non sufficit orbis* حقيقة عن البشرية بأجمعها على أنه الى أن يحين الوقت الذي يكمل فيه التضامن الدولي ويعم السلام ربوع المسكونة يتعين على كل دولة في تصريف أمورها الداخلية وتنظيم أحوالها أن تحسب حساب علاقاتها الداخلية بجاراتها.

في السياسة تنازع بقاء بين الدول كما أن في الطبيعة تنازع بقاء بين المخلوقات فقد تقضى العلاقات الدولية على إحدى الدول أو على إحدى الأمم بأن تتكيف بتكيف مخصوص بل أن تتخلق بخلق مخصوص.

ما الذي جعل ألمانيا وفرنسا أمتين حرييتين وورقي فنون الحرب البرية فيهما. ما الذي جعل إنجلترا أمة بحرية متاجرة، وغرس في الانجليز حب السياحة والاستعمار وتعمير الأقطار البعيدة. تنازع البقاء الدولي قضى عليها إما أن تكون سيدة البحار وإما ان لا تكون. وقد قال انجليزى عظيم لقومه في برلمانهم — احترسوا لأن البحر يخدمكم ولكنه يهددكم — يحميكم ولكنه يحاصركم.

كانت علاقات مصر الدولية منذ فجر التاريخ على درجة عظيمة من الأهمية بالنسبة الى مركزها الطبيعي بين العالم القديم والجديد. ففي حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى شواطئه دار تاريخ العالم القديم. وحول مصر دار تاريخ البحر الأبيض المتوسط. تقع مصر في ملتقى الطرق بين البلاد والأهم — تمد ذراعيها نحو الشرق والغرب وتصل بين الشمال والجنوب وتلتقى عندها ثلاث قارات.

تمتد أراضيها الى شواطئ بحرين عظيمين يصلها أحدهما بالبحار الأوروبية ويصلها الثاني بالبحار الهندية. هي مفتاح الشرق وقاعدته وأداة الوصل بينه وبين الغرب. لهذا ليس بالغريب أن يقول عنها نابليون في منفاه بجزيرة سانت هيلينا ذلك القول الذي يردده اللورد كرومر بعد قرن من الزمان في فاتحة كتابه مصر الحديثة « مصر أهم بلد في العالم » قال نابليون هذا وقد كان على رأس الحملة الفرنسية — ولم تكن قناة السويس قد حفرت بعد. ولم تكن تجارة الشرق والغرب تمر في المياه المصرية بعد.

هذا المركز الممتاز له مزايا وعيوب — له ورد وأشواك — له شهد وإبر . وقد جنت مصر بعض هذا الشهد ولكن لذعتها الابر . قدمت مصر جسمها ليد الغرب يده إلى الشرق فوّه فلم تجز إلا جزاء سنهار .

(٣)

أثر علاقات مصر الدولية في تاريخها القديم

وصلت مصر الى السما كين في عهد الفراعنة . وأثر رقيها تأثيراً عظيماً في البلاد الأخرى التي أخذت عنها حضارتها وعلومها وفنونها .

فيخبرنا التاريخ أن الفينيقيين نقلوا حروف الهجاء من مصر الى اليونان وانتشرت من اليونان إلى سائر البلاد الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط . ويخبرنا التاريخ أن هيرودوت أبا التاريخ زار مصر وكتب عن حضارتها وعجائبها لأهل بلاده وللأجيال المقبلة . وقد كتب العلامة البلجيكي Revillot كتاباً أثبت فيه أن قانون روما المعروف بالآلواح الاثني عشر La loi des XII tables مأخوذ عن القانون المصري القديم حيث نقله اليونان عن المصريين الأقدمين ثم أرسل الرومان عشرة رجال إلى بلاد اليونان لنسخ قوانينهم وحملها اليهم Decemviri legibus scribundis

ثم غربت الشمس على هذه العظمة ودار الفلك دورته واذا بمصر تهبط من مكانها بين السما كين إلى مرتبة نجم يدور في فلك الأمم التي تناوبت صولجان القوة على عمرّ العصور وعفت حضارتها وصارت مقلدة تأخذ عن غيرها بعد ان كان يؤخذ عنها . تغلب عليها البابليون والفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك الى أن انتهى أمرها الى الممالك وبهذا اختتمت صحيفة تاريخها الماضي واستقبلت عصرها الحديث الذي يبدأ بالحملة الفرنسية .

وقد قال نابليون في خطاب له في أثناء الحملة الفرنسية في أول مجلس اختيار من مشايخ مصر للتشاور في أمورها — وكان على رأسه الشيخ الشرفاوى — ونقل العبارة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه « ان قطر مصر فريد في مركزه وانه أخصب البلاد وكانت تجلب اليه المتاجر البعيدة . وان القراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الاوائل . ولكون مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكها فلما كانت بابل واليونان والعرب والترك . . . »

(٤)

أثر علاقات مصر الدولية في تاريخها الحديث

الحملة الفرنسية وحكم محمد علي باشا

يضع المؤرخون عادة بدء تاريخ مصر الحديث عند تقلد محمد علي باشا زمام الحكم. ولكن الأصح أن تعتبر الحملة الفرنسية فاتحة هذا التاريخ لأن تلك الحملة هي التي مهدت الطريق وأعدته لمحمد علي باشا وهي التي وضعت نواة المشاريع والأنظمة العظيمة التي وقع له تنفيذها.

لا بد أن يكون نابليون قد قرأ قول الفيلسوف لينتزر الذي قال للويس الرابع عشر عندما أراد أن يصرفه عن غزو هولاندا ويغريه بغزو مصر حتى يدفع الخطر عن البلاد التي ولد فيها ذلك الفيلسوف « مصر هولاندا الشرق ، فإذا كانت لفرنسا السيادة على تلك البلاد كانت لها الكلمة العليا في البحر الأبيض المتوسط وقبضت على طريق الهند ، وبعبارة أخرى على تجارة العالم ».

وكان نابليون يحلم بأن يجعل من مصر قاعدة أمبراطورية شرقية عظيمة كامبراطورية الاسكندر الأكبر.

وقد تحطمت هذه الآمال مع أسطول الحملة الفرنسية في موقعة أبو قير وفشلت الحملة فيما يختص بالأغراض الحربية والسياسية التي أريد تحقيقها. ولكن أمراً واحداً عاش فيها وسيستمر باقياً ما شاء الله له أن يبقى. وهذا الأمر هو الأثر الاجتماعي الذي أحدثته الحملة في مصر.

ولست أجد في بيان هذا الأثر الخالد أحسن مما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل بك في مطلع مقدمته لكتاب الشوقيات الذي تضمن شعر أمير شعرائنا شوقي في السياسة والتاريخ والاجتماع.

قال الاستاذ هيكل —

« كانت مصر الى حين قدوم الحملة الفرنسية اليها في سنة ١٧٩٨ بعيدة عن الاحتكاك بدول أوروبا وكانت بحكم خضوعها لاستبداد المالك تحت سيادة تركيا تسود فيها الدسائس ويعمل كل من أمرائها لما يجر اليه النفع. وكانت الحركة العلمية والأدبية خامدة فيها خمودها في سائر بلاد الدولة العثمانية. وبلغ من ذلك ان تدلى علماء الفقه

الاسلامى الذين كانوا فى مختلف العصور نخر مصر وزيتها وفتر نشاطهم وفسد اتاجهم فى ذلك العصر ، أما الأدب من شعروثر فلم تقم له إلى ذلك العصر قائمة منذ امتد سلطان الأتراك على مصر .

« فلما جاء الفرنسيون الى مصر وتغلغلوا فيها وسارت مع حملة الجنود حملة العلماء رأى المصريون مظهراً جديداً من مظاهر الحياة لم يكن لهم عهد به فى تاريخهم الأخير . ولما جاء محمد على فى سنة ١٨٠٦ وقام بما قام به من الإصلاح فى مصر بأن بعث البعث من أبنائها الى أوروبا وبعث إلى جوانب الحياة من صور النشاط ما حرك النفوس وأثار طلعها هب على البلاد نسيم صالح لعله أول بشارت البعث لامم الشرق العربى كافة . ثم لما عاد المرسلون من أوروبا وكانوا قد شهدوا فيها نشاطاً ضاعفه ما خلفته الثورة الفرنسية وراءها من حمى الفكر والقلب والعاطفة كانوا هم طلائع هذا البعث والعاملين عليه وكان من بينهم الأطباء والمهندسون والصناع والقواد . لكنها كانت حياة تحيط بها ظلمات ماض طويل لذلك كان سريان نورها ضئيلاً قصير المدى . ولكنها مع ذلك كانت بدءاً له ما بعده ، فلما كان عهد اسماعيل سارت فى سبيل النضج والقوة »
والحق أن علماء فرنسا مشوا فى أثر جنودها واليهم يرجع الفضل فى وضع الثقافة والتدين الحديشين فى مصر .

فلاول مرة سمعت مصر فى تاريخها الحديث صوت الحرية والمساواة والاخاء فى أول اعلان كتبه بونابرت قائد الحملة جاء فى مطلعها كما يترجم الجبرتى فى ركافة عربية بعد البسملة —

« من طرف الفرنساوية المبني على اساس الحرية والتسوية . . . »

وقد اثيرت هذه الأفكار الجديدة بعد خمسين سنة ونيف وكان أثرها ظاهراً فى مجلس شورى النواب المصرى وفى مطالب كبار رجال الثورة العرابية . وفى الحركة القومية المصرية التى لا تزال منذ عشرات السنين تدأب فى المطالبة بالحياة الدستورية كاملة ولأول مرة وضع فى مصر أساس النهضة العلمية وأساس الثقافة الحديثة حيث أنشأ نابليون بونابرت المجمع العلمى المصرى الذى لا يزال باقياً الى الآن .

استصحب نابليون فى حملته أحسن علماء العصر جونار وشامبليون والرسام دينون والنقاش ريدويه والمهندس لبير والرياضيين مونج وفوريه والطبيين والكيميائيين نوتيلو وجودفرى سنت هيلير ودولومين والميكانيكيين هاسنفراتز وكونيه والأطباء ديسنجيت

ولارى لتنظيم الصحة العامة والكتاب ارماند وبارسيفال جراتيون اللذين توليا تحرير أول صحيفة علمية أدبية في مصر تحت عنوان La Décade Egyptienne وأول صحيفة سياسية Le Courrier d'Egypte

وأنشأت الحملة المصانع الحديثة لسبك المعادن وصب المدافع ونسج المنسوجات القطنية والحريرية ودبغ الجلود وضرب النقود .

وأدخل نابليون الاصلاحات الحديثة في جمع الضرائب وفي تنظيم الادارة والتعليم . ولننقل شهادة مصرى كتب أخيراً باللغة الفرنسية كتاباً طبع بمصر سنة ١٩٣١ عنوانه « مصر الحديثة والتأثيرات الأجنبية فيها » - وهذا المصرى هو سعادة احمد سعيد باشا حيث قال - « وبالاختصار فان أعمال هؤلاء الرجال جميعاً كانت أترأثميناً . وعند ما ترك الفرنسيون مصر بقى فيها هذا الأثر الذى يمثل التأثير الفرنسى »

وننقل أيضاً شهادة مؤرخنا محمد رفعت استاذ التاريخ بمدرسة المعلمين في كتابه « تاريخ مصر السياسى في الأزمنة الحديثة » -

« كان نابليون يؤلف المجالس الوطنية بالقاهرة وفي البلاد ليستعين بهم على إدارة الحكومة وليستشيرهم في شؤونها

« على أن الهزيمة العنيفة التى سببتها الحملة للمصريين أيقظتهم من سبات كانوا فيه منذ العصور الوسطى وفتحت عيونهم لعصر جديد ومدنية جديدة تنطوى على معلومات وعدد وأفكار وأنظمة لا عهد لهم بها من قبل . فأنس المصريون من هذا الضوء بريقاً لامعاً وتسموا في الهواء عنصرأ منغشأ من ناحية أوروبا فاندفعوا بالطبيعة نحوها واصبحت أوروبا من ذلك الوقت موضع أعجابهم وارهابهم في آن واحد فالحملة كما أنها أيقظت المصريين من سباتهم كذلك لفتت أنظار دول أوروبا إلى مصر ومركزها التجارى بين العالم . وأصبح للفرنسيين المركز الأول في نظر المصريين واصبحوا هم مثلى المدنية الغربية والرقى الحديث فلما حان الوقت واحتاجت مصر الى رجال يصلحون شؤونها استعانت بضباط فرنسيين على تنظيم جيوشها وبمهندسين فرنسيين على تنظيم رها وطرقها وبأطباء فرنسيين واساتذة ومشرعين فرنسيين . واصبحت الصلة التى تربط فرنسا بمصر صلة أشبه بالصلة التى تربط الأستاذ بتلميذه »

ثم ذكر المؤلفا نشاء المجمع العلمى المصرى وقال ان نابليون عهد الى العلماء الذين أنشأوه بالبحث في أحوال مصر المختلفة فقاموا بمباحث خالدة والى هذه الجماعة يرجع

الفضل في درس مشروع وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر درساً هندسياً مهمة ليدر الذي كتب في الموضوع تقريراً فنياً كان موضع إعجاب واستفادة دلّسبس .

كذلك قام المعهد العلي بوضع خريطة جغرافية صحيحة عن مصر وبدرس تاريخ مصر القديم والتنقيب عن الآثار القديمة التي أجادوا في وصفها ورسمها وقد طبعت جميع مباحث العلماء في مجلدات عنوانها وصف مصر وهي أوثق المصادر التي نستمد منها تاريخ مصر الطبيعي وأحوالها عند دخول الفرنسيين . أما حجر رشيد فقد كشفه ضابط فرنسي اسمه بوشار ولكن استولى عليه الانجليز في أثناء حملتهم الأولى وهو الآن في متحف لندن . وفي سنة ١٨٢٢ توصل شامبلون الى حل رموز اللغة المصرية القديمة المنقوشة على حجر رشيد والى الحملة يرجع الفضل في إقامة الصنائع والمعامل وتنظيم الطرق وإنشاء مطاحن للغلال والمستشفيات والحدائق والمتنزهات والعناية بالرسم والنقش والتصوير وإنشاء المكاتب وطبع الجرائد وغير ذلك من الإصلاحات التي وإن لم تكمل إذ ذاك فقد كونت النواة التي تجمعت حولها الإصلاحات التي قام بها محمد علي في المستقبل .

وفي الواقع نجد نواة جميع الإصلاحات التي قام بها محمد علي في مباحث الحملة الفرنسية هذا فضلاً عن أن محمد علي استعان بالفرنسيين على وضع مشاريعه العظيمة . فالكونوليل دى سيلف Colonel de Selves المعروف بسليمان باشا الفرنسي الذي كان أركان حرب المارشال ناي قائد نابليون هو الذي نظم لمحمد علي جيشه . وسيريزى وبوسو Cerisy et Bossu هما اللذان أنشأ ونظما أسطولييه في البحر الأبيض والأحمر وكان يتألف من ٦٠ إلى ٨٠ قطعة وكان فيه ٤٠٠٠٠ بحار و ١٣٠٠ مدفع .

وكان منشؤ دور الصناعة والترسانات التي صنعت الأسلحة لجيش محمد علي باشا وأسطولييه من المهندسين الفرنسيين . وكان من تولى تحصين سواحل مصر بإقامة القلاع والاستحكامات من الفرنسيين . وكان من أنشأ مدرسة الطب المصرية التي احتفل مؤخراً بمرور مائة سنة على انشائها كلوت بك . وقد أخذ طلبتها من أنجب طلبة الأزهر وأنشأ كذلك محمد علي باشا مدرسة خرجت نخبة من رجال مصر في القرن التاسع عشر وهي مدرسة الألسن التي كان من خريجها العلامة محمد قدرى باشا . كما أنشأ مدارس للحرية والبحرية والهندسة والزراعة والفنون والصنائع بمساعدة مستشاريه ومعاونيه الفرنسيين . وأخيراً — وهذا لا يقل في الأهمية عن جميع ما تقدم — قام محمد علي باشا بمشاريع التجديد الاقتصادي بإنشاء الترع والجسور والطرق وإنشاء قناطر الدلتا بواسطة مونجل بك

ولينان دى بلتون وكان من نتيجة هذه الأعمال العظيمة أن زادت المساحة المزروعة من مليون فدان كما كانت وقت الحملة الفرنسية الى ضعف هذا الرقم . وزاد عدد السكان من مليونين كما قدر وقت الحملة الفرنسية إلى أربعة ملايين كما قدر في عهد محمد علي .
أما التجديد الاقتصادي في الصناعة فيكفي لاعطاء فكرة عنه أن محمد علي أنشأ ١٨ مصنعاً للغزل والنسيج ثم أدخل زراعة القطن وقصب السكر الى البلاد لتموين مصانعه بالمادة الاولية .

(٥)

حفر قناة السويس

كان مشروع القناة من أغراض حملة نابليون الأساسية وقام ليير بدراسة المشروع والتقرير عنه غير أنه أخطأ في حساب منسوب مستوى البحرين .
وقد عرض المشروع على محمد علي باشا فرفض أن يسمح به حيث قال انه إذا أنشأ القناة أوجد لمصر بسفوراً والبسفور سيكون سبب ضياع تركيا .
ولكن فرديناند دلسبس تمكن من إقناع سعيد باشا وتعاقد معه في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ وفتحت القناة في عهد اسماعيل باشا في سنة ١٨٦٩ .
وقد زادت القناة أهمية مركز مصر الدولي زيادة عظيمة وجعلت التنافس بين إنجلترا وفرنسا على النفوذ فيها حاداً — وهو اهم طريق بحرى في العالم . وقد حاولت إنجلترا أولاً احباط المشروع فلما نجح حاولت ان تستأثر به ولم يكن هناك مساهم انجليزى واحد في ال ٤٠٠.٠٠٠ سهم ولكن الفرص اتاحت لها بسبب الصعوبات المالية التي لاقاها اسماعيل باشا حيث اضطر ان يبيع نصيب مصر من الاسهم وعددها ١٧٦ و ٦٤٢ فاشتريتها إنجلترا (Disraeli) في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ بنحو اربعة ملايين من الجنيهات في حين أن قيمتها الآن تقدر بنحو ٢٥ مليوناً وتزداد أهمية القناة الدولية من سنة الى سنة وقد تسبب من حفره أن اصبحت جميع الدول التي لها بواخر تخترقه ذات مصلحة في مصر . وكانت وجود القناة في الاراضى المصرية من أهم الصعوبات التي اعترضت المفاوضات الانجليزية المصرية الى الان .
وزالت الصعوبة الدولية المتعلقة بمركز القناة الدولي باتفاق سنة ١٨٨٨ الذى ضمن حياد القناة . ولكن القناة جزء من الاراضى المصرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحظ مصر كما يرتبط حظ مصر بها ولنا عودة اليها في خاتمة المحاضرة .

(٦)

المنافسة الانجليزية الفرنسية وتغلب النفوذ الانجليزى وأثره فى حياة البلاد
كان شراء اسهم القناة اهم خطوة فى مد النفوذ الانجليزى فى مصر وتقهقر النفوذ
الفرنسى أمامه

وقد عقب استدانة مصر ان وضعت الرقابة الثنائية على ادارتها ثم خلع الحديوى ثم
وقعت حوادث الثورة العربية التى انتهت بالاحتلال الانجليزى وقبض الانجليز على ازمة
الحكم بواسطة مستشاريهم فى الوزارات تحت سيطرة القنصل الجنرال اللورد كرومر
وعقب ذلك تنافس واحتكاك بين انجلترا وفرنسا انتهى بمعاهدة سنة ١٩٠٤ .

ولا تهمنا هنا الحوادث التاريخية وانما يهمنا ان نسجل اثر النفوذ الانجليزى فى المجتمع
المصرى . . . هل كان ضاراً ؟ هل كان نافعا ؟ هل كان متردداً بين النفع والضرر ؟

اذا قرأنا كتاب مصر الحديثة للورد كرومر أو انجلترا فى مصر للورد ملز وجدناهما
يتغنيان بما صنعتها انجلترا لمصر وبما للنفوذ الانجليزى عليها من الايدى البيضاء .

واذا قرأنا كتاب تاريخ مصر السرى لسكاون بنت أو كتاب خراب مصر لروذشتين
وجدناهما يستمطران اللعنات على هذا النفوذ الانجليزى وما جره على مصر من النكبات
والحق ان ذلك النفوذ لم يكن نافعا نفعاً محضاً ولم يكن ضاراً ضرراً محضاً وكان نفعه
يغلب فى مرافق البلاد المادية بينما كان الأمر بالعكس بالنسبة لمطامح البلاد السامية
واحوالها وشؤونها الأدبية .

ليس من طبع المصرى انكار الجليل ولا يستطيع أحد أن يتجاهل أعمال الرى العامة
التي قام بها رجال أمثال السير كولن سكوت منكريف والسير ولهم ولكوكس والسير
ولهم جارستن . ولكن هل كان للصناعة المصرية حظ من الاهتمام كما كان للزراعة وهل
لم يبالغ فى تخصيص القطر بالزراعة لأن هذا يوافق أغراض الصناعة الانجليزية .

ولا يستطيع أحد أن ينكر فضل سكوت فى اصلاح القضاء الاهلى . ولكن هل
كان سكوت يستطيع هذا الاصلاح لو لم يجد من رجال القانون من تغذوا بالثقافة
الفرنسية وتخرجوا عن يد تستو ولمبير من كبار أساتذة القانون الفرنسى .

ولا يستطيع أحد أن ينكر تنظيم الأمن واستتبابه وتحسن الادارة وكفاية مصر شر
الاعتداءات الأجنبية .

ولكن هل لم يكن ثمن هذه المزايا فاضحاً وهل لم تشتترها مصر على حساب عزتها القومية وسيادتها .

كانت مصر قد قطعت شوطاً في اختبار النظام الدستوري وكانت اميال قادة الرأي فيها تستحق كل العطف من جانب كل محب للحرية . وكان يجب الأخذ بيد مجلس شورى نوابها ولكن انجلترا عندما استتب لها الأمر أوفدت اللورد دفرين لوضع أساس نظام الحكم المستقبل وقد كان قاسياً على النظام الدستوري حريصاً حرصاً زائداً في النصح بالتدرج في الحكم الذاتي فأشار بإيجاد مجالس لا نيابية بل شورية لأن قيام الحياة النيابية الحققة في البلاد لم يوافق خطته أن يكون الأمر بيد المحتلين .

وكذلك كان الحال في التعليم فقد كان الغرض الاساسى من خطة التعليم التي اتبعت والتي أشار بها اللورد دفرن إيجاد الموظفين المصريين للوظائف الحكومية فضحت باغراض العلم السامية .

ويخبرنا المستشار مارشال بأنه منذ سنة ١٩٠٤ عرض على اللورد كرومر مشروع إنشاء جامعة مصرية فكان جواب اللورد ان الوقت لم يحن بعد .

وأخيراً أنشئت الجامعة المصرية من غير مساعدة الحكومة وعلى رغبتها تقريباً .

هذا ملخص ما كان للاحتلال من مزايا ومضار .

وقد سلم الانجليز أخيراً بأن نظام الحماية أو الاحتلال ليس أساساً مرضياً للعلاقات بين البلدين . واتفق الجميع على انه يجب أن تحل محله معاهدة صداقة وتحالف بين البلدين ولا يزال الخلاف قائماً لم يحل لا من حيث المبدأ بل من حيث التفاصيل .

(٧)

نظام الامتيازات الاحندية والقضاء المختلط

مهما كانت علاقات بلادنا وثيقة بدولة من الدول العظمى على الخصوص كبريطانيا العظمى في الوقت الحاضر فان لمصر علاقات بالدول الأخرى يتغلغل أثرها في أحوالها الاجتماعية وفي حياتها اليومية .

في مصر بطبيعة موقعها الجغرافي عدد كبير من الاجانب يبلغ الآن نحو مئة وخمسين ألفاً ولنشاطهم أثر ظاهر في تجارة البلاد وصناعاتها .

وهؤلاء ينقلون الى البلاد حضارة بلادهم وعلومهم وفنونهم ويستثمرون فيها رؤوس أموالهم .

وقد أدى هذا الى نشاط وتقدم اشار اليهما اسماعيل باشا في الخطاب الذى وجهه الى نوبار باشا فى سنة ١٨٧٨ لانشاء مجلس النظار وباهى بأن بلاده انقطعت عن أن تكون من أفريقية وأصبحت جزءاً من أوربا .

ولكن هذا دعا الى وجود نظام الامتيازات الاجنبية التى اصبحت غلا فى عنق مصر وقيدت سلطة البلاد فى التشريع والمالية والقضاء وقد خففت المحاكم المختلطة من عبء الامتيازات الأجنبية . وإمكن ما زالت حى يحتذى وراءه بعض الطبقات المجرمة المنحطة فى تجارة المخدرات والرقيق الأبيض وغير ذلك من أمراضنا الاجتماعية التى تجد فى نظام الامتيازات سلاحاً تحارب به العدالة والانسانية .

كل هذه النظم تحتاج الى مراجعة وتعديل لىكى توافق حاجات الزمن .
والاختبارات القاسية التى مرت بها البشرية فى الحرب العظمى تمخضت عن أفكار جديدة .
وسياسة الاثرة والاستعمار أصبحت سياسة بالية تجر الوبال والويلات على الانسانية وتدور دائرتها على الباغي .

ينادى بحب السلام والخير فى العالم أجمع باحلال التضامن والاخاء الدولى محل الشحنة والمنافسة

ومصر خطر على كل دولة تريد الاستئثار بها .
كل بلد وضعته الطبيعة فى مركز ممتاز بحيث يقدم الى البلاد الأخرى خدمات يجب أن تكون خدماته لا موضع طمع البلاد الأخرى بل موضع تقديرها فلا تجر وبالا عليها .
يجب أن لا تكون مصر كالشمعة التى تحترق لىكى تنير الآخرين .
عندما تنال مصر ماتطمح اليه فى علاقاتها الدولية وتنبؤ مكانها بين الأمم الحرة المحبة للسلام تكون سبب بركة للآخرين بدلا من أن تكون مثار المشاحنات والبغضاء .





REVISED GEOLOGICAL MAP of EGYPT UP TO 1926

SCALE 1:2,000,000

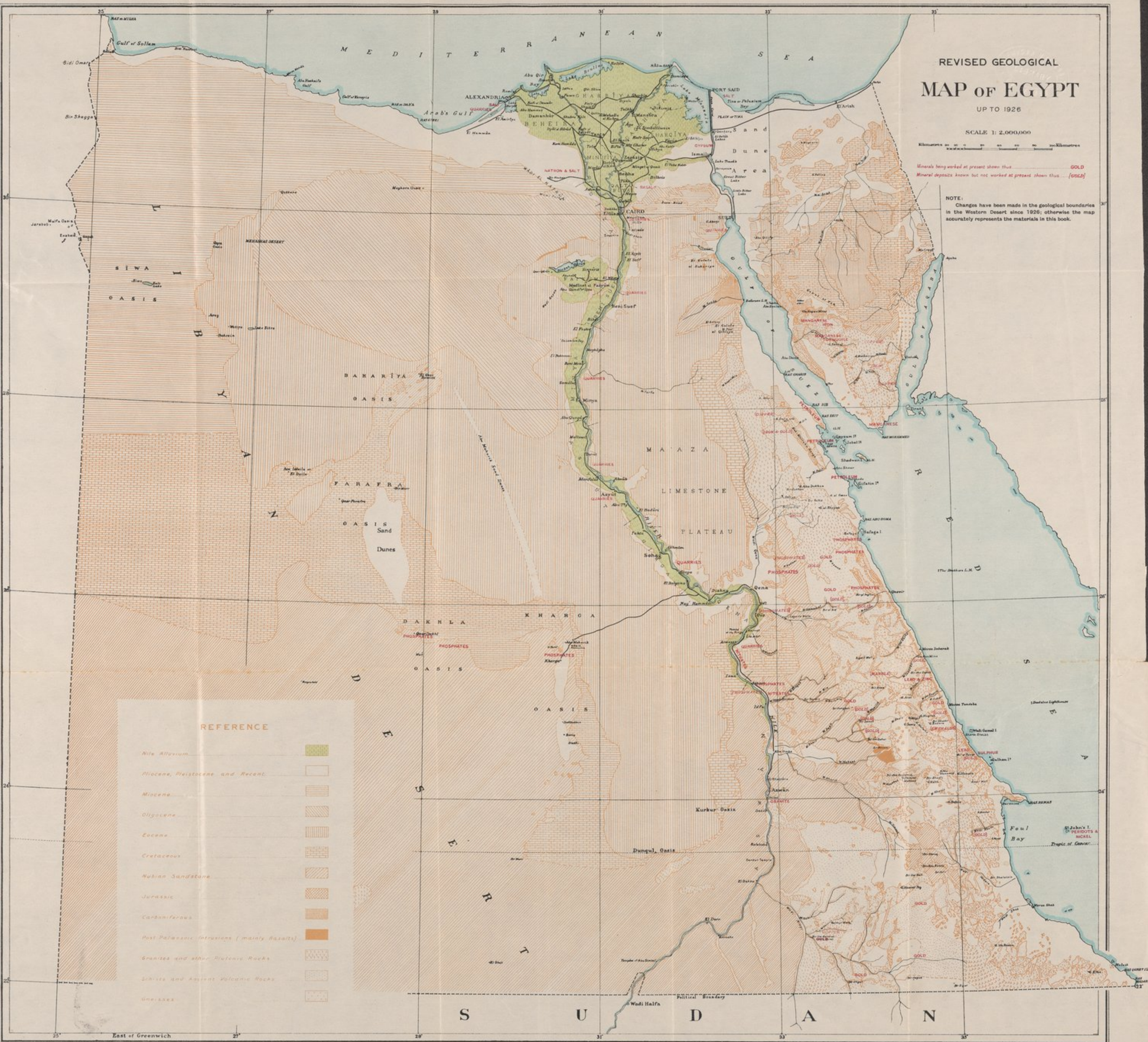
Kilometres 0 10 20 30 40 50 60 70 80 90 100 Miles 0 10 20 30 40 50 60 70 80 90 100

Minerals being worked at present shown thus **GOLD**
Mineral deposits known but not worked at present shown thus **[GOLD]**

NOTE:
Changes have been made in the geological boundaries in the Western Desert since 1926; otherwise the map accurately represents the materials in this book.

REFERENCE

- Nile Alluvium
- Pliocene, Pleistocene and Recent
- Miocene
- Oligocene
- Eocene
- Cretaceous
- Nubian Sandstone
- Jurassic
- Carboniferous
- Post-Palaeozoic intrusions (mainly Basalts)
- Granites and other Plutonic Rocks
- Schists and Ancient Volcanic Rocks
- Gneisses



D

A

Долгий ручей

Холмъ, Двѣ

Долгий

Долгий

Долгий

Долгий

Долгий

Долгий

Долгий

Долгий

Долгий

Долгий

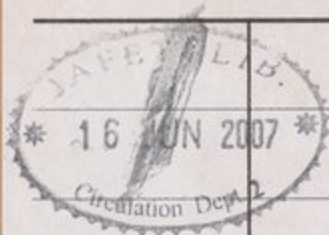
Долгий

Долгий

Долгий

Долгий

DATE DUE



916.2:K12hA:c.1

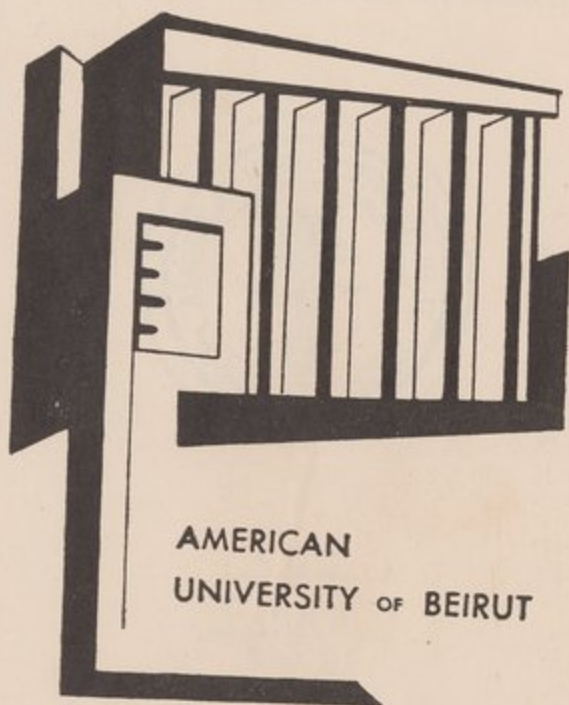
القاهرة. الجامعة الأميركية. قسم الخدمة

حضارة مصر الحديثة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01048348



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

